



وحدة تاريخ مصر



دار الكتب والوثائق القومية

الثورة .. والحرية (١٠)

وحدة تاريخ مصر

تأليف

محمد العزب موسى

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية

(١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

موسى ، محمد العزب .

وحدة تاريخ مصر/ تأليف محمد العزب موسى . -

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية ، 2011 -

٢١٩ ص؛ 20 سم. - (الثورة والحرية)

تدمك 5 - 0814 - 18 - 977 - 978

١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث.

أ - العنوان.

٩٦٢

إخراج وطباعة:

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

www.darelkotob.gov.eg

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١١/٩٠٠١

I.S.B.N. 978 - 977 - 18 - 0814 - 5



دار الكتب والأنايق القومية

الثورة .. والحرية سلسلة غير دورية

رئيس مجلس الإدارة
أ.د. محمد صابر عرب

إشراف
أ.د. أحمد زكريا الشلق

سكرتارية التحرير
ميادة مدحت عاشور

الإشراف الفني
محمد على الشريف

تصميم الغلاف
محمد عماد

المقدمة

المشكلة والمنهج

مصر دائماً هي الفصل الأول في كتب التاريخ ، افتح أي كتاب في التاريخ العام للبشرية تجده يفرد صدارته لتاريخ مصر القديمة ، فبعد المأمة عاجلة بفترة ما قبل التاريخ ينتقل الكتاب فوراً إلى المسرح الأول للحضارة ، إلى وادي النيل حيث تعلم الإنسان الزراعة والكتابة والتفكير ، ووصل في أمد قصير إلى قمة حضارية لا تدانيها قمة أخرى في التاريخ القديم .

ومصر كذلك هي القاسم المشترك الأعظم في كل كتب التاريخ . لن تجد كتاباً يتعرض لأية مرحلة تاريخية دون أن يذكر مصر مراراً بين ثناياه ، فهي دائماً مؤثرة أو متأثرة ، وهي دائماً موجودة في الصدارة أو الخلفية ، لن تجدهما أبداً معزولة في زوايا الإهمال حتى في أظلم حقبات تاريخها ، بل هي دائماً في مهب كل التيارات .

وإذا افترضنا جدلاً - حالياً على الأقل - أن الشعب الذي يسكن مدن مصر وقراها في القرن العشرين هو امتداد على نحو ما للشعب الذي سكن هذه الديار دون انقطاع منذ فجر التاريخ لكان لنا أن نعتبر هذا الشعب معجزة

حقيقية لم يجد الزمن يمثلها ، ولا نظير لها في سجل البشرية ، فهو أقدم صاحب تاريخ حافل يضرب في أعماق الزمن عدة آلاف من السنين قبل التاريخ المكتوب ، ثم واکب سير الحضارة البشرية منذ فجرها الأول حتى العصر الحديث .

ولكن - وهذه إحدى التناقضات الكبرى في مصر - ليس هناك شعب في العالم يجهل تاريخه كالشعب المصري أو يقف حياله هذا الموقف المتخبط .

ان كل الشعوب الزاكية ، بما فيها شعوب الدول الاشتراكية التي تتغلب لديها المشاعر الدولية على المشاعر القومية ، حريصة أشد الحرص على دراسة تاريخها والإحساس به ومعاشته كل يوم ، في الصحف والمناقشات والمتاحف والفنون .

لقد شاهدت في المجر كيف يقطعون مئات الأميال لزيارة أطلال قلعة قديمة أو قصر دارس لا يتعدى تاريخها مطلع العصور الوسطى ، ويرسم الفخر في أعينهم وهم يذكرون لك أن أحد أبطالهم سكن هذه القلعة منذ ألف عام ، أو أن ملكهم الأول بنى هذا القصر حين استقرت قبائل أجدادهم الرحل في تلك المنطقة ، ورأيت كيف تنتشر تماثيل ملوكهم وأبطالهم وشعراهم القدامى في كافة الميادين .

وشاهدت نفس الظاهرة في بولندا ، وكيف يحيطون معالمهم الأثرية - وتاريخها لا يتجاوز بضع مئات من السنين - باهتمام وعناية لا تحسد لها ، وهم حريصون على الاحتفاظ بمعالم القرون الوسطى في كراكوف مثلا وغيرها من المناطق الأثرية ، وتجد متاحفهم تتفنن في عرض قطعة من الشقافة أو الآنية أو القماش ، كانت تستخدمها قبائل أجدادهم الأولين .

وحق في ألمانيا الشرقية توجد نزعة واضحة لدراسة التاريخ القومي من

زاوية تقديمية ، وهم يهتمون هناك غاية الاهتمام بالمتاحف والقصور والقلاع القديمة ، ويحتفظون في منازلهم بقطع من الآثار القديمة التي تزيد قيمتها في أعينهم كلما ازدادت قدماً .

أما نحن - أصحاب أقدم وأغرب تاريخ في العالم ، فننظر إلى تاريخنا بخفة وعدم أكثرات . لكان عراقته تغنيبنا عن مشقة دراسته ، وغرابته تكفيها مؤونة فهمه !

ومن المؤلم أن عدم المبالاة هذه ليست قاصرة على رجل الشارع أو ساكن القرية ، بل تجدها أيضاً بين المتعلمين وأحياناً بين صفوف المثقفين ، وأخطر من ذلك بين المتخصصين في شؤون التاريخ أنفسهم ، كالمسؤولين عن طريقة العرض في المتاحف والمعالم الأثرية !

فهل يمكن أن يكون الشعب المصري رغم أنه صاحب أقدم تاريخ ليست له ذاكرة تاريخية ؟

أم أن هناك إحساساً غامضاً لدى الشعب بأنه ليس صاحب هذا التاريخ الذي يتحدثون عنه ، وإنما أصحابه هم أولئك الملوك والولاة والأسياد الذين جاؤوا وزالوا وبقي الشعب ، ولكن خارج التاريخ ؟

أم لعل هذه الظاهرة إحدى تركات عصور الجهل والظلام والاستعباد التي ما تخلصنا منها إلا بالأمس القريب ؟

أغلب الظن أن السبب الثالث هو الأقرب إلى الصواب ، فذاكرة الشعب المصري ليست أضعف من ذاكرة غيره من الشعوب ، وبالرغم من أنه شعب زراعي أساساً - والمجتمعات الزراعية تعنى بالطبيعة لا التاريخ - إلا أنه لا ينسى بسهولة ، ولا تزال تعيش في وجدانه روايب وذكريات قديمة لا حصر

لها ، يتناولها شفاة جيلاً بعد جيل ، ولن تجد قرية مصرية ليست لها ذكريات تحتفل بمناسبةاتها عاماً بعد عام ، وأن مجرد بقاء الملاحم والسير والقصص الشعبية حية بين المصريين مئات السنين يرفع في حشد ذاته أي مطعن عليهم بضعف الذاكرة .

وحقاً لقد كتب التاريخ المصري ، ونحت في الصخور ، ولون في القصور من زاوية الحكام لا المحكومين ، ولا يكاد يكون هناك تاريخ مكتوب للشعب نفسه ، ولكن هذه ليست ظاهرة قاصرة على مصر ، فإن التاريخ بشكل عام سجل في مختلف العصور في زاوية الذين يملكون إمكانيات تسجيله وتخويره وتطويعه لأغراضهم ، وهم أبناء الطبقة العليا المسيطرة ، ابتداء من تاريخ روما الذي هو أساساً تاريخ أباطرتها وقوادها إلى تاريخ القرن العشرين ، وهو تاريخ الحروب والأزمات التي أثارها الحكام والسياسيون وأصحاب المصالح الاقتصادية .

ولكن ، ليس صحيحاً كذلك أن الشعب المصري - أو أي شعب آخر - عاش خارج التاريخ ، فالشعب دائماً هو صانع التاريخ ، والحكام والقواد والحكام والنبل لا يعملون في فراغ ، بل هم يتصدرون حقاً أو باطلاً ، عدلاً أو ظلاماً ، حركة الجماهير . والشعب المصري بأبنائه من ملايين الفلاحين والحرفيين والمتقنين من مختلف العصور ، هو الذي شيد الأهرامات العظيمة التي استقرت فيها أجساد الفراعنة ، وهو الذي أخرج بدائع الفن القديم التي نسبها الحكام لأنفسهم ، وهو الذي خاض الحروب ، وتحمل المحن ، وقاوم الزمن .. انه لم يكن أبداً خارج التاريخ بل كان دائماً في قلب معتمته .

ويبقى أن يقال باطمئنان أن تلك الظاهرة المؤسفة - وهي عدم الوعي الكافي بتاريخنا - ترجع فحسب ، أو في المحل الأول ، إلى عصور الاستبداد والسيطرة الأجنبية التي عانتها مصر في مختلف مراحل تاريخها ، والتي بذل

خلالها الطغاة والمحتلون أقصى ما يستطيعون من جهد لإذلال الشعب وتجهيله ،
وطمس ذاكرته وهدم شخصيته حتى لا يعود يذكر شيئاً من أمجادهم ، وبالتالي
تسهيل السيطرة عليه وقيادته .

وأبلغ دليل على ذلك انه ما ان اخذت تلك السحابة السوداء تنقشع حتى
بدأ الشعب المصري يسترجع ذاكرته ويحس بتاريخه ، ويبحث عن شخصيته
المفقودة ، ونحن نشاهد منذ نصف قرن على الأقل أي منذ بداية النهضة الفكرية
الحديثة بعد ثورة ١٩١٩ اهتماماً كبيراً بالدراسات التاريخية وبالمعالم الأثرية على
السواء ، لقد ولدت لدى الشعب المصري حاسة الاحساس بالتاريخ .

* * *

ولكن نظرة المصريين إلى تاريخهم لا يزال يشوبها قدر كبير من التخبط ،
فليست هناك نظرة موحدة واضحة المعالم إزاء التاريخ المصري ، بل يبدو
أحياناً كأن ليس ثمة اتفاق على الخطوط الرئيسية فيه .

وهناك مدرستان رئيسيتان .. إحداهما تؤكد فكرة استمرارية مصر
وتتطرف أحياناً إلى حد الزعم بأن مصر الحديثة لا تزال فرعونية جوهراً ، وان
كل ما طرأ عليها من تغييرات لم يمس سوى القشور .

والثانية تؤيد فكرة تنوع مصر ، وتتطرف أحياناً إلى حد الزعم بأن مصر
العربية الإسلامية أو على الأقل مصر الحديثة منبئة الصلة بما قبلها ، وليس هناك
بالتالي إطار واحد للتاريخ المصري ، وليست هناك علاقة ما بين المصريين المحدثين
والمصريين القدماء الذين هم مجرد أمة بائدة من الوثنيين .

وهذا الخلاف يرجع - في رأي - إلى ثلاثة أسباب محددة :

السبب الأول ، طول التاريخ المصري وتنوعه الشديد وتوزعه بين ثلاث أو أربع حضارات مستقلة هي الفرعونية والهلينية والبيزنطية والإسلامية بحيث أصبحت لا تربطه في الظاهر وحدة واحدة بحال من الأحوال ، بل يبدو آخره مختلفاً تماماً عن أوله ، في حين أن خيط الاتصال الحضاري أكثر وضوحاً بالنسبة لشعوب عريقة أخرى- وإن لم تكن أعرق من الشعب المصري كالصينيين والهنود والفرس .

والسبب الثاني أن التاريخ المصري بالرغم مما كتب فيه من دراسات لا تحصى بمختلف اللغات لم يدرس بعد دراسة تحليلية تشريحية تنظر إليه ككل ، وتحاول أن تبحث في أغواره عن خيط عام يربط بين مراحله وأجزائه ، بل إن الدراسات التاريخية عن مصر هي في مجملها - وباستثناءات قليلة للغاية - دراسات جزئية تركيبة تهتم بعصر واحد أو حقبة معينة وتغفل ما قبل وما بعد بدعوى التخصص الدراسي أو التباين الأساسي بين مراحل التاريخ . ومن الاستثناءات القليلة الحديثة التي تخلصت من هذا الأسلوب « تكوين مصر » لحمد شفيق غربال ، و « سندباد مصري » للدكتور حسين فوزي ، و « شخصية مصر » للدكتور جميل حمدان ، و « مصر ورسالتها » للدكتور حسين مؤنس ، و « في أصول المسألة المصرية » لصبحي وحيدة .

والسبب الثالث هو تصور وجود تعارض بين القومية والتاريخ .. ففسد تنازعت مصر في مطلع نهضتها الحديثة ثلاثة اتجاهات قومية لم تستطع للأسف أن تتعايش فيما بينها بل كان كل منها يرفض أحد زميليه أو كليهما بشدة .

وهذه الاتجاهات هي: الاتجاه الإسلامي الذي كان ينادي بالارتباط بجامعة الشعوب الإسلامية، ويجعل العقيدة الدينية محور التوجيه السياسي والاتجاه الفرعوني الذي يرى أن مصر تختلف بحكم أصلها وظروفها عما يجاورها من الشعوب العربية والإسلامية، وبالتالي يحصر نشاطها في مجاها الإقليمية الذي قد يمتد ليعني وحدة

وادي النيل. والاتجاه العربي الذي يركز على أن مصر جزء لا يتجزأ من الوطن العربي بحكم الأصل واللغة والمصالح والمشاعر والتاريخ وينبغي بالتالي أن تكون القومية العربية محوراً للفكر والسياسة .

وكان لهذه الاتجاهات تأثير واضح في النظرة الى التاريخ المصري ، فالذين ينادون بالاتجاه الإسلامي يركزون على تاريخ مصر الإسلامية وثقافتها ويغفلون التاريخ الفرعوني باعتباره تاريخاً وثيقاً يستنكره الدين ، ويرفضون القومية العربية باعتبارها نزعة شعبية .

والذين يتمسكون بالاتجاه الفرعوني يركزون على تاريخ مصر القديم وخصائصها الإقليمية ويقللون من أثر الإسلام والعروبة معاً ، والذين يتحمسون للاتجاه العربي يتجاوزون عن تاريخ مصر القديم وخصائصها الذاتية بدعوى انها يذكيان النزعة الإقليمية الانفصالية ، ويقللون في نفس الوقت من أهمية العامل الديني باعتباره لا يصلح أساساً للقومية .

وأعتقد أنه بالرغم من الاختلافات الظاهرة بين هذه الاتجاهات الثلاثة فإنها غير متناقضة أصلاً فيما بينها ، فهي ثلاثة أوجه لحقيقة مصر الواحدة ، وما الجساسة المفرطة التي كانت ترتبط بالخلاف بين هذه الاتجاهات الثلاثة إلا عرض من أعراض المراهقة الفكرية في طريقه حتماً للزوال .

ليس هناك تعارض بين الذاتية المصرية ، والعقيدة الإسلامية ، والقومية العربية ، إنما ينشأ التعارض عند محاولة وضع إحدى هذه المقولات في غير وضعها الصحيح .

ان القول بوجود شخصية مصرية متميزة نتيجة لتطور تاريخي خاص لا يعني التنكر للعروبة ، ولا يعني التركيز على ما يفرق دون ما يوحد بل انه حقيقة موضوعية من الخطأ تجاهلها ، والايان بإسلامية مصر لا يتطلب بتر تاريخها فيما قبل عام ٦٤٠ ميلادية . والإخلاص للقومية العربية لا يستدعي اعتبار هجرة

القبائل العربية إلى مصر بعد الفتح الإسلامي أساس عروبتها، فهذه نظرة خاطئة من وجهة النظر القومية ذاتها ، لأن القومية العربية لا تقوم على أساس ديني بمعنى أن دخول مصر في الإسلام هو أساس قوميتها وبداية تاريخها ، كما أنها لا تقوم على أساس عنصري بمعنى أن المصريين عرب بحكم ما ينساح في شرايينهم من دماء عربية خالصة ، وإنما تقوم على أساس ثقافي لغوي ، بمعنى أن نطق مصر بالعربية ومساهمتها في كنوزها الفكرية والانسانية هو الأساس الوطيد لقوميتها العربية .

وعلى ذلك أرى أن هناك ثلاثة ألوان من التعصب ينبغي رفضها : التعصب للأقليمية المحلية على أساس التميز التاريخي والعرقى للمصريين ، والتعصب للشاعر الدينية الذي يلغي التاريخ والقومية معاً ، والتعصب للفكرة العربية إذا انكر الشخصية المصرية وجردها من سماتها التاريخية والحضارية الخاصة .

ولقد حان الوقت للقضاء على تلك الهوة المصطنعة بين تاريخ مصر وعقيدتها وقوميتها ، وإزالة ما بين هذه الحقائق الثلاث من حساسية وهمية مرجعها الجهل أو التعصب ، فالتاريخ المصري دوحة هائلة متأسكة الحلقات تضرب يجذورها في اعماق الزمن ، وهي إذ تلتج الآن ثمرة القومية العربية فما هذه الثمرة سوى النتاج الطبيعي لتلك الدوحة بعد عملية التعظيم العربي الإسلامي منذ أربعة عشر قرناً وهي فترة على أهميتها لا تعدو ربع تاريخ مصر المكتوب . ومن الخطأ الآن في عصر السباحة الفكرية والبحث العلمي التنكر للدوحة من أجل الثمرة أو إنكار الثمرة تعصباً للدوحة ، وفي الواقع لن يستقيم احساس المصريين بتاريخهم وقوميتهم معاً ، ما لم يضعوا هذه الحقيقة دائماً نصب اعينهم .

ولقد اخذت تتبلور بالفعل النظرة السليمة للتاريخ المصري والشخصية

المصرية (١) . : إنها نظرة لا تبتز الماضي ولا تعتبره في نفس الوقت عبئاً على الحاضر او قيداً جامداً عليه ، انها تركز على الحاضر ، ولكنها تتسع للماضي وتبحث فيه عن جذور الحاضر والمستقبل . انها صيغة خلاصتها وحدة واستمرارية التاريخ المصري مع الاقرار بعدم جموده او ركوده ، فهي إذ تقول بأن جذور مصر الحديثة تمتد في اعماق مصر القديمة ، فإن مصر الحديثة ليست مومياء تخلفت عن مصر القديمة ، وهي إذ تزعم ان الشعب المصري اكثر شعوب العالم عراقاً ، إلا أنه في نفس الوقت من اكثرها تجدداً ومرونة ، فقد جدد دمائه وافكاره اكثر من مرة عبر التاريخ ، وكان يتمتع دائماً بقدرة مذهلة على تمصير الواردين ، وطبعم بطابعه ، فلا تناقض بين الأصالة والتجديد ، بل ان اصالة مصر وقدمها هما اساس وخلفية تجديدها وتطورها .

(١) في الحديث الذي ادلى به الزعيم الخالد جمال عبد الناصر الى الصحفي الاميركي جيمس روستون ، رئيس تحرير صحيفة نيويورك تايمز في ١٣/٢/١٩٧٠ ونشرته صحيفة الاهرام بعد ذلك بيومين ، قال الزعيم رداً على احد الاسئلة « ان شعبنا هنا له في الحقيقة خبراته ، لدينا حضارتنا ، الحضارة المصرية القديمة التي استطاعت ان تواجه العديد من الغزاة ... ان هذا الشعب شعب عريق ، وشعب عظيم ، ومهما كانت الصعاب التي يواجهها فانه يواجهها باصرار » .

وأجاب عن سؤال آخر حول سبب الهدوء الذي يواجه به الشعب المصري غارات الطائرات الاسرائيلية على حافة القاهرة قائلاً : « انه يعود الى تاريخ هذا الشعب .. ففي كل رجل من الرجال هنا شيء يترسب في اعماقه من التجربة الطويلة لاجدادهم عبر اجيال تاريخية ممتدة » .

واجاب الزعيم عن سؤال آخر حول ما اذا كان هناك ازدياد في الشعور بالوطنية المصرية قائلاً « قبل سنة ١٩٦٧ كان الشعور الاكثر ظهوراً هو الشعور بالقومية العربية ، وبعد سنة ١٩٦٧ ظهر ايضاً الشعور بالوطنية المصرية الى جانب الشعور بالقومية العربية ، وأظنك تعرف انهم عرضوا علينا صيفاً تنص على الانسحاب من سيناء وحدها ، ولم يوافق احد على ذلك ، وهذا هو الشعور بالقومية العربية ، والحقيقة انه ليس هنالك تناقض بين الشعور بالوطنية المصرية والقومية العربية » .

ان استمرارية الشعب المصري يمكن تشبيهها من الناحية الرمزية باستمرارية النيل ، فكما ان النيل قديم يشق نفس المجرى منذ آلاف السنين إلا ان مياهه جارية ومتجددة كذلك مصر عريقة قائمة بلا انقطاع ، والحياة فيها مستمرة متجددة .

استمرارية الشعب المصري ديناميكية وليست استاتيكية ، فليس صحيحاً ان الانسان المصري لم يغير سوى ثيابه أو جلده الخارجي مع تغير العصور ، بل انه في الحقيقة تطور في أعماقه وأصبح حاصل ضرب لا حاصل جمع مختلف الحضارات التي عاشها وتمرس بها ، ويعبر أحمد رشدي صالح عن هذه الحقيقة قائلاً :

« لقد يحلو للبعض أن يقولوا ان رجل الشارع المصري عبارة عن طبقات من مدنيات تتركب بعضها فوق بعض ، فهو مصري في ظاهره فاذا رفعت تلك الطبقة ألفيته قبطياً أو اغريقياً ، ثم حين ترفع تلك الطبقة تجسده فرعونياً ، وليت مثل هذا الرأي كان من قبيل الدعاية أو اللعب بالألفاظ ، ولكنه يبدو في كتابات كثيرة ، وفي كتب متخصصين ، وخلاصته ومؤداه انه يستطيع الرجوع والانتكاس الى حيث كان المصري عربياً أو قبطياً أو فرعونياً ، والحق ان الشخصية المصرية شأنها شأن اي شخصية قومية أخرى قد أصبحت اليوم مزاجاً مركباً تركيباً جدلياً وتاريخياً لا تستطيع قوة أن تسحق عناصر منها أو تسلب بعضها ، والحق ايضاً انه بصرف النظر عن تلك المؤثرات المختلفة فنحن اليوم عندما ندرس الشخصية المصرية نخطئ الخطأ كله إذا اعتبرناها فرعونية جوهرأ ، أو قبطية جوهرأ ، أو عربية جوهرأ ، انما هي من بعد ومن قبل مصرية وقومية ولا شيء آخر^(١) .

* * *

(١) أحمد رشدي صالح : الادب الشعبي ص ٥٥ .

وأود منذ البداية أن أسوق رأي المؤرخ العالمي أرنولد توينبي في التحذير من خطر دراسة التاريخ الوطني لأية أمة كوحدة مستقلة^(١) ، إذ يضرب توينبي مثلاً بكتاب المؤرخ الفرنسي كامي جوليان : *De la Gaule à la France : Nos Origines Historiques* الذي نشر عام ١٩٢٢ ويقول إن قارئ هذا الكتاب لا يسهه إلا أن يذكر دائماً أن مؤلفه فرنسي ، بل فرنسي يعين في فترة الحرب العظمى لأنه مكتوب بفرض مسبق هو تأكيد شخصية فرنسا التاريخية منذ أقدم العصور ، وبالتحديد منذ ما قبل التاريخ عندما لم يكن هناك شيء اسمه فرنسا . والمؤلف يعتبر فرنسا وحدة قائمة بذاتها من مختلف العصور ، فلو أن العالم كله قد زال من حولها وبقيت فرنسا وحدها لما كان لذلك أثر في نظريته بل لاستمرت فرنسا بمحدودها المادية الواضحة كما هي يغزوها الغزاة وتتغلب عليهم بوطنيتها . ويضيف توينبي أن المؤلف لا يخفي خبيله وارتباكاً عندما يتحدث عن فرنسا تحت ظل الأباطورية الرومانية ، ولكنه يبذل قصارى جهده لإثبات أن هذه القرون الخمسة التي انصرفت بين جيل يوليوس قيصر وجيل سيدونيوس أبوليناريس لم تكن ذات تأثير كبير على فرنسا بل ظلت الشخصية المحلية لبلاد الغال حقيقة أهم في حياة سكانها من حقيقة انتمائهم للإمبراطورية الرومانية ، فالطابع الوطني متغلب على الكتاب لا سيما وقد وضع خلال أزمة الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) ويكاد توينبي كما يقول يسمع المؤرخ كامي جوليان يصبح صيحة الوطني الفرنسي خلال هذه الحرب : *Ils ne passeront pas !*

وينتقد توينبي هذا الأسلوب في كتابة التاريخ ، ويراه قائماً على تصور خاطئ ، إذ لا يمكن كتابة تاريخ لفرنسا يكون مستقلاً عن تاريخ أوروبا ، كما لا يمكن كتابة تاريخ خاص لسويسرا أو الصرب أو كرواتيا يكون منفصلاً عن تاريخ المجتمع الغربي ، فالحدود التاريخية لفرنسا - أو أية دولة أخرى - لا

1) Toynbee, A. A Study of History vol. I P.P. 11-22 .

تقف عند حدودها الجغرافية ، ويأخذ توينبي بريطانيا كحالة للبحث رغم أنها تتمتع بعزلة نسبية أكثر من غيرها من الدول الأوروبية نتيجة لعامل الجغرافيا الذي جعل منها جزيرة منفصلة عن القارة ، وعامل السياسة الذي جعلها تبتمد بقدر الامكان عن مشاكل القارة الأوروبية ، ومع ذلك فان بريطانيا لا تمكن دراستها كوحدة تاريخية مستقلة ، بل ان كل التطورات والأحداث الهامة في تاريخها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بأحداث وتطورات أعم في الخارج ، فمثلاً عندما ظهرت لأول مرة شخصية بريطانيا المستقلة بتحولها من الوثنية إلى المسيحية الكاثوليكية في أواخر القرن السادس الميلادي كان ذلك نتاجاً للتطورات التي حدثت في كل مجتمعات غرب أوروبا حينذاك. وقيام النظام الاقطاعي في بريطانيا في القرن الحادي عشر ساعد عليه الغزو الدائم لبريطانيا في ذلك الحين، وهذا الغزو بدوره كان نتيجة لتجوال القبائل الاسكندنافية من شمال وغرب أوروبا ولا يمكن فهمه ما لم تتسع الدراسة لتشمل على الأقل اسكنديناوا وفرنسا . وكذلك فان عصر النهضة في بريطانيا في الربع الأخير من القرن الخامس عشر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحركات الثقافية والسياسية في أوروبا ولا سيما في شمال ايطاليا ، وحركة الاصلاح الديني في الربع الثاني من القرن السادس عشر لم تكن ظاهرة انجليزية بحتة وانما كانت مظهراً لحركة تحرر عامة في شمال غرب أوروبا [تشمل البلطيق وبحر الشمال والاطلنطي] تسعى للخلاص من سيطرة الجنوب الأوروبي . ومرحلة التوسع البريطاني فيما وراء البحار التي بدأت في الربع الثالث من القرن السادس عشر كانت نتيجة للتنافس بين الأمم الأوروبية وصراع القوى في القارة ، وحتى نظام الحكم البريطاني منذ الربع الأخير من القرن السابع عشر والثورة الصناعية في الربع الأخير من القرن الثامن عشر رغم انها يبدو ان نظامين بريطانيين ذاتيين سبقت بهما بريطانيا غيرها من الدول ، إلا انها كانت في الواقع نتاجاً لظروف خارجية عامة ، فالنظام البرلماني في بريطانيا تأثر بحركة مشابهة معاصرة في فرنسا ، والثورة الصناعية كانت نتيجة لتوسع بريطانيا فيما وراء

البحار ونظام التجارة الحرة وما أدى إليه هذان العاملان من تدفق المواد الخام على الجزيرة البريطانية .

ويخلص توينبي من ذلك الى أن التاريخ الوطني البريطاني لا يمكن فهمه أو دراسته بمعزل عن وحدة أكبر هي المجتمع الاوربي الغربي في مجموعه ، وكذلك الحال بالنسبة لأي دولة أو امة أخرى .

في ضوء هذه النظرة المتكاملة للتاريخ اخشى ان يقع هذا الكتاب في كثير من الشطط ، فالكتاب محاولة للبحث عن خيط عام يربط بين مراحل التاريخ المصري ويبرهن على انه تاريخ شعب واحد لا شعوب متعددة بما قد يوحي الى بعض الاذهان بأن مصر كانت مجتمعاً مغلقاً منذ ابعد العصور وانها تطورت تطوراً ذاتياً ، وهذا خطأ واضح وابعد ما يكون عن هدف هذا الكتاب ، فليس هناك حد للتأثيرات المتبادلة بين مصر والعالم الخارجي في مختلف العصور بالرغم من عزلة مصر النسبية نتيجة للعامل الجغرافي المعروف ، ولا يمكن نزع مصر من قلب التطور الحضاري العالمي طيلة خمسة آلاف عام على الأقل ، وليس الهدف من هذا الكتاب الفصل « الشوفيني » بين مصر والخارج ، وإنما محاولة فهم العلاقة بينهما ، والبحث عن رابطة بين العصور المصرية في نطاق المراحل المراحل المختلفة للتاريخ العالمي ، أو بكلمة أخرى اننا بدون التقليل من أهمية التطورات الكبرى التي حدثت في مصر نتيجة للعوامل الخارجية ، ومن أهمها : اندماج مصر في الهلينية والمسيحية والإسلام والعروبة والانفتاح على الحضارة الغربية الحديثة فحاول أن نعرف هل حدثت هذه التطورات في مصر واحدة أم « أمصار » متعددة ؟

ولقد رأيت تمهيداً للموضوع أن أصحب القارئ في جولة سريعة في أعماق

التاريخ المصري حتى نحضر إلى الذهن صورة ذلك التاريخ المفرط الطول ، البالغ العمق ، الذي يقارن في الواقع بطول التاريخ العالمي ، بل انه ظل لردح طويل طويل جداً من الزمن الفصل الوحيد او الأكثر أهمية في التاريخ العالمي ، ويكفي أن نذكر أن الفترة من ميلاد المسيح حتى الآن ليست أكثر من نصف الفترة من تاريخ مصر منذ نشأة الحضارة المصرية حتى ميلاد المسيح ، وبعد ذلك واصلت مصر — حاملة اسمها نفسه في كل اللغات القديمة والحديثة — تاريخها كجزء لا يتجزأ من تاريخ العالم من ميلاد المسيح إلى الآن .

أمام هذا الطول المفرط يمكن أن نلتبس لأنفسنا العذر في عدم الإحساس بوحدة تاريخنا الموزع بين مختلف الحضارات والدول الحاكمة ، بل أن موقفنا هذا يصبح شيئاً منطقياً جداً ، ومع ذلك فإن هناك أسباباً رئيسية أدت إلى هذا الانقطاع النفسي بين المصريين وتاريخهم ، هذه الأسباب يجب أن ندرسها ، وأعتقد أنها أربعة أسباب رئيسية هي : الصراع بين المسيحية والوثنية في العصر القبطي وما أدى إليه من انقسام وجدان المصريين الأقباط عن تاريخ أجدادهم المباشرين ، والسبب الثاني هو موجة العالمية التي شارك فيها المصريون خلال ثلاث حقب متوالية هي : الهلينية والمسيحية والإسلام ، وقد أدت هذه الموجة إلى القضاء تماماً على فكرة القومية ، إذ لم يكن المهم هو الانتماء إلى وطن وإنما المهم والمقياس في كل شيء هو الانتماء إلى العقيدة والدين ، والسبب الثالث هو تعريب مصر ودخولها نهائياً في حوزة العروبة والإسلام مما أعطاهم مقومات جديدة من لغة وعقيدة وانتماء قومي وحضاري ، والسبب الرابع تلك المحن التي تعرض لها المصريون في مختلف مراحل تاريخهم والتي مرغتهم أحياناً في ظلام الجهل الدامس الذي لا يبين فيه شعاع واحد من المعرفة أو الوضوح .

كل هذه الأسباب مبررات قوية دون شك لذلك الانقطاع النفسي بين المصريين وتاريخهم ، ولكن هل معنى ذلك أن ثمة انقطاعاً فعلياً في تاريخ مصر؟ ولست أقصد بالطبع التاريخ الرسمي للحكام ، فقد تعاقت على مصر دول

حاكمة كثيرة مثبتة الصلة تماماً فيما بينها ، ولكنني أقصد تاريخ الوجود الفعلي للشعب المصري في مجموعه ، من هذه الزاوية سوف نجد أن تاريخ المصريين مستمر بلا انقطاع بل أن كل مرحلة في هذا التاريخ بما فيها المرحلة الإسلامية العربية لها جذورها في المراحل السابقة ولها تأثيراتها على المراحل التالية ، ولكن حتى نصل إلى هذه النتيجة لا بد من البحث عن خيط عام يربط التاريخ المصري ، فهل يمكن أن نعثر فعلاً على مثل هذا الخيط العام ؟

إننا نستطيع أن نعثر على هذا الخيط بوضوح كاف ابتداء من العصر الفرعوني إلى العصر الهليني إلى العصر القبطي ، ثم نقابضاً بانقطاعه الظاهري في العصر العربي الإسلامي ، فهل انقطع الخيط فعلاً أم لا يزال قائماً بشكل أو آخر ؟

هنا ينبغي أن نبحث مسألتين تتعلق الأولى بالرواسب الحضارية القديمة التي لا تزال عالقة بنفوس المصريين من أساطير وفولكلور ومفردات لغوية وعادات اجتماعية وتقاليد نفسية ، وسوف نرى أننا لا تزال نحمل الكثير من هذه التركة التي تدل - رغم سقمها بوجه عام - على وجود علاقة تربطنا بماضينا القديم . وتتعلق النقطة الثانية بدراسة مدى الاستمرارية الجنسية للمصريين من أقدم العصور إلى العصر الحديث لا لإثبات أي مزاعم أو أوهام عنصرية وإنما لنقرر ما إذا كان هذا الشعب في مجموعه شعباً واحداً أم شعوباً متباينة من الناحية الانثروبولوجية ، وسوف نجد أيضاً أن نسبة الثبات والاستمرار لدى المصريين في هذه الناحية أكبر من نسبة التغير والانقطاع نتيجة للتدفقات الجنسية التي طرأت عليهم من الخارج في مختلف العصور .

إذن لماذا يبدو كأن الخيط العام لوحدة التاريخ المصري قد انقطع في العصر العربي الإسلامي ؟

إن هذا يحتم علينا دراسة ظاهرة تعريب مصر وكيف كانت من العمق

والشمول ، بحيث اعطت المصريين ضميراً جديداً باعتناقهم الإسلام وتحديثهم بالعربية ، في حين ان هنالك شعوباً كثيرة أخرى دخلت الإسلام بل وتعلمت أحياناً اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن ، ولكن ذلك لم يؤد إلى تعريبها .

وهذا يجرنا مرة أخرى إلى مجال الانثروبولوجيا لنفهم سر هذه الظاهرة ، وسوف نجد ان المصريين كانوا دائماً جزءاً من الجنس السامي او على الأقل تربطهم به اوثق روابط الدم والثقافة نتيجة لاختلاطهم المستمر بالاقوام السامية منذ عصور ما قبل التاريخ إلى العصور الفرعونية وما تلاها ، ولذلك ما أن بدأت الموجة الأخيرة من الهجرة العربية إلى مصر بعد الفتح الاسلامي حتى أحدثت اثرها سريعاً ، وعاد الفرع إلى الأصل .

على ان ما أعطى مصر شخصيتها الجديدة لم يكن مجرد اعتناقها الاسلام او تحديثها بالعربية او انصباب كميات جديدة من الدم العربي في شرايينها ، وإنما أعطاهما هذه الشخصية ايضاً ذلك الدور الهائل الذي ساهمت به في الحضارة الاسلامية فكرياً وسياسياً وعسكرياً ، دفاعاً عن هذه الحضارة وارتباطاً بها في السراء والضراء ... وهي مساهمة شارك فيها مسلمو مصر وأقباطها على السواء .

وعندما نتجاوز مرحلة الظلام العثماني إلى مطلع العصر الحديث في القرن التاسع عشر ، يبدأ المصريون في تلمس تاريخهم والشعور بقوميتهم ، وهذه من اكبر علامات الصعوبة بغض النظر عن الصراع بين الاتجاهات الثلاثة التي تنازعهم ولا تزال تتنازعهم حتى الآن - إلى حد ما - وهي الاتجاه الاسلامي والاتجاه الفرعوني والاتجاه العربي .

ومن الطبيعي أن تكون خاتمة الكتاب دراسة لهذه الاتجاهات الثلاثة ومحاولة لتحديد العلاقة بين القومية والتاريخ بما مؤداه ان قوميتنا عربية وتاريخنا

مصري وعقيدتنا إسلامية ، وليس هناك تناقض بين هذه العناصر الثلاثة .

ومن المهم ان نؤكد منذ البداية ان النظرة الى الماضي ليس معناها الرجعة ان الارتداد ، ولا تتعاض مع الاهتمام بالحاضر والمستقبل ، بل ان لم شمل تاريخنا والاحساس به يشعرتا بعمقنا التاريخي واصالتنا الحضارية وهو شعور بالغ الفائدة في حد ذاته علاوة على انه حقيقة علمية واقعة .

ليس تذكر تاريخ امجادنا حلاً بعصر ذهبي مضى ولن يعسود او اغرقاً في احلام يقظة لن نتحقق ، او دعوة إلى التفاخر والتكاسل فحواها ان ماضينا يغفر لنا اخطاء حاضرتا ، وإنما هو تجديد للروح ، وأخذ بالعبرة ، وتسليح بالثقة لمواجهة الحاضر والمستقبل .

القسم الأول

استمرارية أم انقطاع؟

[١]

نظرة في اعماق التاريخ

ان نظرة في اعماق التاريخ المصري تكفي لأن تصيب المرء بالدوار ، من ينظر في أغوار ذلك التاريخ كمن يحدق في أعماق هوة سحيقة لا يكاد يوجد لها قرار ، فمهما استكشفت عيناه من أعماق ثمة أعماق أخرى أبعد غوراً لا يكاد ينفذ اليها البصر منها كان حاداً .

لنأخذ مثلاً وحدة الألف عام — وهي وحدة بالغة الضخامة في تاريخ الانسان المكتوب — ونحاول أن نتوغل بها في أعماق الماضي المصري السحيق .

في المحطة الأولى — أي منذ الف عام أو في اواخر القرن العاشر الميلادي — سوف نشهد البدايات المبكرة جداً لنشأة المجتمعات الغريبة الحديثة حين كانت البيوت المألوفة في غرب أوربا تجاهد لتثبيت أقدامها في عصر هيمنة الكنيسة والاقطاع وكانت القبائل السلافية والقوطية الشرقية تحط رحالها في الأراضي الشاسعة بشرق أوربا وهي لم تزال في مرحلة البداوة الأولى ، ولم تكن الحروب الصليبية التي فتحت أعين الغرب على الحضارة الاسلامية العظيمة قد بدأت بعد . من هذه المرحلة حيث كانت أوربا كلها تتخبط في ظلام العصور الوسطى المبكرة وتجر تراث آباء الكنيسة الأولين كانت مصر واحدة من اكبر مراكز الاشعاع

في الحضارة الإسلامية الزاهية . ملأى بالمدن العامرة والثغور النشطة ، تزدهر بصناعاتها وزراعتها وتجارتها وتزهو بمدنيتها وثقافتها ونفوذها ، وكانت حينئذ بالتحديد تضع اللبنة الأولى في عاصمتها الحديثة القاهرة التي شيدها المعز لدين الله الفاطمي في موقع قامت فيه عواصم أخرى قبل آلاف السنين .

وفي المحطة الثانية - أي منذ الفي عام - نشهد ذروة مجد الأمبراطورية الرومانية الوثنية حين كان السلام الروماني يفرض على أسنة الرماح ، وعملاً قليل سوف يحمل المسيح صليبه الآلام في طريق الجلجثة ، وسيرفع أنصاره على أعواد الصليبان أو يلقون بين مخالب الوحوش ، وكانت مصر حينئذ تدخل لتوها في حكم روما بعد أن دالت كدولة كبرى في عهد البطالسة ولكن عاصمتها الإسكندرية كانت - كبنارتها الشهيرة - لا تزال تشع النور في حوض البحر المتوسط ، وكانت عقائدها الدينية رغم قدمها وتفسخها ذات مكانة راسخة في العالم اليوناني الروماني ، أما ثراؤها فلا يزال رغم المحن الأخيرة مضرب الأمثال وعط الأطماع .

وفي المحطة الثالثة - أي في بداية الألف الأول قبل الميلاد - لم تكن حضارة الإغريق - وهي الأساس الرسمي للحضارة الغربية والعالمية المعاصرة - قد بدأت بعد ، فلا يزال أمامنا قرنان على ظهور هوميروس وخمسة قرون على ظهور هيرودوت ومفكري عصر بركليز ، كانت الحضارة حينئذ محصورة في الشرق ، في مصر وبابل واشور وفارس والهند ، وكانت مصر واحدة من أعظم دول العصر وأكثرها ثراء ، وقد بلغت منذ ثلاثة أو أربعة قرون أقصى توسعها الإمبراطوري حين كانت لها الكلمة العليا من الفرات شرقاً إلى برقة غرباً ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى السودان جنوباً ، ثم بدأت بعد ذلك تهبط منحدر أفولها السياسي والحضاري .

وفي المحطة الرابعة - أي في الألف الثاني قبل الميلاد - نرى الحضارة السامية

العريقة في بداياتها الأولى .. ابراهيم أب الأنبياء يخرج من بلدته أور الكلدانيين في جولة بالمنطقة تنتهي بزيارة مصر لمحاكاة كهنتها في شئون العقيدة ، وكلفت مصر قد خرجت من قرون الظلام التي تلت انهيار الدولة القديمة واستعادت مجدها في عهد الدولة الوسطى التي واصلت سيرة الأجداد العظام ووصلت ما بين البحرين ، وشيدت قصر التيه ، وأقامت الخزانات والسدود على النيل .

وفي المحلة الخامسة - أي في الألف الثالث قبل الميلاد - لم تكن ثمة حضارة أخرى الى جانب حضارة الدولة القديمة في مصر سوى حضارة السومريين في بلاد الرافدين وبعض المراكز الفينيقية المتناثرة ، ولم تكن الحضارة المصرية حينئذ حضارة فريدة فحسب بل كانت قمة في حد ذاتها حتى بالقياس للحضارة الفرعونية اللاحقة ، وكانت مصر في ذلك الوقت قد انتهت منذ قرنين أو ثلاثة قرون من تحقيق وحدتها الجغرافية والسياسية على يد مينا [حوالي ٣٢٠٠ ق. م] واختارعت الكتابة والحساب لتدخل بالبشرية مرحلة التاريخ المكتوب ، وسوف نراها عما قريب تشرع في إقامة تلك المعجزات الانشائية الهندسية الجبارة المسماة بالأهرام .

وفي المحلة السادسة - أي في الألف الرابع قبل الميلاد - حين كانت البشرية ترسف في قيود العصر الحجري كانت مراكز المدنية والحضارة منتشرة في كل انحاء الوادي ، وكان كهنة رح وتباح يرسون أسس المعارف والعقائد التي ستقوم عليها فيما بعد أعرق مدنية في التاريخ ، وكان كهنة « أون » على وجه التحديد قد انتهوا منذ ثلاثة قرون من ملاحظة دورتي الشمس والشعري اليانية (سيروس) ووضعوا نظام التقويم الشمسي الذي لا تزال البشرية تسير عليه بتعديلات طفيفة الى الآن .

وفي المحلة السابعة بل والثامنة - أي منذ خمسة أو ستة آلاف عام قبل الميلاد - حين كان العصر الجليدي يقطن أوربا ، وكانت أفضل حالات الانسان

حضارة الصيد والتنقل الجماعي كانت مصر بصحراواتها الحالية جنة فيحاء تتخللها حقاً الوحوش والمستنقعات ولكن يجد فيها الانسان المصري رغم ذلك مجالاً للزراعة والاستقرار ، وفيها عرف لأول مرة كيف يقاوم الطبيعة ، ويوقد النار ، ويزرع الحبوب ويستأنس الحيوان ، ويصنع الأسلحة ، ويقرأ صفحة السماء .

* * *

ليس هناك كيان بشري في العالم له عراقة الكيان البشري المصري ، مع التسليم بتطوره وعدم جموده ، فالشعوب العريقة الموجودة اليوم كالفرس والهنود والصينيين يبدأ تاريخها المعروف خلال الألف الاول او اواخر الألف الثاني قبل الميلاد على أقصى تقدير ، والأقوام القديمة التي عاصرت مصر الفرعونية كالسومريين والفينيقيين والايحيين قد بادت الآن او ذابت في غيرها من الأقوام منذ أمد طويل ، ولكن مصر بفضل ما تتمتع به من حماية جغرافية وبفضل قدرتها الحارقة على التمصير ، حافظت الى حد كبير على كيانها البشري . بحيث يمكن القول باطمئنان - وكما سنرى فيما بعد - ان المصريين المعاصرين هم في مجموعهم أحفاد المصريين الاول الذين عاشوا على ضفاف النيل منذ آلاف السنين .

وسنحاول فيما يلي تلخيص تاريخ بعض الشعوب القديمة بالمقارنة بتاريخ مصر مع الاكتفاء بذكر الدول والممالك أو الوحدات السياسية الكبرى لا مراكز الحضارة الصغيرة التي كانت متناثرة في كل انحاء العالم القديم ^(١) .

فالجزيرة العربية التي هي من أقدم مهد الحضارة وموطن الجنس السامي لا

(١) معظم المعلومات التالية مستخرجة :

An Encyclopedia of World History Compiled and edited by :
William Langer.

نعرف شيئاً عنها من الناحية التاريخية قبل قيام المملكة المينوية ومملكة سبأ في الألف الأول قبل الميلاد .

ومملكة الحيتيين - ويقال ان احفادهم الحاليين هم الأرمن - قامت حوالي عام ١٩٠٠ ق.م أي أنها لاحقة لعصر مينا بحوالي ١٣٠٠ عام .

والفرس بكل عراقتهم التاريخية لا نجد لهم ذكراً أو اثراً قبل أواخر الألف الثاني قبل الميلاد .

وإذا كانت بعض المراكز الحضارية قد بدأت تظهر في المناطق الشمالية الغربية من هضبة الدكن في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، إلا أن التاريخ يبدأ بالنسبة للهند باستقرار القبائل الهندية الآرية بشمال الهند في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ، واقدام الآثار التي اكتشفت هناك لا ترجع إلى أكثر من ٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، أما بقية أنحاء الهند فيما عدا المنطقة الشمالية الغربية فلا يعرف عنها شيء قبل القرنين الأول والثاني قبل الميلاد .

أما التركستان والتبت فلا وجود لهما في التاريخ قبل القرون القليلة السابقة للعصر المسيحي .

واقدم آثار الصين - وهي تلك التي اكتشفت في إقليم هونان - ترجع إلى ألفي عام قبل الميلاد ، أما أسرة شانج التي يبدأ بها تاريخ الصين المكتوب فلم تقم قبل عام ١٤٠٠ ق.م .

ولا تتجاوز أعرق الحضارات اليابانية - وهي حضارة جومونشيكي في النصف الشمالي من جزيرة هونشو وحضارة يابوشيكي في النصف الجنوبي منها - القرن الثالث قبل الميلاد .

وقد ظهرت مراكز حضارية متناثرة مزدهرة في الهند الصينية في أواسط

الآلاف الثالث قبل الميلاد ، ولكن تاريخ بورمسا وشبه جزيرة الملايو يبدأ في القرن الخامس قبل الميلاد .

والحضارة المينوية المبكرة التي ظهرت في منطقة بحر ايجا وبلاد اليونان وكانت اسبق الحضارات ظهوراً في اوربا بدأت في الآلاف الثالث قبل الميلاد، ولكن تاريخ اليونان المكتوب لا يتجاوز مطلع الآلف الاول قبل الميلاد .

وحضارات الشرق الأدنى القديم التي عاصرت او لحقت فوراً بالحضارة المصرية والتي استفادت منها وافادتها كانت ايضاً لاحقة لها ولم يكن من الممكن ان تقوم لولا اعتمادها على الحضارة المصرية .

فالحضارة الوحيدة التي تكاد تكون معاصرة لمصر هي حضارة سومر في جنوب بلاد الرافدين ، والاسرة السومرية الاولى التي حكمت في « أور » تمتد من ٢٨٥٠ ق.م . إلى ٢٤٥٠ ق.م . وهي بذلك تكون معاصرة لعهد الدولة القديمة في مصر ، ولكن سومر لم تلبث ان انهارت واصبحت جزءاً من الامبراطورية الاكادية مع اكاد وعيلام وآشور تحت حكم سرجون ونارام سين، وذاب تماماً السومريون - وهم يختلفون جنساً وثقافة عن الاسرة السامية في المنطقة - مع الاقوام المحلية الاخرى في فترة مبكرة جداً تنحصر بين ٢٠٣٠ و ١٩٠٠ ق.م .

وعلى انقراض سومر نشأت بابل حوالي عام ١٩٠٠ ق.م . واستمرت اسرتها الاولى حتى عام ١٦٠٠ ق.م . وفيها حكم حامورابي العظيم صاحب القوانين الشهيرة، ولكن لم يلبث ان اغار عليها الحيثيون ودمروها تدمير أومهدوا بذلك لان يحتلها الكاسيون ثم الآراميون .

ومملكة آشور نشأت في اول الأمر كمدينة بين عامي ٢٦٠٠ و ٢٠٠٠ ق.م . ولم تلبث ان دخلت تحت الحكم البابلي حوالي عام ١٨٣٠ ق.م . ثم استقلت مرة

أخرى في القرن السادس عشر قبل الميلاد وظلت في حالة ضعف نسبي حتى تقرون
قهرها فيها الحيثيون والمصريون والحيثيون والآراميون قبل ان تبعث من جديد
على يد آشور ناصر بان في القرن التاسع قبل الميلاد واستمرت قوية نسبياً حتى
أواخر القرن السادس قبل الميلاد حين أصابها الانحلال ثانية وظهر الميديون
عاصمتها نينوى ، وفي عام ٦٠٥ ق. م. حاول القائد الاشوري آشور أوتواليث
القيام بمحاولة يائسة لانقاذ الامبراطورية الاشورية حول عاصمتها الجديدة هي
حاران ولكنه فشل وتوقفت الدولة الاشورية بعد ذلك عن الوجود .

ومملكة ميتاني التي أقامها الحوريون ذوو الأصل الهندي - أوربي حول
كر كوك بدأت بهجرة القبائل الحورية الى المنطقة السامية حوالي عام ١٧٠٠ ق. م.
أي في وقت معاصر لهجيء الهكسوس الى مصر ، وكونوا في بادئ الأمر مدناً
متفرقة ، ولكن مملكة ميتاني بعاصمتها واشوكاني لم تظهر قبل عام ١٤٧٥ ق. م.
واستمرت حتى عام ١٢٧٥ ق. م. حين دمرها شلنصر الاشوري .

وعرفت فلسطين او كنعان القديمة موجات متعاقبة من الأقوام السامية
منذ بداية عصر البرونز عام ٣٠٠٠ ق. م. فتعاقب عليها الأموريون والكنعانيون
والعبرانيون والآراميون والآروميون ، أما مملكة اسرائيل المركزية فقامت
بين ٩٣٣ - ٧٢٢ ق. م. ومملكة يهودا المركزية بين عامي ٩٣٣ - ٥٨٦ ق. م.
وقبل ذلك كان بنو اسرائيل قبائل لا يجمعها حكم مركزي ، وبعد ذلك دخلوا
في الأسر البابلي ثم الحكم الفارسي فالروماني ثم تشتتوا أيدي سناً .

وفينيقيّا التي قامت في المنطقة الساحلية غربي لبنان كانت مركزاً للتجارة
والتبادل منذ أقدم العصور فوصلتها البعثات التجارية المصرية لجلب الأخشاب
من بيبيلوس في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد ، وظلت بيبيلوس دائماً تحت الحكم
المصري المباشر فيما عدا فترة استقلال قصيرة في عصر العمارنة ثم خضعت لمصر
ثانية ، وظلت بصفة عامة معبراً للدول القوية في المنطقة .

من هذا العرض السريع للحضارات القديمة تتضح عدة حقائق ..

الاولى ان الحضارة المصرية هي أقدم الحضارات جميعاً ولا تكاد تنافسها عراقة سوى الحضارة السومرية ، وهذا في حد ذاته دليل على أرجحية مدرسة الانتشار الحضاري على مدرسة المراكز الحضارية المستقلة ، والأرجح كذلك بل ومن المؤكد في ضوء الابحاث الحديثة ان مصر وليست سومر أو غيرها كانت مركز الاشعاع الحضاري الاول نظراً لان آثارها أقدم بكثير من آثار بلاد الرافدين .

والثانية ان الحضارة المصرية لم تكن الاقدم فحسب بل والاكثر امتداداً من الناحية الزمنية ، ففي حين بادت معظم الممالك والحضارات القديمة بعد فترة طالت أو قصرت استمرت الحضارة المصرية القديمة دون انقطاع حتى انهيار العالم الكلاسيكي في القرون الاولى بعد الميلاد ثم تحولت إلى مجرى جديد مع المسيحية ثم الاسلام واستمرت الى اليوم .

والثالثة ان معظم الكيانات البشرية القديمة لم تلبث ان تلاشت وذابت في اقوام وكيانات بشرية أخرى بفعل تيارات التاريخ وأمواجه المتلاطمة، أما مصر فقد احتفظت الى حد كبير بكيانها البشري الخاص رغم التغيرات التي طرأت على شعبها من شتى النواحي الحضارية والنفسية والدينية ولكنه ظل في جوهره ولا سيما من الناحية الجلسية نفس الشعب القديم الذي انشأ تلك الحضارة المذهلة على ضفاف النيل منذ آلاف السنين .

* * *

وكان الناس في كل العصور يحسون احساساً واضحاً بقدم مصر وغرابية

حضارتها تماماً كما نحس نحن اليوم ، فالأغريق والرومان والعرب عبروا في كتاباتهم عن احساسهم بعراقة مصر وسجلوا عجبهم وإعجابهم بها .

وفي التراث العربي الشيء الكثير من ذلك ، فصر في التراث العربي ترجع إلى عصر اسطوري موغل في القدم يعود إلى ما قبل نوح ، والعرب يختلفون في مصدر اشتقاق اسم مصر وهل يرجع الى ما بعد نوح أو ما قبله ، فالبعض يقول انها سميت بمصر بعد الطوفان على اسم مصر بن ينصر بن حسام بن نوح ، والبعض يقول انها سميت به قبل الطوفان حين نزلها مع قومه الجبارة نقراس ابن مصرم بن مركابيل بن روابيل بن عرياب بن آدم وسميها باسم ابيه مصرم ، وفي قول آخر ان الذي حكمها قبل الطوفان كاهن يدعى عنقام من نسل عرياق بن آدم .

ويقولون كذلك انها كانت قائمة من أيام آدم وأن آدم بارك بنفسه النيل ودعا لمصر بالرحمة والبر والتقوى .

والعرب يهبطون الملوك مصر الاسطوريين مدد حكم طويلة تتمشى مع نظرهم للأعمار في العصر الأسطوري ، فيقولون ان مصرام الكبير حكم مائة وثمانين عاماً ، وقفطاريم بن قبطيم حكم اربعمئة عام ، وعديم بن البورشير عاش تسعمائة وثلاثين عاماً حكم منها مائة واربعين عاماً ، وشداد بن عديم عاش اربعمئة واربعين عاماً ، وطلما بن قومس فرعون موسى عاش اربعمئة عام وهلك في حكمه ثلاثة قرون من العالم ، ودلوكة التي خلفته في الحكم بعد غرقه بدأت حكمها في العام المائة والستين من عمرها وحكمت مائة وثلاثين سنة أخرى ، وهكذا^(١).

(١) د. حسين فوزي : سنجاد مصري : قفطاريم بن قبطيم .

والعرب ينزلون مصر منزلة عزيزة في نفوسهم رغم حملتهم على فرعون موسى وأمثاله من الطغاة ، ويؤكدون انه لم يكن في البسيطة 'ملك أعظم من ملك مصر ، ويستدلون على ذلك بعشرات من الآيات القرآنية الكريمة التي ذكرت مصر صراحة أو ضمناً بالخير العميم ومنها على سبيل المثال قوله تعالى يخبر عن فرعون « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » وقوله تعالى « فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » وقوله تعالى « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها » وقوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة ، كانوا فيها فاكهين » وقوله تعالى : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة واموالاً في الحياة الدنيا » .

وهم لذلك يستثنون مصر بن بنصر بن حام من اللعنة التي صبها نوح على ابنه حام وذريته ، إذ يقولون أن نوحاً لما نادى حاماً لم يجبه هو أو أحد من ولده ، فدعا نوح الله عز وجل ان يجعل ولد حام أذلاء وعبيداً لولد سام . وكان مصر بن بنصر بن حام نائماً بجوار جده فلما سمع دعاء نوح على جده وذريته قسام يسمى إلى نوح ، وقال يا جدي قد أحببتك إذ لم يحبك جدي ولا أحد من ولده فاجعل لي دعوة من دعائك ، ففرح نوح ووضع يده على رأس مصر وقال . اللهم انه قد أجاب دعوتي فبارك فيه وفي ذريته واسكنه الأرض المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد والتي نهرها أفضل انهار الدنيا^(١) .

وليست مصر عند العرب بلاد العراقة والبركة والخير العميم فحسب بل هي كذلك أصل العلوم والمعارف ، وبلد السحر والكهانة ، وأرض العجائب والطلاسم ، وموطن الكنوز والمعجزات .

(١) المقرئ : الخطط - طبعة الشعب ج ١ ص ٣٥ .

قال صاعد اللغوي في كتاب طبقات الأمم ان جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان انما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ، وكان من علومهم (المصريين) علم الطب وعلم النجوم وعلم المساحة وعلم الهندسة وعلم الكيمياء وعلم الطلسمات ، ويقال كانت مصر في الزمن الأول يسير اليها طلاب العلوم لتزكو علومهم ، وتجود أذهانهم ، ويتميز عندهم الذكاء ، وتصدق الفطنة^(١).

ويقول المسعودي في « أخبار الزمان » عن العلوم التي تنطوي عليها أهرام مصر « سوريد .. أحد ملوك مصر قبل الطوفان بنى الهرمين الكبيرين ، وأمر الكهنة ان يودعوها جماع حكمتهم ومعارفهم في شتى العلوم والفنون ، كما أمر ان تنقش عليهما كتابات تحوي علوم الحساب والهندسة حتى تبقى شاهداً لما بعدها وحتى ينتفع بها من يستطيعون فهمها » وكان المسعودي يعتقد ان الهرم الشرقي (خوفو) يحوي اسرار الافلاك السماوية ومواقع النجوم والكواكب « وان بانيه بيّن فيه مواقع النجوم ومداراتها ، وتواريخ الأزمنة القادمة ، وكل الأحداث الهامة في مستقبل مصر^(٢) ».

والعرب ينسبون إلى مصر كثيراً من العجائب والمخترعات التي تنطوي على المعرفة والصناعة والمهارة الفائقة ، وذكر المقرئ في خطه كثيراً منها كحجر كان من يجمع كفيه عليه يتقيأ جميع ما في جوفه ، واصنام ترد ماء البحر المالح عن الارض ، وصورة امرأة مبتسمة لا يراها مبهوم إلا سرى عنه ، وتمثال يفضح الزناة إذا مروا عليه بكشف عورته ، وتور يشوي بغير نار ، وسكين تسير اليها البهائم فتذبجها من تلقاء نفسها ، ويقول المقرئ ان الجاحظ عد ثلاثين اعجوبة في الدنيا عشرة وبمصر عشرون^(٣).

(١) المرجع السابق : ص ٤٩ .

(2) Georges Barbarin : Le secret de la grande pyramide . P. 33

(٣) المقرئ : الخطط : فصل « ذكر العجائب التي كانت بمصر » .

أما عند ثراء مصر وعمارتها فتذخر الكتب العربية بذكر الكثير ، ومنها أن أحد فراعنة مصر أرسل مرة بويبة قح الى أسفل الأرض (الدلتا) وإلى الصعيد فلم يجد لها موضعاً تبذر فيه لشغل جميع البلاد بالعمارة ، وأثر عن النبي أنه وصف مصر بأنها أرض يسمى فيها القيراط ، ومن فضائل مصر في قول الكندي وغيره من المؤرخين أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعاً ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير^(١).

* * *

ولم يكن الإغريق أقل من العرب عجباً وإعجاباً بمصر وعراقتها وثرائها وعلومها وأسرارها بالرغم من أنهم يسبقون العرب في معرفة مصر بأكثر من ألف عام ويكفي أن تتصفح ما كتبه المؤرخون والرحالة الأغريق عن مصر لتدرك حجم نظرهم اليها .

ويقول أدولف إيرمان وهرمان رانكة في كتابها « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » أن اليونانيين الذين أتوا الى مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد دهشوا — وهم الذين فطروا على الزحف والتنقل في أرجاء العالم — عندما وجدوا في وادي النيل حضارة موعلة في القدم ولكنها رغم جحودها ما زالت تبعث في النفوس الرهبة والخشية ، فقد رأوا مدناً عامرة بالسكان فيها معابد ضخمة عالية يقطنها قوم لا يشبهون في شيء سكان أيونيا والجزر اليونانية ، وجدوا قوماً يؤلهون العجول والتاسيح ، يقوم على خدمتهم كهنة ذوو رؤوس صلماء يتشحون بأردية كتانية ، ولم يختلف هؤلاء القوم عن باقي الشعوب في مظاهر العبادة هذه فحسب بل كانوا يختلفون عنهم كذلك في حياتهم اليومية .

(١) تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٧ .

ويضيف الكاتبان في وصف غرابة المصريين في أعين اليونانيين وقتذاك ان « معظم اليونانيين كانوا ينظرون الى المصريين بالدهشة الخجولة نفسها التي ينظر بها قومنا الى الصينيين أو اليابانيين ذوي الصفائر والغدائر الطويلة المرسلة ، لقد كان المصريون بالنسبة لهم موضوعاً للدعاية الرخيصة فكانوا يتندرون على ذلك الشعب الذي يعبد الثيران بدلاً من ذبحها وتضحيتها ، ويقوم بتقديس السمك بدلاً من أكله ، والحداد على القطط المينة بدلاً من سلبها - بيد أنه بالرغم من تنذره وسخويتهم فانهم كانوا يضمرون الاحترام لهذا الشعب العريق في حضارته الذي كان ينظر اليهم (أي الى اليونانيين) نظره الى الأطفال .. كم من عالم يوناني حج الى وادي النيل المملوء بالمعجائب وفي نفسه أمل يراوده في أن هؤلاء الكهنة قد يساعدونه في الكشف عن اللغز الكبير لهذا العالم^(١) .

ونحن نقرأ هيروودوت وصفاً للمصريين وعاداتهم تختلط فيه الحقيقة بالخرافة ، وقد يكون صادراً عن تسرع أو جهل بالحقائق ، ولكنه على أية حال كاف للدلالة على نظرة الإغريق للمصريين ، تلك النظرة التي عبر عنها هيروودوت بقوله ان المصريين يختلفون كل الاختلاف عن سائر الشعوب في عاداتهم ومنهم^(٢) .

ولا يفوت هيروودوت - وكيف يفوت أحد ؟ - أن ينسب فضل معرفة كثير من الأشياء للمصريين منذ عصر موغل في القدم ، فهو يقول ان المصريين كانوا من بين سائر البشر أول من عرف السنة الشمسية ، وأول من سموا الآلهة الاثني عشر باسمائها وأول من وقفوا للآلهة الهياكل والتماثيل والمعابد ، وأول من حفر الصور على الأحجار^(٣) .

ويقول هيروودوت « ان المصريين كانوا يعتقدون أنهم أقدم الناس في

(١) ارمان ورائكة : مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة : د . عبد المنعم ابو بكر المقدمة .

(٢) هيروودوت يتحدث عن مصر : ترجمة المرحوم الدكتور صقر خفاجة نبذة ٣ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق : نبذة ١٠

الوجود . ولكنه يحاول أن يشكك في ذلك فيورد قصة ملفقة كانت منتشرة في الغالب بين الأغريق المقيمين في مصر تهدف الى الطعن في عراقلة المصريين والزمع ان الفريحيين [من سكان آسيا الصغرى] كانوا أسبق منهم ، وتقول القصة ان الملك بسماتيك أراد أن يعرف اي الشعوب أعرق في الوجود فأمر باحضار طفلين حديثي الولادة وعهد بتربيتها الى راع في مكان منعزل ، وأمر الملك بأن لا ينطق أحد أمامها بأية كلمة ليعرف أول صوت يصدر عنهما بعد أن يقدرا على اخراج المقاطع ، وبعد عامين كان الطفلان ينطقان بكلمة «بكوس» كلما دخل عليهما الراعي ، وراح الملك بسماتيك يبحث عن أصل هذه الكلمة وأي الشعوب تستخدمها حتى اكتشف ان الفريحيين يسمون الخبز بهذا الاسم ، وهكذا — كما يزعم هيرودوت — اعترف المصريون وحكموا في ضوء هذه التجربة بأن الفريحيين أقدم منهم .

وهذه القصة بادية الضعف رغم ما يدعيه هيرودوت من انه سمعها من كهنه ممفيس [وهي عبارة يقولها عادة عندما يشعر انه لا يقول الصدق] والهدف الوحيد لهذه القصة نفي ما أورده هيرودوت في مقدمتها من ان المصريين يعتبرون أنفسهم أقدم الناس في الوجود . ويعلق الدكتور أحمد بدوي على قصة هيرودوت قائلاً ان هواها اغريقي ومنواها اغريقي واكبر الظن أن يكون مصدرها ما كان قائماً يومئذ بين الأغارقة النزلاء والمصريين الوطنيين من أسباب المنافسة والبغضاء ، فاذا لم يكن الاغريق قادرين على اثبات تميزهم على المصريين من حيث العراقة فلا أقل من ان يبحثوا بين الشعوب عن افضل المصريين في ذلك (11)

* * *

(١) المرجع السابق : نبذة ٢ والهوامش الملحقة بها .

نتيجة لذلك القدم البالغ للتاريخ المصري اختلف المؤرخون كثيراً في تحديد تواريخ العصور والأحداث الفرعونية وبخاصة ما قبل ظهور الدولة الحديثة .

ولنأخذ مثلاً الخلاف حول قيام الأسرة الثانية عشرة التي أنشأها امنمحات فنجد أن فلندرز يرى في كتابه « تاريخ مصر » يحدد قيامها ما بين عامي ٢٧٧٨ - ٢٥٦٥ ق.م. في حين ان البروفيسور واليس بارج في كتابه « تاريخ قصير للشعب المصري » يحددها بحوالي عام ٢٤٠٠ ق.م. ويقول انها استمرت ٢٢٥ أو ٢٤٠ عاماً ، أما جهرة المؤرخين ومنهم برستيد ولاجر وويلسون وديوتون وفخري وسليم حسن وأحمد بدوي فيقولون انها قامت حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. باختلافات يسيرة فيما بينهم .

ويعتمد المؤرخون في تحديد التواريخ المصرية القديمة على ما تذكره أحياناً بعض الآثار من أن عيداً فرعونياً معيناً وقع في عام معين من حكم ملك معين ، وهم يصنعون جداول معقدة للغاية (تشبه اللوغاريثيات) لتحديد هذه الأعياد طبقاً لحساب السنين قبل الميلاد حيث أن المصريين القدماء لم يتركوا حساباً متصلاً لتاريخهم بل كانوا يؤرخون سني كل ملك على حدة الأمر الذي فرط حساب السنين الفرعونية فرطاً تاماً^(١) .

ولاعطاء فكرة عن التقويم الفرعوني^(٢) لابد من الإشارة الى الدور الذي لعبه المعبود رع في حياة المصريين ، فمن المؤكد ان عبادتهم لهذا الإله العظيم لم تكن تقتصر على اداء الطقوس الدينية في المعابد بل كانت تتطلب فهماً عميقاً ودقيقاً بقدر الامكان للشمس كجرم في السماء ، وكان كبير كهنة رع في أون

(١) من اشق المحاولات - واطرفها - لتحديد سني التقويم المصري القديم تلك المحاولة التي قام بها Herbert Bruce Hannay في كتابه The secret of Egyptian Chronology

(٢) راجع : على هامش التاريخ المصري لمحمد عبد القادر حمزة والتقاريم لمحمد فياض .

(عين شمس) يسمى «الناظر الأعظم» أو «المبصر الأعظم» لأنه كان دائم التطلع الى صفحة السماء لدراسة حركة هذا النجم بصفة خاصة واستطلاع أسرار الكون بصفة عامة ، ومن هنا ولد علم الفلك وتمكن المصريون من وضع أول تقويم لحساب السنين .

لاحظ الكهنة المصريون ان هناك نجماً لامعاً في السماء ، أو هو ألمع النجوم جميعاً ، أطلقوا عليه اسم سبت (وهو النجم Cirus أو الشعرى اليمانية) هذا النجم يظهر في يوم ما في نفس اللحظة التي تشرق فيها الشمس ، ثم تنقضي « فترة ما » قبل ان يقترن ظهور هذا النجم اللامع بشروق الشمس مرة أخرى ، وقاسوا هذه الفترة فوجدوها ٣٦٥ يوماً قسموها الى اثني عشر شهراً متساوياً يضم كل منها ثلاثين يوماً ، وبقيت بعد ذلك خمسة ايام اعتبروها اياماً مقدسة في نهاية العام للاحتفال بمولد خمسة من الآلهة العظام هم أوزيريس وإيزيس ونفتيس وست وحورس الكبير .

وجعل انفراغتة من شهر توت بداية للسنة الجديدة ، فكانت السنة المدنية الفرعونية تبدأ في اول توت من كل عام حيث يقترن ظهور الشعرى اليمانية بشروق الشمس .

ولكن هذا النظام لم يلبث أن اختل نتيجة لوجود فارق زمني بين دورة الشعرى اليمانية ودورة الشمس مقداره ست ساعات فاذا مرت أربع سنوات أصبح الفرق يوماً كاملاً [$24 = 4 \times 6$] اي ان اول توت او بداية السنة المدنية الفرعونية أصبحت تأتي قبل موعدها الطبيعي - وهو اقتران الشروقية - بيوم كامل ومع مرور السنين والقرون يزداد الفرق اتساعاً فتأتي شهور الصيف في زمن الشتاء ، وشهور الشتاء في زمن الصيف ، ومعنى ذلك ان تختل مواعيد الزراعة والأعياد !

وفطن الكهنة منذ البداية لهذه الظاهرة ولكنهم لم يبادروا الى تصحيح

التقويم علناً بإضافة الفروق الناقصة الى السنة المدنية بل كانوا يفعلون ذلك سراً ، فأعدوا قوائم بتصحيح وضع أول توت بالنسبة للدورة الفلكية واحتفظوا بتلك القوائم كبعض أسرارهم المقدسة ليعينوا بواسطتها للناس مواعيد اعيادهم ومناسباتهم الهامة ، فيقولون مثلاً ان عيد حورس سيكون في يوم كذا من شهر كذا هذا العام ، وقد عثر فعلاً على سجلات من ورق البردى تحوي مواعيد بعض المناسبات الدينية الهامة طبقاً للتقويم المدني الناقص وأمامها تصحيح لها طبقاً للتقويم الفلكي الدقيق ، وهذا السلوك ليس بالغريب على اية حال عن الكهنة المصريين الذين درجوا على احتكار المعرفة وعدم البوح بأسرارها علناً .

ولكن بالرغم من أن الكهنة ظلوا يحتكرون سر التقويم طيلة العصور الفرعونية إلا أن التقويم كان يصحح مساره تلقائياً كلما مرت فترة معينة هي ١٤٦٠ عاماً ، إذ لما كانت السنة المدنية تنقص بمقدار ربع يوم عن اقتران الشروقية ، فمن الطبيعي أن يعود الشروقان الى الاتفاق تلقائياً في فجر أول توت بعد اختزال سنة كاملة من الفروق (أي بعد $365 \times 4 = 1460$ عاماً) فهنا يعتدل التقويم المدني مرة أخرى ، ويكون على الكهنة اعداد سجلات جديدة !

وقد فطن المصريون الى هذه الحقة الزمنية الطويلة التي تضم ١٤٦٠ سنة ومموجاً فترة « سبت » وأشار الى ذلك المؤرخ هيرودوت حين قال ان الكهنة المصريين أخبروه بأن كل ١٤٦١ سنة مدنية تعادل ١٤٦٠ سنة شمسية .

وتمكن العلماء باستخدام هذه الحقيقة الفلكية من معرفة متى بدأ العمل بالتقويم الشمسي الفرعوني على وجه التحديد ، فقد سجل المؤرخ والرياضي اللاتيني سنسورينوس الذي زار مصر في القرن الثالث الميلادي ان التقويم المصري القديم اعتدل باقتران الشروقين (الشمس والشعرى البانية) في أول توت عام ١٣٩ ميلادية ، ولما كانت هذه الظاهرة قد تكررت من قبل عدة مرات كل ١٤٦٠

سنة لذلك يمكن بحسبة بسيطة معرفة انها حدثت على التوالي في أعوام ١٣٢١ ق.م. و ٢٧٨١ ق.م. ٤٢٤١ ق.م. و ٥٧٠١ ق.م. ففي أي سنة من هذه السنوات - يا ترى - فطنت العين المصرية الى ظاهرة اقتران الشروقين واتخذتها بداية للتقويم ؟

ينبغي أولاً استبعاد سنة ١٣٢١ ق.م. لقرب عهدها ويمكن أيضاً استبعاد سنة ٢٧٨١ ق.م. لأن نصوص الأهرام التي أقيمت حوالي هذا التاريخ او قبله تدل على وجود التقويم في سردها لقصة أيام النشء التي ولد فيها الآلهة الخمسة ، ومعنى ذلك ان التقويم لا بد ان يكون قد وضع قبل فترة « سبت » أخرى اي في سنة ٤٢٤١ ق.م. ان لم يكن قد وضع قبل ذلك في سنة ٥٧٠١ ق.م. ١

وهكذا يمكن القول باطمئنان ان التقويم الشمسي المصري وضع قرابة عام ٤٢٤١ ق.م. اي منذ اكثر من ٦٢٠٠ عام ، اي ان تاريخ مصر الحضاري - حتى دون حساب الفترة الضرورية الموعلة في القدم التي انقضت قبل ان تصبح العين المصرية مدربة بما فيه الكفاية لرصد حركات النجوم - يبلغ ٦٢ قرناً او اكثر من ثلاثة اضعاف الفترة التي مرت منذ ميلاد المسيح الى الآن .. فأي دوار يمكن ان يصيب المحدث من فوق هذه الذروة التي هي أعلى الذرى جميعاً في تاريخ الانسان ١٢

ولنحزن إذا طبقنا هذا التقويم بلا انقطاع على التاريخ المصري جواز لنا أن نقول إن مينا وحد القطرين لا في عام ٣٢٠٠ ق.م. وإنما في عام ١٠٤١ بالتقويم المصري ، وان خوفو بنى الهرم الأكبر في عام ١٤٦١ (٢٧٨٠ ق.م.) وان الدولة الوسطى بدأت حوالي ٢٢٤١ (٢٠٠٠ ق.م.) وان الدولة الحديثة قامت عام ٢٦٨٥ ، وان الفتح الفارسي حدث عام ٣٧١٥ ، وفتح الاسكندر عام ٣٩٠٩ ، والدخول في سيطرة روما عام ٤٢١١ ، والفتح العربي كان في عام ٤٨٨١ (٦٤٠ م) وكان بناء القاهرة في عام ٥٢١٠ ، والغزو العثماني في عام ٥٧٥٨ ، وحملة نابليون في عام ٦٠٣٩ ، وثورة عرابي عام ٦١٤٢ ، وثورة ١٩

عام ٦١٦٠ ، وثورة يوليو عام ٦١٩٣ . وسكون نحن الآن في عام ٦٢١٣ بالتقويم المصري المستمر الذي يعادل ١٩٧٢ ، بالتقويم الميلادي .

هذه محاولة لا يمكن بالطبع أن تؤخذ مأخذاً جدياً ، ولكن الهدف منها اعطاء صورة تقريبية لما كان يمكن ان تصبح عليه وحدة التاريخ المصري فيما إذا كان التقويم المصري القديم قد ظل معمولاً به دون انقطاع منذ اكتشافه حتى الآن (١) .

(١) غير ان ما يعطي هذه المحاولة ظلاً من العقولية ان التقويم الشمسي الذي اعتدى اليه المصريون في ذلك العصر السحيق لا يزال هو المعمول به فعلاً حتى الآن بعد ان ادخلت عليه تعديلات طفيفة . .

ففي عام ٢٣٨ ق م امر بطليموس الثالث بانهاء احتسار الكهنة لسر التقويم ، وقام بتعديله رسمياً باضافة يوم سادس الى ايام النسب الخمسة كل اربعة اعوام وبذلك استقرت شهور الصيف والشتاء في مكانها من الدورة الشمسية .

وفي عام ٤٦ ق م . انتقل التقويم المصري الى روما بأمر يوليوس قيصر ووقف العمل بالتقويم القمري الروماني ، وقام العالم الفلكي الرياضي السكندري سوسيجينيس بضبط التقويم المصري بأن جعل السنة ٣٦٥ يوماً لمدة ثلاث سنوات متوالية ثم ٣٦٦ يوماً في السنة الرابعة .

وفي عام ٥٢٢ ميلادية ألغي العمل بنظام السنين الروماني مع استبقاء التقويم الشمسي المصري ووضع نظام جديد للسنين يبدأ من عام ميلاد المسيح ، وقام بهذا التعديل الراهب ديونيسيوس اكييجيوس .

وفي عام ١٥٨٢ م . لاحظ البابا جريجوري الثالث عشر ان موعد الاعتدال الربيعي جاء قبل مواعده بعشرة أيام أي في ١١ مارس بدلاً من ٢١ مارس لوجود فرق في التقويم اليولياني (نسبة الى يوليوس قيصر) عن دورة الشمس الفعلية مقداره ١١ دقيقة و ١٤ ثانية ، وأمر البابا جريجوري بتصحيح هذا الفرق بأن جعل يوم ٥ اكتوبر ١٥٨٢ يوليانية هو يوم ١٥ اكتوبر ١٥٨٢ جريجورية كما عالج الفرق الضئيل بين التقويم والدورة الشمسية ، ولا يزال التقويم الجريجوري معمولاً به حتى الان .

وقد اخذت مصر بالتقويم الميلادي الجريجوري الذي هو في أساسه التقويم الفرعوني القديم في عام ١٨٧٥ في عهد الخديو اسماعيل .

[٢]

أسباب الانقطاع النفسي

ان هذا التاريخ العريق الموغل في القدم المليء بالتطورات الكبيرة والأحداث الجسام بأكثر مما يتلى به تاريخ أية أمة أخرى ، ولقد ساعد على ذلك أن مصر لم تكن في وقت من الأوقات منعزلة عن العالم الخارجي ، بل كانت دائماً في مفرق الحضارات ومهب التيارات ، مؤثرة ومتأثرة ، ولا يكاد يكون هناك أي حدث تاريخي كبير ، لم يكن له أثر من قريب أو بعيد في حياة المصريين ، لذلك من الطبيعي أن يذخر التاريخ المصري بالتلون والتنوع والاختلاف .

ويكفي ان نلقي نظرة سريعة على المراحل التي مرت بها مصر والدول الحاكمة التي تعاقبت عليها لنندرك حجم هذا التنوع المذهل ، فإذا كانت مصر قد ظلت حتى قرابة القرن العاشر قبل الميلاد دولة مستقلة متماسكة تحت حكم أسرات مصرية خالصة ، فقد بدأت تشهد منذ أوائل الألف الأول قبل الميلاد تطورات سريعة متلاحقة أدت إلى سقوط العنصر الوطني من الصدارة ، وخضوع البلاد لسلسلة من البيوت الأجنبية الحاكمة التي تمتاز بدرجة أو أخرى باللون المصري الصميم ، والتي تحكم البلاد بصفة تابعة أو مستقلة .

وبدأ هذا المنقود بحكم اللوبيين (٩٤٥ - ٧٤٥ ق. م.) فالنوبيين (٧٢٢ - ٣٣٢ ق. م.) فالأشوريين (٦٧٠ ق. م.) فالفرس (٥٢٥ - ٣٣٢ ق. م.) فالبطالسة (٣٢٣ - ٣٠ ق. م.) فالرومان الغربيين والبيزنطيين (٣٠ ق. م. - ٦٤٠ م.) فالعرب (٦٤٠ - ٨٦٨ م.) فأجناس مختلفة من الترك والمغول (٨٦٨ - ٩٦٩ م.) فالفاطميين من عرب ومغاربة وصقالبة (٩٦٩ - ١١٧١) فالأكراد والجراكسة (١١٧١ - ١٥١٧) فالعثمانيين (١٥١٧ - ١٨٠٥) فأسرة محمد علي الالبانية (١٨٠٥ - ١٨٥٢) . وبعد هذا التاريخ فقط عاد حكم مصر خالصاً لأبنائها !

ولما تعاقبت على مصر الدول الحاكمة ، تعاقبت عليها كذلك الحضارات المتباينة ، فقد تحولت من الفرعونية إلى الهلينية إلى المسيحية إلى الإسلامية إلى الغربية الحديثة ، وغير المصريون خلال هذه المراحل زيم ثلاث مرات ولغتهم مرتين ، وانساحت في عروقهم كميات كبيرة من الدماء الجديدة .

ولا شك أن هذه التطورات التاريخية والحضارية كان لها في حد ذاتها أثر كبير في تفتيت وحدة التاريخ المصري من الناحية الظاهرية على الأقل ، غير أن الأخطر في هذا الصدد ذلك الانقطاع النفسي الذي حدث بين المصريين وتاريخهم نتيجة لعدة عوامل محددة اعتقد انها : انهيار الحضارة الفرعونية ، والصراع بين المسيحية والوثنية ، وموجات العالمية ، وظاهرة التعريب ، وعصور الانحطاط .

وسوف نتناول فيما يلي كلاً من هذه الأسباب بشيء من التفصيل .

* * *

إذا كانت مصر الفرعونية قد استمرت ملء السمع والبصر كأقوى وأهم دولة في العالم القديم عشرات القرون على التوالي ، إلا ان الحضارة الفرعونية لم

تلبث أن دخلت مرحلة طويلة أيضاً من الحشرجة والاحتضار قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في القرون الأولى من العهد المسيحي .

لقد بدأت عوامل الضعف تعمل عملها في مصر الفرعونية منذ عهد مبكر يرجع إلى الأسرة العشرين ، وهي أسرة الرعاة التي أسسها رمسيس الثالث (حوالي عام ١٢٠٠ ق. م .) فنذ ذلك الحين بدأت مصر تواجه ألواناً من الخطر الداخلي والتهديد الخارجي لم تلبث ان تضاعفت وتراكمت وأزمنت حتى وأدت مصر الفرعونية تحت الرمال .

تعرضت مصر في تلك المرحلة المبكرة للغزوات والأطباع الأجنبية التي جعلت الإمبراطورية المصرية التي كانت تمتد من السودان جنوباً إلى الفرات شرقاً ، وجزر البحر المتوسط شمالاً تتقلص وتنهار ، وأخذت الولايات التابعة لمصر في الخارج تستقل الواحدة بعد الأخرى دون ان يستطيع فراعنة النيل ان يفعلوا ما كان يفعله آباؤهم المحاربون الأشداء ، والواقع ان قوة العرش الفرعوني لم تهتز في الخارج فحسب بل تقلصت كذلك في الداخل حتى لم يعد للملك الأسرة العشرين سوى الألقاب ، وأصبحت مؤامرات القصر وخاصة في الحرم شيئاً مألوفاً [أنظر المؤامرة ضد رمسيس الثالث] وقوي نفوذ الكهنة على حساب الملوك حتى لم يلبثوا ان اغتصبوا العرش بقيام الأسرة الحادية والعشرين التي أنشأها الكاهن جريجور ، وفي عهد هذه الأسرة اضطرب الأمن ، واشتعلت الفتن والحروب الأهلية ، ونهبت قبور الفراعنة دون أن يستطيع النظام القائم ان يفعل شيئاً أكثر من اخفاء بعض محتوياتها في اماكن أخرى مجهولة ، أما هندسة التشييد والبناء للقصور والمعابد والصروح فقد تأخرت وتحولت إلى تصميات ضعيفة يجري تنفيذها بإهمال ودون اتقان كاف للتفاصيل .. لقد انهارت الأصالة أمام التقليد (١) .

(1) Elgood, P. G. The later Dynasties of Egypt .

وكان من اخطر مظاهر هذا الضعف والتحلل العام مظهران رئيسيان هما ،
انحلال القوة العسكرية والسياسية وتفسخ العقيدة الدينية .

ففسد اصبح الجيش يعتمد أساساً على المرتزقة الأجانب لا سيما اللوبيين
والمشاوشة والإغريق ، وفقدت مصر نهائياً جيشها الوطني ، وأخذ الأجانب
من اغريق واسيويين ونوبيين يظهرون بكثرة في البلاد ، ويزاحمون ثم يزحزون
ابناءها الأصلاء عن كافة المراكز الهامة في الإدارة والتجارة والمجتمع ، حتى
صاروا هم أصحاب النفوذ الحقيقي ، ولم تلبث ان تفتت السلطة السياسية بين
أمراء الأقاليم ، بل وانقسمت الوحدة الحضارية لمصر نفسها فأصبحت منطقة
الدلتا تتنفس في الجو الاغريقي ومنطقة الصعيد تتنفس في الجو النوبي (١) .

وفي نفس الوقت كانت العقيدة المصرية القديمة قد تدهورت وفقدت معناها
واستغلقت على الأفهام ، وبعد أن كانت عقيدة تجريدية قوية تسامت في بعض
مراحلها إلى حد استشراف فكرة التوحيد ، أصبحت الآن مجرد طقوس ومتون
يغلب عليها طابع السحر والخرافة والشعوذة ، قامت التعاويذ مقام العلم ،
وانتشرت عبادة الحيوانات لذاتها لا باعتبارها رموزاً للآلهة (٢) ، وصارتا نجد
المجمل أبيس يحتل المقام الأسى في البانيثون المصري .

في هذا المناخ العام من التفكك والتفسخ والانهار الحضاري فقد العنصر
المصري السيادة على بلاده وتعاقت عليه الأسر الأجنبية الحاكمة التي كانت
ترفع أحياناً الشعارات الوطنية أو تعلن احترامها لآلهة البلاد ، ولكن
روح مصر القديمة المبدعة الخلاقة كانت قد ذهبت إلى غير رجعة ، وأصبحت
الحضارة الفرعونية أشبه بمومياء محنطة .

(١) صبحي وحيدة : في أصول المسألة المصرية ص ٢٠ .

(٢) د. حسين فوزي : سندباد مصري ص ١١٩ .

ودخلت مصر تحت سيطرة الفرس والإغريق والرومان ، وأصبحت في الواقع جزءاً من عالم جديد هو العالم الهليني الروماني وأغلق كتاب تاريخها المجيد ، وغاضت حضارتها التليدة ، وأصبحت تحيا حياة مصطنعة لا تقوى على القيام بدور فعال ، وزاد من سوء الحال تعرضها لعدد من الفتن والاضطرابات الداخلية ولهجات البرابرة من الجنوب ، حتى لقد اضطر الامبراطور دقلديانوس إلى دفع عطايا سنوية إلى القبائل النوبية لمنعها من مهاجمة البلاد ، ولكن دون جدوى .. لقد وقعت مصر كلياً في قبضة البربرية ، وفقد المصريون مجرد الرغبة في الاستقلال ومقاومة الحكم الأجنبي ولم يلبثوا ان هربوا الى المسيحية تاركين حضارتهم الوطنية جثة ميتة لا سبيل إلى احياؤها (١) .

وقد كان انهيار الحضارة الفرعونية وسقوط مصر على هذا النحو تحت الحكم الأجنبي من أول أسباب الانقطاع النفسي بين المصريين وتاريخهم القديم ، لأن الاحساس بالتاريخ ينتعش في ظل العزة الوطنية ويضمحل في عصور الاستبداد والخور النفسي ، فعندما صادرت الاحداث استقلال مصر صادرت أيضاً احساس المصريين بتاريخهم القديم .

وبما يؤكد ذلك الانتفاضة التي حدثت في مصر خلال تلك المرحلة ، والتي كانت بمثابة ارتعاش لذبالة روح الحضارة المصرية قبل موتها النهائي ، وأعني بها حكم الأسرة السادسة والعشرين التي أسسها بسماثيك الأول حوالي عام ٦٦٣ ق. م. فقد حاولت هذه الأسرة التي حكمت ١٣٨ عاماً أن تعيد مجد مصر القديم ، فكان سبيلها الأول الى ذلك احياء الشعور بالتاريخ واستلهم فنون الدولة القديمة حيث بلغت الحضارة الفرعونية قمة أوجها في الأسرة الرابعة ،

(1) Hurry : Imhotep. PP 134 - 144 .

واحياء آداب الدولة الوسطى وهي العصر الزاهي للأدب المصري ، مما جعل بعض المؤرخين يصفون عصر الدولة السادسة والعشرين بعصر النهضة ، ولكنها للأسف كانت نهضة ظاهرية بلا روح ، إذ أن ملوك تلك الأسرة اعتمدوا تماماً على المرتزقة الاغريق وسمحوا للاغريق بإقامة مستوطنات قوية في الدلتا ، وأصبحوا يتحكمون تماماً في تجارة البلاد (١) ، وكان نتيجة ذلك أن ضعفت الروح الوطنية المصرية حتى أن آلاف الجنود المصريين الوطنيين الذين أوغرت صدورهم محاربة بسمانيك للمرتزقة الأجانب أقدموا على خيانة وطنهم باللجوء إلى أثيوبيا والانضمام إلى ملكها الذي كان ينافس ملك مصر إذ ذاك ، ويقدر هيرودوت عددهم بمائتي وأربعين ألف مقاتل ، ويقول ان الملك عندما علم بذلك اقتفى أثرهم وعندما لحق بهم حاول اقناعهم ألا يهجروا آلهة آبائهم وأولادهم ونساءهم ، ويقال ان أحدهم أشار إلى عورته قائلاً : أينما وجدت هذه فسيكون لهم أطفال ونساء (٢) .

إلى هذا الحد إذن ضعفت الروح الوطنية المصرية حتى في عهد الأسرة السادسة والعشرين التي كانت بمثابة الصحوة الأخيرة في حياة مصر الفرعونية .

* * *

ومما زاد من انقضاء المصريين نفسياً عن تاريخهم القديم ان الحضارة المصرية لم تمت موتاً طبيعياً هادئاً ، وإنما لفظت أنفاسها بعد معركة عنيفة دامية بينها وبين ذلك التيار المكثس الجديد ألا وهو المسيحية .

(١) جون ويلسون : الحضارة المصرية . ترجمة الدكتور احمد فخري ص ٤٦٤ .

(٢) هيرودوت : نبذة ٣٠ ص ١٠٨ .

فخلال القرن الثاني الميلادي تأصلت المسيحية في الاسكندرية وبدأت تنتشر حثيثاً في مختلف أنحاء مصر ، وما ان حل عام ٣٠٠ م حتى كانت الدين الجديد قد ثبت أقدامه بين المصريين وأصبحت له كنائس سرية وعلنية في كل المدن بل والقرى ، ولقي أنصار الدين الجديد في مصر وفي شتى أنحاء الامبراطورية الرومانية ما لا يوصف من الاضطهادات على أيدي الأباطرة الوثنيين وعلى رأسهم دقلديانوس الذي يعرف عصره بعصر الشهداء ، ولكن المصريين تمسكوا بديانتهم الجديدة ربما كنوع من التحدي للحكم الروماني الوثني، وصاروا يهجرون معتقداتهم القديمة التي امتزجت بالوثنية الهلينية في كثير من السخط والتفزز والنفور ، ثم أدى اعتناق الامبراطور قسطنطين للمسيحية حوالي عام ٣١٣ م. إلى دفعة قوية للدين الجديد في كل أنحاء الإمبراطورية ومنها مصر ، فتحول إليه كثيرون من عباد الآلهة المصرية القديمة وهجرت مئات من المعابد المصرية في جميع أنحاء الوادي .

وفي عام ٣٨٠ م. أصدر الإمبراطور ثيوديسيوس أمره الشهير بإيقاف العبادات الوثنية واعتماد المسيحية كدين رسمي وحيد للامبراطورية ، فكان هذا الأمر بمثابة إشارة انطلاق لتدمير كل الديانات والثقافات القديمة سواء في مصر أو غيرها من الأقاليم الرومانية ، وتحولت موجة الاضطهاد ضد الوثنيين الذين تمسكوا بعبادة آلهة آبائهم ، وارتفعت ألسنة اللهب والدخان تغطي سماء الاسكندرية موطن الثقافة اليونانية وقلعتها الحصينة ، ودمر المسيحيون المتعصبون كل ما هو وثني فيها : مراكزها العلمية ومتاحفها ومكتباتها التي تجددت بعد حريق المكتبة الكبرى في عهد يوليوس قيصر ، وأصبحت تضم ثروة لا تعوض من دواوين الشعر اليوناني والتراث الادبي والفلسفي والعلمي والتاريخي لكل حضارات العالم القديم ، وقتل المسيحيون في إحدى ثوراتهم

هيباثيا الجميلة أستاذة الفلسفة بجامعة الإسكندرية ، فكانت بمثابة آخر رمز يسقط للثقافة الكلاسيكية . وفي عهد القيصر فالين تحولت جامعة قيصرية بالإسكندرية إلى كنيسة مسيحية ، وخربت مكتبتها واحترقت محتوياتها وطورد فلاسفتها بتهمة السحر والشعوذة . وفي عام ٣٩١ م. حصل البطريك « ثيوفيلوس » من القيصر « ثيودوسيوس » على إذن تخريب أكبر مزار في العالم القديم وأكبر أكاديمية علمية في مصر وهو « السيراپيون » وحرقت مكتبته (١) .

ولم تقف نقمة المسيحيين عند حد التخريب والحرق والتدمير بل تجاوزتها إلى أعمال الإرهاب والاضطهاد والتعذيب للكهنة والعلماء الوثنيين ، ففي القرن الخامس الميلادي نجد سيفريوس صديق البطريك الإنطاكي يعترف بلا خجل كيف انه وصديقه الذي أصبح بطريكاً لإنطاكية فيما بعد - وكانا منضمين إلى هيئة مسيحية بالإسكندرية - اقتصروا في أيام شبابهما كثيراً من الآثام والجرائم ضد العلماء الوثنيين ودور عبادتهم .

وهكذا اندفع المسيحيون بقيادة قسهم ورهبانهم المتشعنين بالمسوح السود يدمرون كل رموز الوثنية القديمة ، وخلال فترة وجيزة ضربت مئات المعابد في مصر ، ومنع الكهنة تحت التهديد بالموت من مزاوله طقوسهم المقدسة ، وأغلقت بقايا المعابد أو حولت إلى كنائس وبيع ، ويقال ان أربعين ألف صورة وتمثال للآلهة قد دمرت في موجة واحدة من موجات النعمة على الوثنية في ذلك العهد (٢) .

(١) سيجريد هونكة : شمس الله على الغرب ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ص ٤٢٦ .

(2) Hurry : Imhotep P. 136

ولكن بالرغم من كل ذلك استمرت بعض آثار العبادات المصرية القديمة قائمة في أقاصي الصعيد وخاصة في جزيرة فيلة على وجه التحديد التي أصبحت بمثابة المعقل الأخير لمن كتب لهم النجاة حتى ذلك الوقت من الآلهة المصرية القديمة وهم ، إيزيس واوزيريس وصحّور وخنوم وأحتب .

ولكن ما ان انتصف القرن السادس الميلادي حتى بعث الإمبراطور جوستنيان بقائده نارسيس إلى جزيرة فيلة للقضاء على آخر معاقل الوثنية في مصر ، ودمر نارسيس معابد الجزيرة ، وحطم تماثيل آلهتها ، وأرسل كنوزها إلى القسطنطينية ، وألقى بكنهة معبد إيزيس العظيم - آخر حملة الثقافة القديمة - في السجن حيث ماتوا جوعاً وإهمالاً^(١) .

ويعلق هنريك ويليام فان لون على هذا الحدث قائلاً : ان جزيرة فيلة كانت البقعة الوحيدة التي لا تزال تفهم فيها الكتابة المصورة المقدسة (الهيروغليفية) حيث كان هناك عدد قليل من الكهنة ما زالوا مستمرين في مزاوله تلك المهنة التي نسيت في كل مكان آخر من أرض خوفو ، ويصب فان لون لعناته على الإمبراطور جوستنيان الذي كان رجلاً جاهلاً لا شأن له « بالتعليم في الكتب » لأنه قضى بذلك على مفتاح الكتابة الهيروغليفية ، كما انتهت بناء على أوامره مدرسة أثينا الفلسفية نهائياً^(٢) .

أما الطبيب الموسوعي الثقافة جاميسون هري ، فيعلق على نفس الحدث قائلاً : ان معابد احوتب وحتحور وإيزيس وغيرها من الآلهة التي كانت في

(1) Hurry : Imhotep P. 140 .

(2) Vam Loon, H. W. The Liberation of Mankind P. 17 .

الماضي تزين جزيرة فيلة أصبحت الآن أطلالاً دارسة ، حزينه الجمال ، بعد أن كانت أضرحة زاهية شهيرة .. لم يعد الكهنة يرتلون أو يطلقون البخور وهم يقدمون القرابين للآلهة ، ولم تعد مواكب العميان والصم والمشوهين والعاقرات تطوف بأنحاء معبد المحوتب الذي ظل قروناً طويلة يهب الرؤية للعميان ، والأطفال للعاقرات ، والشفاء للمرضى .. لقد انزوى النظام القديم مفسحاً المجال للجديد وحقق الله نفسه بطريقة أخرى (١) !

خلال هذا الصراع الدامي الرهيب بين المسيحية والوثنية في مصر ازداد المصريون انقطاعاً من الناحية النفسية عن تاريخهم القديم ، لم يعد الأمر مجرد انهيار الحضارة الفرعونية بكل ما يقطعه هذا الانهيار من وشائج نفسية ، بل أصبحت هذه الحضارة أيضاً هرطقة ملعونة ينبغي التنكر لها والقضاء على كافة آثارها والتبرؤ من الانتماء اليها ، وحتى اللغة المصرية القديمة التي ظل المصريون يتكلمونها في ذلك العصر تعلموا أن يكتبوها بالقلم اليوناني ونسوا تماماً كيف يكتبونها أو يقرأونها بالقلم الهيراطيقي أو الديموطيقي .

يقول الدكتور حسين فوزي : من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعوني لأنها في الواقع كانت نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية إلى المسيحية في القرون الأولى بعد الميلاد ، ومن الخطأ أن نحمل المسلمين المصريين تبعة تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسئول الأول عن هذا التخريب هم المصريون المسيحيون .. وإذا كان المسيحيون المصريون احتفظوا بلغتهم القديمة فإنهم يتحملون تبعة ضياع مفتاح الكتابة الهيروغليفية

(1) Hurry : Imhotep P. 143 .

والديموطيقية حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم خمسة عشر قرناً إلى أن كشف شامبليون رموزها في أوئل القرن التاسع عشر (١).

* * *

غير أننا إذا كنا لا نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها القديم فلا سبيل إلى انكار أن مصر دخلت بعد الفتح العربي الإسلامي مرحلة جديدة تماماً من تاريخها لا يمكن أن تعد امتداداً طبيعياً لما سلف ، ولم يقتصر التغيير الذي حدث في هذه المرحلة على الشكل والمظهر وإنما مس صميم الجوهر والموضوع .

وقد يكون السبب في عمق التغيير الذي أحدثه الفتح العربي أن مصر كانت قد بلغت قبيل الفتح مرحلة من الضعف العام بل والتسيب المطلق ، ثم ارتطمت فجأة بقوة كاسحة لا تقهر هي قوة الإسلام والعروبة الطافرة ، تلك القوة التي هزمت في فترة وجيزة لا تتعدى سنوات قلائل أقوى امبراطوريتين تمخض عنها العالم القديم ، وهما الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الفارسية ، وهذا البون الشاسع بين قوة مصر الذاتية وقوة الغزو الخارجي لم يكن قائماً بالنسبة للفتوحات السابقة التي تعرضت لها مصر ، فمهما كانت ضراوة الفرس ، أو تفوق الإغريق ، أو غطرسة الرومان ، فإن الوضع كان مختلفاً ، فلم تكن هذه الدول الفاتحة تتمتع بفتوة الفاتحين العرب ، ولم تكن مصر على هذه الدرجة من الضعف التي بلغتها عند الفتح العربي ، ولذلك استطاعت مصر الصمود إلى حد ما في وجه هؤلاء الفاتحين بينما لم تستطع ذلك أمام العرب .

ولم يكن العرب مجرد فاتحين هدفهم الاستيلاء أو الاستيطان أو الاستغلال

(١) د. حسين فوزي : سندات مصري ص ١١٣ .

بل كانوا حملة رسالة متفوقة هدفها تغيير النفوس من الداخل ، وحملة عقيدة راسخة تستطيع بذاتها أن تتسلل إلى الوجدان ، ويستطيعون هم حمايتها بالجدل والسيف معاً ، وحملة لغة متينة تتسع لكل مطالب العصر وتصمد وتتفوق إزاء أية منافسة في كل المجالات ، وكانت مصر أبعد ما تكون رغبة عن مقاومة ذلك كله بل كانت ، على العكس ، شديدة الترحيب به بحثاً عن مجال روحي ثقافي جديد تستطيع أن تتنفس فيه بحرية بعد ألف سنة من السيطرة اليونانية الرومانية ، وأسلمت نفسها طائعة لرياح التغيير القوية القادمة من الشرق العربي الذي تربطها به أوثق الأواصر منذ آلاف السنين .

وهكذا كان التغيير عميقاً وشاملاً ومريعاً ، وكما يقول صبحي وحيدة نحن « ما نكاد نبلغ القرن الثامن ونلقى أول مصري كتب عن مصر بعد الفتح وهو ابن عبد الحكم حتى نجدنا أمام مجتمع عربي بارز المعالم مشغل مجتمعات دمشق والمدينة ومكة المعاصرة ، فأهل هذا المجتمع عرب ، وتفكيرهم عربي ، وتقاليدهم عربية ، وليس في عروبة من ليس بينهم من أصل عربي كابن عبد الحكم نفسه أي تكلف أو زيف ، ومصر ابن عبد الحكم نفسها سامية عربية منذ أن كانت الخليفة ، وليس في تاريخها الطويل ما يستحق أن يذكر سوى قصص ابراهيم وإسماعيل وموسى ويوسف ومريم القبطية وإيثار النبي للقبط وبغض الله كفر المصريين الأولين .. والمصريون من أبناء هذا المجتمع الجديد حتى من دخل منهم الإسلام بالأمس ينتسبون لأصل عربي ، ويسمون انفسهم ابن عبد الحكم وشمس الدين وبهاء الدين زهير وتقي الدين المقرئ ، وهم لا يعون انهم أصحاب قومية خاصة ، وإن شعروا بشيء فإنهم يشعرون أنهم من أصل مسيحي^(١) .

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية ص ٣٩ .

ولقد كان تعريب المجتمع المصري على هذا النحو الشامل سبباً آخر - ولعله أقوى الأسباب جميعاً - في أحداث ذلك الانقطاع النفسي لدى المصريين ازاء تاريخهم ، ومع مرور الزمن لم يقتصر أثر هذا الانقطاع على أبناء مصر المسلمين وحدهم بل والمسيحيين أيضاً وبنفس القوة او كما يقول الدكتور حسين فوزي : ان الحقيقة الواقعة وما نراه من احساس المصريين بعروبيتهم تدل على انفصام كامل بين مصر الإسلامية وما سبقها ، فالمصري المسلم ينظر إلى الإسلام كأساس لحضارته ويعتبر العصور السابقة على الإسلام كأنها تاريخ شعب آخر انتهى أمره ، والمصري غير المسلم يعتبر اللغة العربية وما تحمله من ثقافة كأساس لحضارته . وإذا أردنا تقسيماً أدق فلإننا نرى المصريين عن بكرة أبيهم أحد اثنين : اما مسلم يحس إحساساً شديداً بالجامعة الإسلامية بحكم اقتصار دراسته وفهمه على التاريخ الإسلامي والدور الذي أداه الإسلام للحضارة ، وأما مسلم أو مسيحي يشعر بجامعة اللغة والتراث الحضاري ، وهي التي تجمع شمله بالشعوب التي تتكلم اللغة العربية ، والنتيجة العملية لكل هذا هي ان سكان مصر من المسلمين يبدأون تاريخهم الحضاري بالفتح الإسلامي ، ومن غير المسلمين يبدأون تاريخهم الحضاري بكراسة مرقس الرسول ثم يشاركون مواطنيهم المسلمين في ثقافتهم العربية ^(١) .

* * *

صاحبت هذه العوامل التاريخية الكبرى وهي انهيار الحضارة الفرعونية ، والصراع بين المسيحية والوثنية ، وتعريب مصر ، ظاهرة أخرى كانت قوية.

(١) د. حسين فوزي : سندباد مصري ص ١١٥ .

الأثر في أحداث ذلك الانقضاء النفسي لدى المصريين ازاء تاريخهم الوطني ، وساعدت العوامل الأخرى على أحداث أثرها .. تلك الظاهرة هي موجة العالمية التي امتدت متصلة عبر حقبات تاريخية بالغة الطول من أواخر العصر الفرعوني حتى القرن التاسع عشر الميلادي .

هذه الموجة لم تقتصر على المصريين وحدهم بل شملت جميع شعوب العالم المتحضر بلا استثناء ، فقد شهد العالم موجات متصلة من مشاعر العالمية تتفق في جوهرها العالمي اللاقومي وتختلف في مصادرها وأسلوبها ، وهذه الموجات هي على التوالي الهلينية والمسيحية والإسلام .

وكانت الهلينية في الواقع قمة الانجاء العالمية الذي بدأ قبل العصر الإغريقي بعدة قرون ، أي منذ قيام الإمبراطورية المصرية في الدولة الحديثة التي ضمت تحت أعطافها معظم الشرق الأدنى القديم وأجزاء من السودان ، وتجلبت عالميتها سافرة في ثورة أخناتون الفكرية الدينية . وبعد انهيار الإمبراطورية المصرية سادت فترة من الصراع الدولي استمرت عدة قرون بين مصر وبابل وأشور والفرس واليونان ، إلى أن فرض الفرس سيطرتهم على العالم القديم وأنشأوا إمبراطورية عالمية تمزج فيها مختلف الشعوب المتحضرة في ذلك الحين ، وهذا بالتحديد ما جعل يسيراً على الإسكندر أن يتقدم بفتوحاته الكبرى شرقاً حتى الهند ، فالذي فعله الإسكندر أنه انتزع الزعامة السياسية من يد الفرس على إمبراطورية عالمية قائمة بالفعل ، ولكن فتوحات الاسكندر دعمت النزعة العالمية دون شك وجعلتها واعية بذاتها لأن الإسكندر كان من المبشرين الصرحاء بهذه النزعة ، وكانت لديه أفكار شرع في تنفيذها فعلاً للمزج بين الشرق والغرب عن طريق الزواج والعقيدة والثقافة ، وبعد وفاة الإسكندر تحطمت إمبراطوريته سياسياً ولكنها استمرت موحدة من الناحية الفكرية ، فقد ظلت

الحضارة الهلينية تنشر ظلها في كل أرجاء العالم المتمدن وتجمعه في وحدة عالمية تتضاءل ازاءها الفروق القومية ، وبرزت الثقافة الإغريقية كعامل مشترك بين الشعوب ، حتى ان المصريين هجروا قلمهم الوطني وكتبوا لغتهم بالقلم اليوناني ، وكان المفكرون والكتاب سواء في أوروبا أو آسيا أو أفريقيا يكتبون ويفكرون بالإغريقية ، وحتى روما تلك القوة الخطيرة الناشئة اصطبغت بالصبغة الهلينية بالرغم من علو نجمها السياسي ، وارتفاع كعبها العسكري ، وانتزاعها أخيراً الزعامة من أيدي الإغريق .

وفي ظل الهلينية لم تكن الحدود الإقليمية ذات شأن يذكر ، فالعبارة بالثقافة والفكر وليست بالعنصر والجنس ، ويستطيع اليوناني أو الروماني أو المصري أو السوري أو الفارسي أو اليهودي أن يتنقل بسهولة بين أقاليم الإمبراطورية كلها ، ويستطيع أن يشغل أرفع المناصب دون أن يعوقه أصله عن مبتغاه ، بل وان يرتفع إلى عرش روما نفسه كما فعل ماكرينو المصري وفيروس السوري وستيميو سفيرو الأفريقي^(١) ، ثم انتفى كل أثر للجواجز الإقليمية عندما أصدر الإمبراطور كراكالا مرسومه الشهير بمنح الرعوية الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الأحرار .

وكان من أثر هذه النزعة العالمية ظهور الأديان التبشيرية أي التي تتطلب من معتنقيها أن ينشروها ويقنعوا غيرهم بها ، في حين أن أديان العالم القديم كانت قبل ذلك غير تبشيرية ، وتستطيع أن تتعايش فيما بينها ببساطة بل حتى اليهودية نفسها قصرها معتنقوها على أنفسهم ولم يحاولوا التبشير بها^(٢) .

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية ص ٣٠ .

(٢) د. سليمان حزين : تاريخ الحضارة المصرية ص ٣١ .

وهكذا ظهرت المسيحية وانتشرت حثيثاً في أرجاء الإمبراطورية الرومانية الشاسعة وكأنها وجدت الجهو ممهداً لتقبل الشعوب لها ولتزعجتها العالمية ، وعندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي المعترف به للإمبراطورية زادت النزعة العالمية وضوحاً وأصبح الدين معيار كل شيء ومنبع السياسة والفلسفة والحروب والثورات ، وبرز بين المصريين عدد من أعظم فلاسفة المسيحية وأبطالها وشهادتها ، ولم يكن نفوذهم يقتصر على أبناء جلدتهم من المصريين بل ينتشر في كافة أرجاء العالم المسيحي ، وليس أدل على ذلك من وصول نظام الرهبنة المسيحية المصرية حتى إيرلندا وبلاد الشمال الأوربي .

وحق الصراع الدامي بين المصريين وحكامهم البيزنطيين لم يكن محوره الاستقلال الوطني بل كان محوره الظاهر هو الدين [وإن كان يخفي نزعة استقلالية غير واعية] . وعندما اعتلى عرش الإمبراطورية ماكرينو المصري الأصل كان أشد ممن سبقوه اضطهاداً للمصريين الذين يخالفونه المذهب الديني . وعندما انقسمت المسيحية إلى كنائس متنازعة ظل المصريون أبعد ما يكونون عن التفكير في الاستقلال الوطني ، ولم تلك تراودهم ذكريات استقلالهم الماضي أو رؤى أمجادهم القديمة ، بل انهم ليستنكرون عهد الفراعنة تماماً كما يستنكرون شركاؤهم في الدين وأعداؤهم في المذهب ، فالفريقان ينظران إلى الفراعنة خلال منظار التوراة .

وعندما أشرق الإسلام ازدادت النزعة العالمية وضوحاً وأثراً ، فقد كانت المجتمع الإسلامي كالمجتمع المسيحي والمجتمع الهليني اللذين سبقاه يقوم على أساس العقيدة الدينية ، ولا يعرف الحدود الإقليمية أو التفرقة الجنسية ، فالنظرية السياسية في الإسلام تقوم على تقسيم العالم إلى « دار سلام » تضم المناطق الواقعة

تحت الحكم الإسلامي ، و « دار حرب » تشمل جميع المناطق التي لا يحكمها الإسلام ، والعلاقة بين الدارين هي الحرب المقدسة أو الجهاد .

وكان الإسلام أساساً حركة عالمية وحركة امتزاج بين الشعوب ، فكانت الأفكار التي تظهر في أي جزء من العالم الإسلامي تنتشر في سرعة مذهلة إلى باقي الأجزاء ، وإذا كانت الرابطة الاجتماعية التي تربط العرب قبل الإسلام هي الرابطة القبلية ، فقد حولها الإسلام إلى رابطة الأمة الإسلامية التي تضم جميع من يؤمنون بمبادئ الإسلام بغض النظر عن اختلاف العنصر أو اللون ، فلا فرق بين عجمي وعربي ، أو بين أسود وأبيض إلا بالتقوى ، والناس جميعاً متساوون كأسنان المشط .

وظلت رابطة الإسلام العالمية من القوة بحيث تجنب أي خلافات فكرية أو انقسامات سياسية تنشأ بين المسلمين وهي متعددة ، فالمسلمون - كما يقول صبحي وحيدة - قد ينقسمون إلى مالكيين وحنفيين وشافعيين ، أو شيعة وسنية وإسماعيلية وقرامطة ، وقد يعرفون العصبية العربية أو الفارسية أو التركية ، وقد تعدد دولهم السياسية فتقوم للفاطميين دولة في مصر إلى جانب دولة العباسيين في بغداد ودولة الأمويين في الأندلس ، ولكن ذلك كله لا ينتقص من وحدتهم الإسلامية ولا يدفعهم إلى أية مشاعر اقليمية قومية ، فإن تعدد هذه الوحدات السياسية لا يرجع إطلاقاً إلى سمات قومية خاصة ، وإنما يرجع فحسب إلى اختلاف المصالح وتنافس الأفراد ، ولذلك ظلت هذه الدول تحمل أسماء الأشخاص الذين أقاموها لا المناطق الجغرافية التي قامت فيها ، فهناك الدولة الأموية نسبة إلى بني أمية ، والعباسية نسبة إلى بني العباس ، والفاطمية نسبة إلى سلالة فاطمة الزهراء ، والعمانية نسبة إلى بني عثمان ، وهذه الدول جميعاً تقتصر على المدلول السياسي . ولا تتعداه فتصبح حاجزاً يفصل بين المسلمين فكرياً أو دينياً أو اجتماعياً ، فالتشريع والقضاء موحدان في العالم الإسلامي .

رغم انقسامه إلى دول متعاصرة مكاناً أو متوالية زماناً ، والمسلم في أي مكان في الأرض الإسلامية يخضع لنفس الشريعة المستمدة من الكتاب والسنة مهما اختلف المتربعون في دست الحكم .

وهذه الأوضاع هي التي مكنت المماليك والعثمانيين من حكم مصر والمشرق العربي ، إذ لم يجد العرب المسلمون أية غضاضة في الخضوع لحكم ممالك مستعجلين من أصقاع آسيا ما داموا مسلمين ، وكذلك لم يحاول هؤلاء المماليك أن ينقلوا مقر حكمهم إلى بلادهم الأصلية التي جاءوا منها ، فهي لا تعني شيئاً بالنسبة لهم ولا تربطهم بها أي مشاعر قومية (١) .

وقصارى القول أن هذه الموجة القوية المتلاطمة من المشاعر العالمية التي تقاذفت مصر عشرات القرون منذ أواخر عصورها الفرعونية إلى مطلع تاريخها الحديث كان لها أبلغ الأثر في فصح المصريين نفسياً عن مراحل تاريخهم المختلفة وعن إحساسهم بالانتماء القومي الإقليمي ، بل جعلتهم في الواقع لا يفكرون بالمنهج التاريخي على الإطلاق ، وأصبح التاريخ المصري نتيجة لذلك يبدو فاقد الوحدة ، فهو تاريخ مجتمعات تنقسم على أساس الصبغة الدينية ، وليس تاريخ وطن واحد يمر عبر مراحل مختلفة .

* * *

ومما ساعد كذلك على طمس ذاكرة المصريين التاريخية عصور الاستبداد

(١) مراجع النزعة العالمية : جون ويلسون (الحضارة المصرية) صبحي وحيدة (في اصول المسألة المصرية) جلانفيل (تراث مصر) .

والتخلف المريعة التي مروا بها في تاريخهم الطويل وأبرزها فترة الاحتلال العثماني التي وصلت بالشعب المصري الى الدرك الأسفل في سلم البشرية .

لقد ترك لنا كثير من الرحالة والمؤرخين العرب في عصر الفاطميين والأيوبيين وسلاطين المماليك ، ومنهم ناصر خسرو وابن جبسير وابن بطوطة والمقريزي وصفاً لحالة مصر كما شاهدوها نكتبين منها جلياً مدى التقدم الذي كانت تتمتع به مصر في شتى ميادين الحياة ، ولو أن الأمر كان قد استمر على هذا الحال سواء بالنسبة لمصر أو العالم العربي على الاجمال لكان من المؤكد أن تسير الحضارة العربية قدماً ، ولربما اتخذت خطاً موازياً للنهضة الأوروبية المعاصرة بما يقدمه ذلك من إمكانيات لإحساس المصريين والعرب عموماً بذاتيهم وشخصيتهم وقوميتهم وتاريخهم ، ولربما كانت بداية إحساس المصريين بتاريخهم التي رأيناها في القرن التاسع عشر قد تقدمت ثلاثة أو أربعة قرون ..

ولكن الذي حدث كان شيئاً مختلفاً تماماً ، ففي القرن السادس عشر أصيبت مصر والأمة العربية بوجه عام بضربة قاتلة تلقاها المشرق العربي بتحويل طريق التجارة العالمية عن مصر والبحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح ، ثم سرعان ما سقطت المنطقة تحت النير العثماني الذي قضى على أملها في التقدم قضاءً مبرماً .

فبعد أن كان العرب يترجمون أرسطو وأفلاطون ويمارسون فنون جالينوس وأبقراط ويضيفون إلى العلوم الطبيعية والرياضية من عبقريتهم الخلاقة ما ترجم بعد ذلك إلى اللغة اللاتينية وأصبح أساساً لنهضة الغرب ، وبعد أن كانت

المقريري يصف رخاء مصر فيقول : « يرمى بمصر في كل يوم الف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل » إشارة إلى ما يوجد في النفايات من أشياء يستغنى عنها ، وبعد ان كان ابن جبير يحاول احصاء قوافل التجارة في بر مصر فلا يستطيع ويكتفي بقوله ان احمال الفلفل توازي التراب قيمة ، وبعد ان كان ابن خلدون يصف مصر بأنها قبة الأنظار وتاج الخليفة .. بعد ذلك كله نرى الرحالة الفرنسي سافاري الذي زار مصر عند بداية الحكم العثماني في القرن السادس عشر الميلادي يقول : « ان هذه البلاد الغنية التي كانت عصوراً ملاذ العلوم والآداب والفنون يحتلها اليوم شعب جاهل بربري يسومها الخسف ، أجل ! ان الطغيان ليسحق بنيده الحديدي اجمل بلاد العالم ^(١) » .

وما ان يهل القرن التاسع عشر وتصرم ثلاثة قرون على مصر تحت هذا النير الحديدي حتى نجد الميجور ديترورا عضو حملة نابليون يصف حالة القاهرة عندما دخلها الجيش الفرنسي فيقول : « ماذا تجد عند دخولك القاهرة ؟ شوارع ضيقة قلدة غير مرصوفة ، وبيوتاً مظلمة متداعية ، وأبنية عامة كأنها السجون وحوانيت اشبه بمرباط الخيل ، وجواً عبقاً بقطر التراب والقمامة ، وعمياناً وعوراً ورجالاً ملتعين واشخاصاً يرتدون اسماً محشورين في الشوارع او قاعدين يدخلون قصباتهم كالقردة امام مدخل كهفهم ، ونساء قليلات منكرات الصورة ، مقززات ، يخفين وجوههن المعجفاء وراء خرق نكتة ، ويبدين صدورهن المتهدلة من أرديتهن الممزقة ، واطفالاً صقر الوجوه ، رقاق الأجساد ينتشر الصديد على جلدهم وينهشهم الذباب ، ورائحة كريهة منبعثة من الأوساخ داخل

(١) احمد وشدي صالح : الادب الشعبي ص ٥٤ .

البيوت ، ومن التراب في الهواء ، ومن قلى الطعام بزيت رديء في الأسواق العديمة التهوية « (١) .

وليس هنا مجال الاستطراد في احوال مصر والشرق العربي في ذلك العهد الأسود الذي فرض على سكان المنطقة ابشع ألوان الانحطاط والتفسخ باسم الخلافة الاسلامية ، ولكن المقصود تبيان ان عصر التجهيل العثماني هذا وما شابهه من عصور الاستبداد السابقة ادت إلى القضاء على اية فرصة كان من المحتمل ان يحس فيها المصريون بشخصيتهم وتاريخهم ، وما كان قد تأخر هذا الاحساس على ذلك النحو ، إذ لم يبدأ المصريون في إدراك تاريخهم حتى انقشعت غمامة الاستبداد العثماني خلال القرن التاسع عشر .

(١) كريستوفر هيرولد : بونايرت في مصر - ترجمة فؤاد اندراوس ص ١٨٧ .

[٣]

البحث عن خيط عام

هذه الهوات السحيقة التي تعترض مجرى التاريخ المصري وما صاحبها من انقطاعات نفسية لدى أبناء كل حقبة إزاء الحقب السابقة عليها تثير مشكلة صعبة أمام القول بوحدة التاريخ المصري . فالظاهر انه ليست هناك وحدة تربط بين اجزاء ذلك التاريخ بل إن كل حقبة تبدو منفصلة تماماً عما قبلها ، وتزداد الهوة اتساعاً إذا لم تكن الحقب متتالية بل تفصل بينها حقبة أخرى أو أكثر، فنحن إذا لمسنا مثلاً علاقة واضحة بين مصر الفرعونية ومصر الهلينية ، أو بين مصر الهلينية ومصر القبطية البيزنطية ، أو بين مصر القبطية ومصر صدر الإسلام ، فإن العلاقة لا تبدو بنفس الوضوح ، أو تبدو كأنها ليست قائمة أصلاً ، بين مصر الفرعونية ومصر الإسلامية ، أو بين مصر الهلينية ومصر الحديثة .

غير أن المدقق في تاريخ مصر لا يستطيع أن يقول رغم كل أسباب الانقطاع التاريخي والنفسي ورغم تغير الحضارات وتوالي العصور ، بأن تاريخ مصر يتكون من مراحل منفصلة لا تربط بينها وشائج ما ، بل انه لخطأ علمي كبير الزعم بعدم وجود صلة بين مصر الفرعونية ومصر الهلينية ومصر القبطية ومصر الإسلامية ومصر الحديثة ، فهذه المراحل ليست قوارير منفصلة تقف الواحدة

وراء الأخرى في « فترينة » التاريخ المصري ، وليست هناك فواصل جامدة أو أبواب حديدية تقف بين مرحلة وأخرى ، وإنما هناك تلاحم عضوي فيما بينها تبدو معه هذه المراحل أشبه بأنابيب مستطربة منها بقوارير منفصلة .

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور حسين فوزي في «سندباد مصري» بقوله « ولكن مصر لم تبقى ، ولا يمكن أن تبقى ، بمعزل عن العالم الذي تطور منذ القرون الوسطى وأنشأ في أوروبا حضارة نبتت أصولها من حضارة اليونان والرومان والتوراة والإنجيل ، وأخصبتها عناية العرب ببعض معالم الفكر اليوناني فإذا أضفنا إلى هذا ان حضارة اليونان تعترف لمصر القديمة ببعض الفضل ، وان الحضارة العربية تأثرت في بعض نواحيها الفنية بالفن البيزنطي ، فان السلسلة الحضارية التي تجمع مصر القديمة ومصر المسيحية ومصر الاسلامية والحضارة الحديثة سوف تضيق حلقاتها »^(١).

وليس من شك ان وحدة التاريخ العام للبشرية حقيقة علمية قائمة بمعنى أن ثمة روابط تاريخية وحضارية وروحية ونفسية مختلفة تربط بين أجزاء التاريخ البشري على نحو أو آخر ، ولكن هل الأمر بالنسبة للتاريخ المصري يندرج فحسب تحت مبدأ وحدة التاريخ المصري العام ؟ أم أن ثمة خيطاً واحداً يمكن تتبعه على طول التاريخ المصري ويربط بين مراحل المتعاقبة ؟

ان البحث عن هذا الخيط العام في تاريخ مصر يعد مشكلة حقيقية ..

إذ ينبغي بادئ ذي بدء استبعاد وحدة الحضارة كخيط عام للتاريخ المصري ، فقد تقلبت مصر في حضارات مختلفة بحيث لا يمكن تصور وجود وحدة حضارية تكون أساساً لتاريخها كله ، ولا يمكن مثلاً الآن التفكير في أحياء حضاري على

(١) د . حسين فوزي : سندباد مصري ص ١١٥ .

أساس فرعوني أو هلييني أو بيزنطي أو حق اسلامي قديم ، فكلها مراحل حضارية ولت وانقضت ولا يمكن أن تصلح أساساً للقول بوحدة تاريخ ، بل ان هذه الحقيقة بذاتها هي التي مزقت وحدة التاريخ المصري ، ذلك لأن المؤرخين يغلبون الحضارة على التاريخ فهم يؤرخون لتاريخ الحضارات التي تعاقبت على مصر وليس لتاريخ الشعب المصري الذي تغلب في مختلف الحضارات ، في حين أن هناك شعوباً عريقة أخرى كالهنود والصينيين تصلح حضارتها ان تكون أساساً لتاريخها نظراً لاستمرارية حضارتها وتطورها بصورة منطقية طبيعية .

وإذا استبعدنا الحضارة كأساس لوحدة التاريخ ينبغي أن نستبعد بالتالي مقوماتها الأساسية كالدين واللغة .. فقد تحولت مصر من الوثنية إلى المسيحية إلى الإسلام ، ومن المصرية الهيروغليفية إلى القبطية اليونانية إلى العربية ، وبذلك لا يمكن أن يصلح أحد هذين العنصرين الحضاريين أساساً لوحدة تاريخية بل انها من أقوى أسباب الانقسام .

وقد يقال انه إذا كانت الحضارة متغيرة فإن الموقع ثابت ومن الممكن اتخاذه أساساً لوحدة التاريخ المصري ولا شك أن موقع مصر الجغرافي لعب دوراً هاماً في تاريخ مصر وكان بمثابة وعاء لاستمراريتها ، غير انني أزعـم أن تاريخ مصر أكثر تماسكاً وترابطاً من أن يكون مجرد تاريخ موقع جغرافي معين ، فان استمرارية الحياة المصرية لا تفسرها الجغرافيا وحدها ، ولندكر مثلاً ان هناك مواقع جغرافية كثيرة تعاقبت عليها أجناس وحضارات مختلفة دون أن تشفع لها وحدة الموقع للقول بوحدة تاريخها ، فمثلاً بلاد الرافدين تعاقب عليها السومريون والبابليون والآشوريون والآراميون والعرب المسلمون ، وبالرغم من أن كل هذه الأقوام – باستثناء السومريين – تنتمي إلى الأسرة السامية ، وبالرغم من أنها أقامت في نفس المكان إلا انه لا يمكن التأريخ لها كشعب واحد على أساس اشتراكها في الموقع ، وكذلك لا يصلح موقع بلاد الشام كأساس لتاريخ واحد

يضم سير الفينيقيين والكنعانيين والعبرانيين والرومان والعرب . وعلى ذلك لا يمكن رد وحدة التاريخ المصري إلى وحدة الموقع وحده بل لا بد أن تكون إلى جانبه عوامل أخرى أكبر أهمية وأثراً .

وثكاد تكون الاستمرارية الجنسية النسبية للشعب المصري أصلح من غيرها كخيط يثبت وحدة تاريخ هذا الشعب ولكن يجب التحذر من إطلاق هذا القول على عواهنه ، أولاً لأن دعوى تجانس واستمرار أي جنس بشري علاوة على كونها غير علمية فإنها أيضاً دعوى رجعية تؤدي إلى أوهام الاستعلاء والتفوق والتميز عن باقي الشعوب ، وثانياً لأنه في حالة مصر بالذات لم يكن هناك جود عنصري مطلق فبالرغم من وجود تشابه جنسي لا سبيل إلى إنكاره بين المصريين القدماء والمصريين المعاصرين وبخاصة أهل الصعيد فإن الشعب المصري لم يكن في أي عصر من العصور مغلقاً من الناحية العنصرية كالصينيين أو الاسكيمو بل كانت مصر دائماً معبراً ومستقراً للبشر من مختلف الأجناس يأتون إليها فرادى أو جماعات ، ويمنحونها دماء جديدة ، وكانت مصر دائماً تتقبل هؤلاء الوافدين [ولكن بشرطها لا بشروطهم !] وسرعان ما تمتصهم وتمثلهم في نسيجها البشري بقدرتها الخارقة على التصير ، وما ان يستقروا فيها جيلين أو ثلاثة أجيال حتى يعتبروا أنفسهم مصريين خالصاء ولا يعودوا يعرفون لأنفسهم أوطاناً أخرى بل قد يصبحوا أشد اعتزازاً بها وبأبجادهما من ابنائها الأصليين .

وفي الحالات القليلة التي تمسك فيها القادمون إلى مصر بكيانهم الخاص ورفضوا الاندماج في وسط الشعب أصبحوا كالفقعة المتحجرة وسرعان ما كانت مصر تلفظهم عاجلاً أو آجلاً ، وهذا ما حدث بالنسبة للهكسوس الذين لفظتهم مصر بعد احتلال استيطاني دام ١٥٠ عاماً ، وبالنسبة لبني اسرائيل الذين خرجوا بعد إقامة طفيلية قلقة معذبة ، وبالنسبة للبيزنطيين الذين طردوا

إلى البحر بعد احتلال عسكري متعجرف ، وبالنسبة للبدو الأعراب بعد الفتح العربي الذين رفضوا ممارسة الزراعة - شرط التمصير الأول - فأصبحوا يعيشون على هامش مصر اجتماعياً وجغرافياً .

ان ما يصلح بمثابة خيط عام للتاريخ المصري ليست الاستمرارية الجنسية بالتحديد وإنما استمرارية الحياة المصرية ذاتها القائمة على مقومات مصر الدائمة كالاستقرار والزراعة والانتاج الدائب .. انه نهر الحياة المصرية الذي لا يتوقف عن الجريان كنهر النيل ، فكما أن النيل مستمر ومتجدد في نفس الوقت كذلك نهر الحياة المصرية في استمراره وتجده ، وقد تعترض هذا النهر أو ذاك عقبات مؤقتة وقد يصاب في بعض المراحل بالركود والأسن ولكن لا يلبث أن يتدفق من جديد ويعود سيرته الأولى ، فها هم المصريون رغم كل ما يحدث فيهم ، ومن حولهم ، يشقون الأرض ، ويبذرون الحب ، ويحصدون الثمار ، عاماً بعد عام ، لم يتوقفوا عن ذلك سنة واحدة منذ سبعة آلاف عام !

* * *

من المعجزات الكبرى في تاريخ الشعب المصري - وربما أكبر معجزاته على الإطلاق - انه واصل الحياة والاستمرار بعد انهيار حضارته القديمة التي عاش في ظلالها ثلاثة آلاف عام من التاريخ المكتوب وعدة آلاف أخرى من السنين ضاربة في احشاء ما قبل التاريخ .

ويكاد يكون الشعب المصري فريداً في ذاته في هذه الناحية ، فالقاعدة التي أثبتت نفسها دائماً في تاريخ البشرية أن أي شعب ذي حضارة عظيمة يموت عادة بموت حضارته ، هذه القاعدة لم تصدق فحسب بالنسبة لشعوب وحضارات امريكا الجنوبية المنعزلة مثلاً كالانكا والمايا ، وإنما لم تسلم منها كذلك الشعوب

العريقة المتحضرة في العالم القديم وعلى رأسها الشعب الأغريقي نفسه ، فالذي يؤكد علماء الأجناس والحضارات ان الشعب اليوناني المعاصر وكذلك الشعب الايطالي المعاصر لا يمتان الى حد كبير بصلة عضوية الى الأغريق والرومان القدامى ، فقد حدثت عملية إزاحة شبه كاملة للغطاء البشري لجزر اليونان وإيطاليا في مطلع العصر الميلادي وحل محله غطاء بشري آخر نتيجة لهجرات القبائل المتبربرة من الشرق والشمال التي هاجمت الإمبراطورية الرومانية من الخارج واستقرت فيها واعتنقت المسيحية وتولد عنها المجتمع الغربي الحديث ، فالإيونانيون المعاصرون والإيطاليون المعاصرون لا يعتبرون ورثة الحضارة الاغريقية الرومانية إلا تجوزاً باعتبارهم يسكنون نفس المنطقة التي ترعرعت فيها هذه الحضارة . أما المصريون المعاصرون فهم ورثة حضارتهم القديمة بالمعنى الكامل للكلمة لأنهم الأحفاد الحقيقيون المباشرين لأجدادهم صانعي تلك الحضارة .

وقد يقال ان قاعدة موت الشعب بانهار حضارته لم تصدق مثلاً في حالة الفرس الذين استمروا كشعب حي بعد اعتناقهم الاسلام وأخذهم بالحضارة الاسلامية، ولكن ذلك يبدو لأول وهلة فحسب لأن الحضارة الفارسية القديمة لم تمت في الواقع نتيجة للفتح الاسلامي بل استطاعت أن تكيف نفسها مع الظروف الجديدة بل وانتهى بها الأمر الى « فرسنة » الحضارة الاسلامية ، وما الإنقسام الكبير الذي حدث في العالم الاسلامي إلا شاهداً على ذلك .

أما المصريون فقد كانت حضارتهم القديمة قد ماتت فعلاً وهم يعتنقون المسيحية ثم الاسلام ، وأصبحوا ينتمون الى صروح حضارية جديدة مختلفة تمام الاختلاف عما عهدوه من قبل ، ومع ذلك ظل المصريون هم نفس المصريين ، وظلت حياتهم تسير على نفس المنوال ، ولم ينقطع نهر الحياة المصرية .

والمقصود هنا بانهار الحضارة الفرعونية الوقت الذي توقفت فيه نهائياً عن

أن تكون قوة مؤثرة في حياة المصريين وليس مجرد انهيار الدولة سياسياً واقتصادياً ، فقد حدثت في العصور الفرعونية انهيارات كثيرة من هذا النوع أبرزها الفترة الانتقالية الأولى Interregnum التي أعقبت انهيار الدولة القديمة وحدثت خلالها ثورة شعبية كبرى^(١) . والفترة الانتقالية الثانية التي أعقبت انهيار الدولة الوسطى وحدث أثناءها غزو الهكسوس ، ولكن ما حدث في الحالتين لم يكن انهياراً للحضارة ذاتها وإنما مجرد انهيار للدولة ، وكانت الحضارة الفرعونية لا تلبث أن تعاود سيرها من جديد ، فقد قامت الدولة الوسطى كرد فعل لحالة الانهيار السياسي والاقتصادي والفكري التي استمرت زهاء أربعة قرون كانت فيها روح الحضارة المصرية قوية رغم هذا الانهيار بدليل أن تلك الفترة شهدت ميلاد قيم جديدة تعترف لأول مرة بفرديّة الإنسان وحقه في الخلود^(٢) . وقامت امبراطورية الدولة الحديثة كرد فعل من الروح المصرية لغزو الثقافة الآرية والسامية في عهد الهكسوس . وقامت الأسرة السادسة والعشرون الوطنية كرر فعل للغزو البابلي والاشوري واللوبي والاثيوبي . وكذلك أدى الاحتلال الفارسي البغيض على يد قمبيز حوالي ٥٢٥ ق.م. الى سلسلة من الثورات المصرية العنيفة حدثت الأولى بين ٤٨٥ - ٤٨٤ ق.م. والثانية من ٤٦٥ - ٤٤٩ ق.م. والثالثة من ٤٠٤ - ٣٤٣ ق.م. وحصلت مصر خلال هذه الثورات على قدر من الاستقلال الذاتي ولكن اعسادة الفتح الفارسي عام ٣٤٣ ق.م. قضى على الاستقلال المصري نهائياً ومع ذلك لم يفقد الشعب المصري قدرته على الانتفاض في وجه حكامه الأجانب لعدة قرون تالية ، وخلال هذه الانتفاضات كان الشعب المصري يحصل على تنازلات كبيرة من حكامه الأجانب^(٣) .

(١) راجع : اول ثورة على الاقطاع للمؤلف كتاب الهلال - ٢١١

(٢) المرجع السابق ، وايضاً Breasted : Dawn of Concious

3) Toynbee vol. 7, P. 50

وأخيراً انهارت الحضارة الفرعونية تماماً بعد أن عاشت فترة زمنية أطول من أي تاريخ آخر معروف أو ثلاثة أضعاف عمر الحضارة الغربية المعاصرة ، وأصبح التغيير الذي طرأ على الشعب المصري كاملاً باعتناقه المسيحية والإسلام ، وهذا ما يدفع المؤرخين إلى القول بحدوث انقطاع تام في التاريخ المصري ، وحق المؤرخ العظيم أرنولد توينبي يذهب إلى حد القول بأن هذا المجتمع المصري غير ممثل في عالم اليوم بأي خلفاء بشريين أو أصحاب حق ، ويدرج توينبي المجتمع المصري في قائمة المجتمعات التي لا ترتبط بأي علاقات انتماء سواء بالبنوة أو الأبوة مع أي مجتمع آخر . فقد تتبع توينبي علاقات الانتماء والتبني بين المجتمعات الحضارية التي عرفها التاريخ البشري وعددها ٢١ مجتمعاً فوجد أنها متصلة ببعضها البعض بهذه العلاقات على نحو أو آخر فيما عدا مجتمعين فقط يقفان بمفردهما وهما المجتمع المصري القديم والمجتمع الهندي القديم^(١).

واعتقد أن هذا الحكم قد يصدق على الحضارة الفرعونية باعتبارها شيئاً مختلفاً عن تاريخ مصر ، فإن توينبي عندما يتكلم عن المجتمع المصري Egyptian Society إنما يقصد الحضارة الفرعونية لا المجتمع البشري المصري ، وهنا فقط تستقيم نظريته ، فالحضارة الفرعونية تلاشت تماماً في القرن الخامس الميلادي دون أن تتخلف عنها جذوة مباشرة ما ، ولكن ماذا عن المصريين كشعب وكائن عضوي ؟ هل لحقتهم الإبادة التي حاقت بحضارتهم القديمة ؟ هل ظهرت بعد القرن الخامس الميلادي مصر أخرى لا تمت بصلة إلى مصر السابقة لها ؟ أم أن مصر دخلت مرحلة جديدة من تاريخها تختلف فحسب عما قبلها في لونها الحضاري وأمست الحضارة الفرعونية ذات الأربعة آلاف عام أو أكثر مجرد تجربة في تاريخ مصر ؟

1) Toynbee : vol. I P. 128

ان أكثر الخطأ في الاعتقاد بعدم وحدة التاريخ المصري إنما ينشأ من هذه النقطة بالذات وهي اعتبار الحضارة الفرعونية صنواً للتاريخ المصري ، أو بمعنى آخر ينتهي تاريخ مصر بانتهاء حضارتها الفرعونية ثم يبدأ بعد ذلك تاريخ آخر مع كل حضارة جديدة يدخلها المصريون .

لنفترض ، مثلاً ، ان كائناً بشرياً استطاع أن يغير اسمه وعقيدته وعلاقاته الاجتماعية بل وملامحه الجسدية وأصبحت كل هذه السمات بالنسبة له شيئاً يمت إلى الماضي واكتسب بدلاً منها ملامح وسمات وعلاقات جديدة ، فهل يكفي هذا لأن نعتبره شخصاً آخر ؟ هل نحن أمام رجلين أم ما زلنا أمام رجل واحد ؟ ان هذا الرجل حتى لو شاء أن ينسى ماضيه وود أن ينساه الآخرون ، فان هذا الماضي سيظل يطارده ولن يجد منه فكاً ، بل سيظل دائماً في أعين الآخرين على الأقل نفس الرجل .

وهذا نفس ما حدث لمصر بعد أن تلاشت نهائياً ظلال المرحلة الفرعونية ، وإذا كان بعض المصريين ينكرون الآن هذه المرحلة كشيء لا يمت إلى تاريخهم بصلة ، فليس هذا موقف الأجانب عن مصر الذين يساعدهم بعد الصورة على إدراك وحدة التاريخ المصري أكثر مما يتأتى للبعض منا !

* * *

والآن ، لنلق نظرة عن كثب على مراحل الانقطاع الظاهري في تاريخ مصر لنرى الى أي حد تعتبر انقطاعاً حقيقياً ..

ان العصر البطلمي الذي يقابلنا بعد انتهاء العصور الفرعونية مباشرة لم يكن سوى امتداداً فعلياً لكل أحوال المصريين السابقة عليه فيما عدا ضياع السلطة السياسية من يد الوطنيين ، فقيام دولة البطالسة لم يسلب مصر سوى

جنسية أسرتها الحاكمة وفرض عليها طبقة أجنبية حاكمة فحسب وفيما عدا ذلك استمرت سمات الحضارة القديمة كما هي فيما يتعلق بحياة الشعب اليومية ولغته ومعتقداته ربما بتغيير طفيف ينحصر في كتابة اللغة المصرية بالأيديوية الاغريقية ودخول المعتقدات المصرية مرحلتها الأخيرة من الأبهام والفساد..

ان الإسكندر الاكبر نفسه رغم انه كان فاتحاً عظيماً لم يجد غضاضة في التودد الى المصريين وآلهتهم ، والظهور بمظهر الخليفة الحقيقي للفراعنة ، فتجده يقدم القرابين الى الآلهة المصرية في معبد بتاح ، ويتوج فرعوناً بكل الالقاب الرسمية التي كان يحملها الفراعنة الفابرون ، ثم يسافر في الصحراء إلى معبد آمون بسيوة رغم مشاغله الكثيرة ومشاق الطريق كي يتلقى الوحي ويستشير الإله في مسألة نسبه^(١).

فالاسكندر لم يجرؤ - والحقيقة انه لم يتصور - أن يقطع خيط التاريخ المصري وانما سلك نفسه في التاريخ القومي للمصريين ، وبعد وفاة الاسكندر عام ٣٢٣ ق. م. تقام قواده امبراطوريته بين ثلاث دول هي دولة البطالسة في مصر ودولة السلوقيين في سوريا وبابل ، ودولة مقدونيا في بلاد الاغريق . ولم يلبث أن حطم البطالسة الوحدة الظاهرية للامبراطورية وأعلنوا استقلالهم علناً ، وتطلعوا إلى اقامة امبراطورية عالمية نواتها مصر .

بل نجد أن بطليموس الكبير الذي تولى الحكم عقب الاسكندر انما تولاه بمقتضى ميثاق يتعهد فيه لكهنة متق برد الاموال التي سلبها منهم الفرس ويتعهد فيه بدفع خطر الفرس عن مصر ، وقد عثر في القاهرة عام ١٨٧١ على هذه

(١) د. ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالسة .

الوثيقة التي تدل على نوع من الشرعية للحكم البطلسي يضع في الاعتبار مشيئة مصر^(١).

ولما كان البطالسة لا يستندون إلى قوة خارجية ولا يمثلون مصالح دولة أجنبية لذلك اضطروا إلى الاعتماد على قوة مصر الذاتية بل واضطروا إلى التقرب من المصريين رغم سياسة التفرقة العنصرية التي حاولوا فرضها بصراحة ضد المصريين الوطنيين .

فقد كان هناك جهد واع في سياسة البطالسة لعدم المزج بين العنصرين الإغريقي والمصري حتى لا يذوب العنصر الإغريقي المتفوق وسط جموع العنصر المصري الغالب فكان الزواج المشترك محرماً بين الإغريق والمصريين ، وكان المصريون لا يتمتعون بحقوق المواطنة الإغريقية بل انهم في مدينة الاسكندرية كانوا يأتون في الدرجة السابعة أي بعد اليهود ، وكان مثقفو الاسكندرية يعكفون على دراسة الفكر الفلسفي الإغريقي لا التراث العلمي المصري بل ان الشعراء كانوا يتغنون بمفاتن الطبيعة الاغريقية التي ربما لم يروها في حياتهم وليست الطبيعة المصرية التي يعيشون في رياضها ، وباختصار كان هدف البطالسة لا سيما في أول عهدهم انشاء دولة اغريقية روحاً ودماء وكانوا حريصين على عدم إيقاظ الروح القومية لدى المصريين وعدم تحقيق وحدة وادي النيل حتى لا تؤدي إلى نقطة قومية ويبدو أن هذا ما يفسر اتجاه فتوحاتهم شرقاً وشمالاً وغرباً لا جنوباً حيث تقهرت الروح المصرية الأصيلة تاركة الأجزاء الشمالية من مصر خالصة للنفوذ الأغريقي^(٢).

ولكن بالرغم من كل هذا الجهد الواعي لاضعاف الروح المصرية فقد ظلت

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية .

(٢) د . ابراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عهد البطالسة .

تلك الروح من القوة بحيث ترغب البطالسة على احترامها والنزول على إرادتها في كثير من الأمور ، فمن الناحية السياسية كان البلاط البطلسي يتسم بالطابع المصري الفرعوني ، فالبطليموس يحكم كفرعون ، ويحيا في قصره حياة الفراغة الأولين ، يحمل نفس الشعارات والرموز ، ويعبد نفس الآلهة ، ويعتمد في حكمه على الكهنة المصريين ويسترشد بأرائهم ، ويرأس مجامعهم ، وفي العهد البطلمية المتأخرة أصبح للكهنة المصريين الحق في منع تنصيب البطليموس بعد أن كان التنصيب واجباً عليهم فحسب ، وفي عهد بطليموس الرابع انتقل البلاط البطلسي بأكمله من الاسكندرية إلى منف مقر الكنيسة المصرية^(١).

ومن الناحية الدينية انخرط الاغريق في سلك الكهنوت المصري ، ودخلت آلهة اليونان المعابد المصرية وآلهة المصريين المعابد الاغريقية ، وظهرت عبارة سيرابيس التي هي مزيج من المعتقدات المصرية والاغريقية بينما غزت عبادة ايزيس المصرية الخالصة كل أنحاء العالم الهليني ، ولكن من الأمور ذات الدلالة ان اقبال الاغريق على الآلهة المصرية كان أكبر بكثير من اقبال المصريين على الآلهة الاغريقية ، بل يمكن القول ان المصريين لم يقبلوا الديانة الاغريقية على الاطلاق ولم يستسيغوا أساطير جبل الأولب .

ومن الناحية الثقافية كانت جامعة الاسكندرية منارة للحضارة في حوض البحر المتوسط ، وكانت مكتبتها العامة تضم ما يقرب من نصف مليون مجلد منها نسبة كبيرة من كتب ومجلات الفكر المصري والتراث الفرعوني ، ومن هذه المنابع نفدت مجموعة من أكبر فلاسفة ومفكري الهلينية .

ولم يفقد المصريون طيلة ثلاثة قرون من الحكم البطلسي احساسهم القومي وقدرتهم على الثورة والتمرد ، وكثيراً ما ظهرت زعامات مصرية وطنية التفت

(١) صبحي وحيدة : في اصول المسألة المصرية ص .

حولها الجماهير ، وكثيراً ما قامت الثورات الدامية في وجه الحكام البطالسة وخاصة بعد معركة رفح عام ٢١٧ ق. م. التي أحرز فيها الجنود المصريون الذين كان يتكون منهم أساساً الجيش البطلسي انتصاراً ساحقاً على جيش السلوقيين الذي كان يتكون أساساً من الجنود الاغريق . والمؤكد أن هناك ثورتين كبيرتين للمصريين في عهد البطالسة الاولى في عامي ٢١٣ - ٢١٢ ق. م. والثانية بين عامي ١٨٩ - ١٨٤ ق. م. وحتى وقت متأخر يرجع الى عام ٨٥ ق. م. نجد ثورة مصرية عنيفة في مدينة طيبة التي كانت بمثابة معقل للروح الوطنية لم تحمد إلا بعد أن خرب البطالسة المدينة ، ووضعوا نهاية أبدية أليمة لتلك العاصمة العتيدة ذات المائة باب .

وقد حرص البطالسة بقدر الامكان على عدم المساس بالعادات والتقاليد والقوانين المصرية ، وكانت بعض القواعد القانونية المصرية أكثر تقدماً من القوانين الاغريقية ومثال ذلك مركز المرأة في القانونين ، فالمرأة في القانون المصري كاملة الأهلية وجوباً وإداء لها أن تتصرف في نفسها وفيما تملك بحرية تامة ، أما المرأة في القانون الاغريقي فقاصر لا بد من وجود وصي شرعي عليها ، وقد أثار هذا الوضع حفيظة الاغريقيات في مصر حيث كن لا يتمتعن بحقوق المصريات اللاتي يروهن دونهن في السلم الاجتماعي ، ونتيجة لذلك اضطر بطليموس الرابع إلى الحد من حقوق المرأة المصرية في الزواج والمعاملات .

وفي أواخر عهد البطالسة بدأ مؤشر القوة يتجه نحو المصريين ، فقد أصاب الاغريق وهن قومي ولم يعودوا مثل أجدادهم في عصر بركليز أو الاسكندر بينما إزداد المصريون قوة بعد أن استردوا أنفاسهم عقب الغزوات المتلاحقة التي قضت على استقلالهم السياسي ، وكانوا يعتزون اعتزازاً واضحاً بحضارتهم القديمة التي كانت أعظم حضارة أخرجت للناس باعتراف الاغريق أنفسهم ، وبدأ الاغريق يتقربون بشكل واضح من المصريين ، فيتعلمون لغتهم ، ويهتمون

بشؤونهم ، ويختلطون بهم في الحياة الاجتماعية ، ويتزوجون منهم حتى لقد ظهر بالفعل عنصر اغريقي مصري جديد ، ومن ناحية أخرى أقبل المصريون على تعلم الاغريقية وتقليد المناصب العامة حتى لقد برز منهم الكثيرون في السلكين المدني والعسكري على السواء ، وصاروا قاب قوسين أو أدنى من المساواة التامة مع الاغريق .

وبوجه عام ظل المصريون طيلة العصر البطلمي يعيشون كما كان يعيش أجدادهم محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ، يعبدون آلهتهم القديمة ويخضعون لقوانينهم القديمة ، يفلح ملايئهم الارض ، ويشتغل ألوفهم بالصناعة والتجارة والحرف المختلفة ، وظل الكهنة المصريون رغم ضياع ارسقراطيتهم القديمة وراثتهم الفاحش محتفظين بتنظيمهم القومي الذي لم يكن أي حاكم يجرؤ على المساس به ، وبرز الكهنة المصريون في الثقافة مثل مانيتون الكاهن السمنوري الذي صنف تاريخاً لمصر أصبح - رغم ضياعه وبفضل المقتبسات القليلة التي بقيت منه - عمدة التاريخ للعصور الفرعونية حتى الآن . وكان المصريون يلتقون في انديتهم أو في بيوت أعيانهم أو في معابدهم ليستمعوا إلى قاداتهم الروحانيين دون أن تتدخل الحكومة في أمورهم بل كانت تضطر إلى النزول عند مطالبهم ، أو كما يقول توينبي لقد حصل المجتمع المصري على تنازلات ملحوظة من سادته الهلنيسين^(١) .

وباختصار يمكن القول انه إذا لم يكن الشعب المصري قد برز كقوة سياسية واجتماعية أولى أثناء العصر البطلمي نتيجة للحكم الأجنبي المعتمد على طبقة ارسقراطية عسكرية أجنبية مسيطرة إلا أن مصر أثرت بقوة دفعها الحضاري وامكانياتها الذاتية الضخمة في شئون سادتها وأحوال العالم المعاصر في ابراز شخصيتها الوطنية وفرض التمصير على يونانييها ، وما وقفة كليوباترا السابقة في

1) Toynbee : Vol. 7 P. 50

نهاية الأمر سوى انتفاضة لروح مصر المستقلة في وجه التوسع الروماني الكاسح، بل إن اختيار كليوباترا الانتحار بلدغة الكوبرا لم يكن محض مصادفة وإنما كان له مغزاه المقصود لأن الكوبرا هي أفعى تاج مصر السفلى وخادمة اله الشمس رع التي تمنح لدغتها الخلود والألوهية ، واختيار كليوباترا لهذا الرمز المصري عند انتحارها دليل على احساسها القوي بمصريتها^(١) .

ونخلص من ذلك إلى أن حكم البطالسة الذي امتد ثلاثمائة عام (٣٣٣ -- ٣٠ ق. م.) لا يعتبر انفصاماً من تاريخ مصر ، وإنما كان مرحلة جديدة دخلتها مصر بعد أن مالت شمس رع للغروب .

* * *

وانتقلت مصر إلى سيطرة روما في عام ٣٠ ق. م. وتم الانتقال بطريقة هادئة أقرب ما تكون إلى طبائع الأمور، لم يكن ما حدث أكثر من استبدال سيد بسيد ، وكانت سيطرة روما على مصر سيطرة سياسية في المحل الأول إذ لم تسبقها هجرة بشرية رومانية كما حدث بالنسبة للسيطرة اليونانية من قبل ، ولم تعقبها هجرة بشرية كما حدث بالنسبة للفتح العربي من بعد ، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يكتفون العلاقة بين روما ومصر بأنها أشبه بالاتحاد الشخصي . فالذي حدث أن أغسطس قيصر توج ملكاً على مصر في الوقت الذي كانت يتقلد فيه حكم روما ، وأصبحت مصر من الأملاك الخاصة للامبراطور الروماني .

ولم يحاول الرومان ولا سيما في أول الأمر أن يغيروا شيئاً من الأحوال

(١) ر. عبد اللطيف أحمد علي : مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الأوراق البردية ص ٢٩ .

المصرية ، ولم يمسا حقوق وأوضاع الطبقة العليسا المسيطرة والتي هي مزيج اغريقي مصري ذات ثقافة هليينية وخليقية مصرية ، وبالتالي لم ترفع هذه الطبقة صوتاً بالمعارضة ضد روما .

وتحت الحكم الروماني فقدت مصر استقلالها الذاتي ورزحت تحت قيود سياسية واقتصادية ثقيلة ، وفقدت الكثير من مقومات حضارتها القديمة ولكن الشعب المصري لم يستكن تماماً للأوضاع الجديدة بل نجده يثور أكثر من مرة في وجه حكامه الرومان مما يثبت استمرار احساس المصريين بتمييزهم القومي الذي لم ينجح في طمسه نهائياً الاستبداد السياسي وغلبة المشاعر العالمية في عالم ذلك اليوم ، فما أن غادر أغسطس قيصر مصر بعد ضمها إلى روما حتى ثار اقليم طيبة معقل الروح الوطنية المصرية وتبعته في الثورة أقاليم أخرى ، وفي عام ١٣٦م اضطر الامبراطور اديان الروماني إلى الحضور بنفسه إلى مصر للاشراف على اخماد الاضطرابات التي كادت تزلزل السلطة الرومانية ، كما ثارت الاسكندرية في عام ١٥٣ م وقتل أهلها الحاكم الروماني ثم ثارت مرة أخرى بزعامة الراهب المصري ايزادور في عهد الامبراطور ماركوس اورليوس (١٦١ - ١٨٠ م) .

لقد كانت مصر أبعد ما تكون عن الشلل والجمود رغم النير الروماني ، فهي بحكم وزنها الحضاري وتراثها الروحي تمكنت من غزو غزاتها في عقولهم ، فقد انتشرت العقائد المصرية في جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية وأصبحت ديانة ايزيس لفترة طويلة ديانة الدولة الرسمية وأقرت في روما بشعائرها المصرية وانشئت لها المعابد في قبرص وصقلية وانطاكية وأثينا وروما وفرنسا وانجلترا والواقع ان انتشار عبادة ايزيس في العالم القديم يرجع إلى ما قبل العصر الروماني بعدة قرون ، فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد بدأت تظهر معابد لتلك الربة المصرية في رودس ولسيوس وتيرا وازمير بل وفي جزيرة ديلوس المقدسة

نفسها ، ثم واصلت انتشارها في العصر البطلمي إلى قبرص وصقلية وأنطاكية وأثينا ، وكان السبب في انتشارها الواسع على هذا النحو انها عبادة غنية بالعمق الروحي مما جعل الرومان المتعطشين لعقيدة روحية يجدون فيها ما لا يجدونه في المذاهب الفلسفية المتناقضة المنتشرة بين المثقفين الهلنستيين ، فأقبلوا على الاغتراف من الفكر الديني المصري المليء بالحنان والطمأنينة والسمو والذي يهب الأمل في حياة أفضل بالعالم الآخر (١) .

وهكذا منحت مصر رغم هوانها وضعفها السياسي العالم المتحضر آنذاك نبضه الروحي وعقيدته الدينية وطمأنينته النفسية ، وكان انتشار عبادة ايزيس على هذا النحو من العوامل التي هيأت الأذهان لتقبل المسيحية إذ كانت للمسيحية رموز مقاربة لرموز ديانة ايزيس فأقنم التثليث المسيحية تشبه الثالوث المصري ايزيس وأوزيريس وحورس ، ومريم العذراء حملت بروح القدس كما حملت ايزيس بروح أوزيريس ، وصورة العذراء مريم تحمل يسوع ما هي إلا نسخة جديدة لصورة ايزيس تحمل الطفل حورس .

وإلى جانب عبادة ايزيس ظلت عبادة معظم الآلهة المصرية القديمة الأخرى مستمرة في مصر ولكنها تدهورت إلى عبادة الحيوان ، ويحتفظ المتحف اليوناني الروماني بالاسكندرية بكثير من الآثار الدالة على تقديس الحيوانات المصرية في العصر الروماني ومنها التمساح (سبك) الذي أقام له الرومان معبداً خاصاً في الفيوم .

وفي مجال الفنون امتزج الأسلوبان المصري والروماني من مزيج واحد ان كان قد فقد اصالة الفن المصري القديم وتجريده إلا أنه احتفظ بآثار جماله الدابل فأصبحنا نرى التمثال أو الصورة الواحدة يجمعان بين الأسلوبين معاً فقد

(١) د. عبد المنعم أبو بكر : ايزيس . صحيفة الاهرام ٢٦ / ٨ / ١٩٦٩ .

يكون النصف الأسفل مصرياً والأعلى رومانياً ، أو الملامح رومانية والشعارات
مصرية كقرص الشمس والجعران والصل والباشق والجناحين .

وتجدر هنا الإشارة إلى أثر روماني يجمع بوضوح بين الأسلوبين المصري
والروماني ذلك هو الطائاكوم أو المقبرة الجمالية الرومانية بحبي كوم الشقافة
بالاسكندرية ، فقد نحتت هذه المقبرة من ثلاثة طوابق في باطن الأرض
الصخرية ، وغرفة الدفن الرئيسية فيها تضم ثلاثة قوابيت حجرية تجمع بين
الأسلوبين المصري والاعريقي في تصميمها وزخرفتها ، وفوق التابوت الأوسط
لوحة تمثل عملية التحنيط على الطريقة المصرية حيث نجد الجثمان مسجى بين يدي
أنوبيس اله الجبانة المصري ذي رأس ابن آوى ، وعند الرأس أوزيريس اله العالم
الآخر ، وعند القدمين ايزيس ناشرة جناحيها الكبيرين ، وتحت الجثمان تصطف
الأواني الكانوبية التي يحتفظ فيها بالاحشاء ، وأسلوب تنفيذ المقبرة مصري في
مجموعه مع لمسات رومانية هنا وهناك فدخل الغرفة الرئيسية على هيئة بوابة
فرعونية تعتمد على عامودين مصريين تزينها نقوش رومانية ، وإلى جانبي الغرفة
تمثالان في فجوتين لصاحب المقبرة وزوجته نصفها الأسفل بالطريقة المصرية
ونصفها الأعلى وبخاصة ملامح الوجه والشعر المجدد روماني صميم . والملاحظ
ان الفنان الذي صنع المقبرة سواء كان مصرياً أو رومانياً أخطأ في عدة قواعد
رئيسية في الفن المصري ، فمثلاً نجد القدم اليمنى للسيدة هي المتقدمة وكان يجب
أن تكون اليسرى ونجد الأواني الكانوبية عددها ثلاث بدلاً من أربع ، وهذا
يدل في حد ذاته على اختفاء الأصالة وتحول الرموز المقدسة إلى مجرد زخارف
شكلية ، ومع ذلك فإن الكاتاكوم أبلغ دليل على أن الروح المصرية ظلت قائمة
في مصر الرومانية تفرض وجودها حتى على الأجانب الذين يحتكرون السلطة
في البلاد ، فإن صاحب المقبرة وهو جاكم أو نبيل روماني يصر على التمسك بهذا
الطابع المصري في مدفنه ، وما كان أغناه عن ذلك وهو السيد المنتمي إلى

طبقة أجنبية حاكمة ، فهل هي قوة اندفاع الحضارة المصرية ما زالت تفرض وجودها حتى على الغرباء ؟ هل هي رغبة من ذلك النبيل الروماني في اصفاء طابع العراقة على نفسه ؟ أيا ما كان الدافع فإن الكاتاكوم – كما يقول جيمس بيكي – يعد نموذجاً جذاباً للذوق الفني في مصر اليونانية الرومانية وللاختلاط الزائد للمؤثرات المصرية والكلاسيكية (١) .

وازدادت شخصية مصر وحنوها في العهد المسيحي البيزنطي ، ويبدو أن اعتناق مصر للمسيحية كان بمثابة جرعة قوية أنعشت الشعب المصري لأن المسيحية كانت ثورة اجتماعية عميقة قلبت المجتمع رأساً على عقب وأدت إلى تقدم الطبقات السفلى تضم الفلاحين والعبيد وأصحاب الحرف وفقراء المدن إلى صدارة المجتمع الجديد كانت من قبل وقفاً على الطبقة الهلينية الوثنية التي حطمتها المسيحية ، وهكذا أصبحت الكنيسة المسيحية في مصر أكثر مصرية من الكنيسة الوثنية المصرية التي كانت قد اتجهت بالفعل اتجاهاً هليينياً عالمياً . أما الكنيسة القبطية فقد اتجهت اتجاهاً محلياً قوياً ، وتحول أساقفة الاسكندرية إلى فراعنة سافرين (٢) .

وهذه هي الخلفية التي تفسر أبعاد النزاع المذهبي الذي شجر بين أقباط مصر وحكامهم البيزنطيين فمن الملاحظ ان المصريين كانوا من أشد الأمم تقبلاً للمسيحية منذ نشأتها الأولى لجهة أسباب ليس أقلها السخط على الدولة الرومانية الوثنية ، فقد وجدوا في هذا الدين متنفساً قومياً لهم ، وجعلوا منه شارة تميزهم عن الجحافل الرومانية التي تجثم فوق صدورهم ، واستعذبوا في سبيله أقصى ألوان الاضطهاد التي بلغت ذروتها في عهد رقلديالوس ، ثم ما أن تحولت الدولة

(١) جيمس بيكي : الآثار المصرية في وادي النيل ج ١ ترجمة لييب حبشي وشفيق فريد ص ٣٨ .
(٢) صبغي رحيدة : في أصول المسألة المصرية .

الرومانية أيضاً إلى اعتناق المسيحية حتى أصبح المصريون من أشد المنكرين
لمذهب الدولة الرسمي .

والقضية الأساسية التي احتدم حولها الصراع بين المصريين وحكامهم
البيزنطيين أو الرومان الشرقيين هي طبيعة السيد المسيح ، فالبيزنطيون يقولون
بوجود طبيعتين للمسيح إلهية وناسوتية ، أما المصريون فقد ثبتوا على القول
بطبيعة واحدة للمسيح هي الطبيعة الإلهية وكانوا يسمون مذهب الطبيعتين
بالمكانية ، وهي كلمة كما يقول توينبي تعادل الامبريالية ^(١) ، أما هم فيسمون
بالمونوفيزيين أي المتوحدين أو اليعاقبة .

وللاستاذ العقاد تفسير زكي لطبيعة هذا الخلاف المذهبي إذ يقول انه يكن
في الاختلاف بين طبيعة الرومان والشعوب الشرقية التي يسيطرون عليها ،
فالقول بالطبعتين يحمل معنى الخلط بين الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية
وهو قول يناسب المعتادين على عبادة الامبراطور قبل مجيء المسيحية ، أما
المصريون وغيرهم من الشعوب الشرقية الساخطة على السيطرة الرومانية فقد
كانت نفوسهم تنفر من عبادة الامبراطور الروماني ورفعته إلى مصاف الآلهة
والمزج بين طبيعة الانسانية وطبيعة الإله ، وبالتالي فقد نفروا من مذهب
الطبعتين الكاثوليكي ^(٢) .

وهكذا كان الصراع المذهبي انعكاساً للصراع الجنسي بين المصريين وحكامهم ،
وكان هدفه الأول الحفاظ على الكيان المصري وحمايته من الذوبان في الكيان
البيزنطي ولكنه لم يكن هدفاً واعياً ولم يناد بالاستقلال الوطني صراحة فتلك

(1) Toynbee, Vol. 7 P 50 Margin 8 .

(٢) عباس محمود العقاد : عمرو بن العاص ص ٢٠٢ .

لم تكن قضية العصر ، ولم يكن القاموس السياسي وقتئذ يعرف معنى أو كلمة الاستقلال .

وكان أسلوب المصريين في مقاومة حكامهم الرومانيين والبيزنطيين سواء في العهد الوثني أو العهد المسيحي هو المقاومة السلبية التي أخذت شكل الرهبنة الفردية والجماعية .

وقد بدأت حركة الرهبنة المصرية في القرون الأولى للميلاد كرد فعل من المسيحيين المصريين لنوبات الاضطهاد التي لقوها على أيدي الأباطرة الوثنيين كراكلا وديسيوس وجالوس وفاليريانوس وجالينوس وبلغت قمتها في عهد رقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) وجالوريوس (٣٠٥ - ٣١١ م) واستمرت حركة الرهبنة بعد انتهاء الاضطهاد الوثني عندما حل محله الاضطهاد المذهبي وخاصة في أيام النزاع بين أنصار اثناسيوس وآريوس ، وكان الهدف منها في الحالتين النجاة بالعقيدة التي تخفي وراءها في الواقع أبعاد الصراع الجنسي والسياسي والفكري بين المصريين وحكامهم الأجانب .

وثمة ما يدل على أن السلطة الرومانية في مصر حاولت استخدام هذا السلاح - الرهبنة المصرية - في عكس هدفه أي بتوجيهه إلى محور مستخدميه ، فقد عمدت أحياناً إلى تشجيع هذه الحركة كوسيلة لإبادة الجنس المصري والخلص من مقاومته السياسية ، ومثال ذلك القانون الذي أصدره قسطنطين الكبير باعفاء الرهبان من الخدمة العسكرية ، وكذلك إعفاء الأعزب ومن لا أولاد له من الضرائب^(١) ، فالهدف في الحالين واضح وهو تشجيع المصريين على الرهبنة وعدم الزواج والانجاب بهدف انقراضهم والتخلص منهم .

(١) د. حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبنة والديرية المصرية ص ٧ .

والجدير بالملاحظة وبما له دلالة خاصة في نفس الوقت - ان حركة الرهبنة القبطية تضرب يحدورها في الديانة المصرية القديمة التي كان يستنكرها أقباط العهد المسيحي أشد الاستنكار، وفي ذلك دليل آخر قوي على استمرارية الخط الواحد في التاريخ المصري ، فالمليل إلى الرهبنة والنسك واضح في تاريخ الديانة المصرية القديمة ، ومثال ذلك ما يبدأ به الفصل الرابع والستون من كتاب الموتى ونصه « هذا الفصل سيقراه رجل نظيف طاهر لم يأكل لحم الحيوان أو السمك ولم يخالط النساء » ونفس المعنى يتكرر في أماكن أخرى من كتاب الموتى ، وكان كهنة ايزيس وأوزيريس يندرون الصوم لألهتهم ويمتنعون عن شرب الخمر وأكل لحوم الحيوان والسمك ، فهذه الاتجاهات النسكية في الديانة المصرية القديمة كانت من العوامل التي سهلت قيام الرهبنة القبطية ^(١) .

ومعروف أن الرهبنة المصرية انتشرت في جميع أنحاء العالم المسيحي ، وأصبحت فيما بعد جزءاً لا يتجزأ من تقاليد الديانة المسيحية بمختلف مذاهبها ، وفي هذا دليل آخر على حيوية مصر ومساهماتها في الاتجاهات العالمية حتى وهي في أشد حالات الضعف والسلبية .

وخلاصة القول ان مصر بالرغم من كل ما فقدته خلال العصر الروماني البيزنطي ، وبالرغم من تحليها عن عقائدها الوطنية [مع انها استمرت نسبياً في الوجه القبلي حتى عصر جستنيان] إلا أنها حافظت على شخصيتها المحلية ، وساهمت بقدر الامكان في ثقافة ذلك العصر وتياراته الفكرية والدينية والسياسية ، لم تذب في محتليها الرومان والبيزنطيين الذين ظلوا بمثابة طبقة قائمة بذاتها تضم الحكام وكبار الموظفين والجند الذين يعيشون في المدن الكبرى أو في مدن خاصة بهم دون أن يجرؤوا على التغفل في أعماق الريف الذي ظل يحيا

(١) المرجع السابق : ص ٨ .

حياته المصرية التي ألفها منذ آلاف السنين ويتحدث لغته الوطنية التي تطورت مع الزمن تطوراً طبيعياً .

وعلى ذلك، لا يمكن اعتبار هذه المرحلة بشطريها الروماني الوثني والمسيحي .
البيزنطي بمثابة انقطاع في تاريخ مصر ، وإنما هي مرحلة ذات طابع خاص من
تاريخ مستمر فيها اندمج المصريون في بوتقة العالمية ولكنهم ظلوا كما هم مصريين
تحت جلودهم يقاومون حكامهم الأجانب بكل ما ملكوا من قدرة على الثورة
والجدل وتحمل الاضطهاد .

* * *

هكذا يمكن القول بوجود خيط عام ينتظم التاريخ المصري منذ أقدم
عصور ما قبل التاريخ إلى نهاية العصر القبطي البيزنطي ، وهو خيط لا تخطئه
العين رغم اختلاف الدول والحضارات التي تقلبت على مصر ، أو تقلبت فيها
مصر ، غير أننا ما أن نصل إلى العصر العربي الإسلامي في القرنين السابع
والثامن الميلاديين حتى نجد فجوة كبرى تفصل بين حاضر مصر وماضيها ليس
من اليسير عبورها وتجاوزها ، فقد تغير المصريون وجدانياً ومادياً وقطعوا
مسلمين وأقباطاً وشائج ارتباطهم بتاريخهم السابق ، وما أن نمضي قدماً من
بجاهل موجة الفل التي اجتاحت مصر تحت ستار الدين حتى نجد الهوة وقد
ازدادت اتساعاً ، فقد تقلبت على مصر شتى الاجناس الآسيوية من مغول وأتراك
وأكراد وجراكسة ومغاربة وارانأوط في صورة حكام وأجناد وقضاة ومثقفين ،
وتواري إلى الخلف شعب مصر الأصيل حتى لا نكاد نعث له بين طيات التاريخ
على أثر بارز أو كيان ملموس . ان مصر التي ألفتها العين سواء مستقلة أو مستعمرة
تبدو كأنها اختفت تماماً الآن وفقدت أي تميز قومي مستقل لقد أصبحت جزءاً
من العالم الإسلامي الفسيح المترامي الأطراف الممتد من المغرب والاندلس إلى
حدود الصين ومن القوقاز والبلقان إلى أواسط أفريقيا ، وهذا العالم قد تمزقه

الحروب والخلافات ، وقد يتوالى عليه الحكام من كل جنس ولون وتنتقل فيه مراكز الحكم من مختلف الأقاليم . ولكنه رغم كل ذلك يبدو واحداً متجانساً مهما بدا من عدم اتحاده لأنه يستمد تجانساً من الدين الإسلامي الذي يعتنقه الكل رغم اختلاف المذاهب والفرق والنحل والملل ورغم عصف رياح السياسة والاقتصاد .

في هذا المناخ الذي استمر أكثر من ألف عام حتى مطلع العصر الحديث يبدو من العسير - وقد يكون من العبث - البحث عن شخصية مستقلة لمصر والمصريين ويبدو كأن الخيط العام الذي نريد له أن ينتظم التاريخ المصري قد انقطع بلا أمل في وصله أو العثور عليه ، فهل ترانا مستطيعين أن نعثر وراء هذا التغير العميق الشامل ، مرة أخرى ، على ذلك الخيط العام الذي يؤكد وحدة واستمرارية التاريخ المصري منذ أقدم العصور حتى الآن ؟

[٤]

رواسب الفولكلور

للإجابة على السؤال المطروح في نهاية الفصل السابق يتحتم علينا أن نقفز عبر التاريخ إلى وقتنا الحاضر لأن ثمة وسيلة بسيطة للغاية يمكن أن نتحقق بواسطتها عما إذا كان خيط استمرارية مصر لا يزال متصلاً أم أنه قد انقطع نهائياً واننا ازاء مصر أخرى ومصريين آخرين لا يمتون بصلة ما إلى مصريي العصور التاريخية الموعلة في القدم .

هذه الوسيلة هي البحث عما إذا كانت ثمة رواسب فولكلورية ما زالت متخلفة من العصور القديمة في العصر الحاضر والمقصود بالرواسب الفولكلورية معناها الواسع الذي يشمل العادات والتقاليد والمعتقدات والمفردات اللغوية والقصص والأساطير أو بمعنى آخر كل ما تعبى الذاكرة الشعبية من معارف ومعلومات ورواسب تمت إلى الماضي ، فنحن بهذه الوسيلة نستطيع أن نتحقق مما إذا كان هناك وعاء واحد يلتزم الذاكرة المصرية أم أن هناك انقطاعاً تاماً في تلك الذاكرة يدل على انقطاع مماثل في شخصية مصر وتاريخها على السواء ؟

لقد لاحظ كثير من الكتاب أوجه التشابه القوي بين كثير من ملامح الحياة

المصرية المعاصرة ومثيلاتها في الماضي (١)

وأول ما يلاحظ من هذا الصدد ان السمات العامة للريف المصري المعاصر لا سيما قبل أن تمسه عصا الثورة التكنولوجية الحديثة تكاد تطابق تماماً سمات الريف المصري القديم من حيث تخطيط القرية ، وشكل المنازل ، وطريقة الحياة اليومية ، والأدوات المستعملة في البيت والحقل ، وأسلوب الزراعة .

فالمنازل في القرية المصرية الحديثة والقديمة على السواء تتكون من طابق واحد أو طابقين ، وتقام من الطوب اللبن الذي يصنع بنفس الطريقة ، وتطل واجهتها بالجير الأبيض أو الملون ، وأمامها نفس المصطبة ولها عدة درجات تصل إلى السطح حيث تجد نفس الصوامع الطينية التي تستخدم في اشعال الفرن ، وهناك ملقفان لجلب الريح الشمالية والجنوبية في أوقات القيظ ، وهندسة المنزل الداخلية كما هي سواء بالنسبة لمنازل القادرين ذات الحديقة والحجرات المتعددة أو بيوت الفقراء التي تقتصر على غرفة واحدة يشترك في سكنها الإنسان والحيوان ، بل ان الاختصاص المقامة من الطين والبوص في الحقول تشبه مثيلاتها القديمة تماماً .

والحقول الحديثة صورة طبق الأصل كذلك من حقول الفراعنة بما تنقسم اليه من مربعات صغيرة يسهل ريها وما يستخدم فيها من أدوات الزراعة

(١) من هؤلاء الكتاب الذين اعتمدنا عليهم في هذا الفصل :

محرم كمال : آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية .

وليم نظير : العادات المصرية بين الامس واليوم .

أحمد رشدي صالح : الادب الشعبي .

د. أحمد عبد الحميد يوسف : مقال بالاهرام في ٢٨ / ٨ / ١٩٦٩ .

Blackman : Winifred S. , The Fellahin of Upper Egypt.

كالحرث والفأس والشاروف والمنجل والمذراة، ومعظم طرق الزراعة والحصاد والتذرية المستخدمة اليوم هي نفسها التي كانت تستخدم منذ آلاف السنين .

وشوارع القرية قديماً وحديثاً متشابهة يمكنك أن تشاهد فيها نفس المناظر ، فالرجال يرتدون نفس الجلابيب الزرقاء . والنساء يتشحن بنفس الطرح ذات الألوان الزاهية ، والأطفال برءوسهم الحليقة إلا من خصلة أمامية تترك للزينة ، وبألعابهم الجماعية والرياضية والبهلوانية التي يمارسونها في الهواء الطلق يعيدون أيضاً صورة من الماضي السحيق كما يعيدها آباؤهم وهم يتخاطبون بالعصي أو يلعبون السيجة .

ويمكنك أن تشاهد أصحاب الحرف والصناعات اليدوية القدماء وقد بعثوا من مراقدهم وأخذوا يزاولون حياتهم اليومية المعتادة إذا نظرت إلى أحفادهم اليوم وهم يعملون في حرفهم اليدوية داخل دكاكينهم الصغيرة ذات الأبواب المفتوحة على مستوى الطريق .

والوشم الذي يزاوله كثير من الفلاحين اليوم يرجع إلى أقدم العصور وربما إلى ما قبل الأسرات ، ولا يزال الرجال ينقشون على جانب جباههم صورة عقاب كأثر لتقديس الصقر حورس ، والنساء ينقشن على أذقانهن علامة نفرتيتي التي ترمز للجمال .

وأدوات الفلاح المعاصر وحرفه اليدوية هي نفس الأدوات والحرف القديمة التي كانت تزاوّل في القرى المصرية منذ آلاف السنين ، فهو يصنع قوالب الطوب اللبن والأواني الفخارية بنفس الطرق والمواصفات ، ويستخدم الروث (الجلة) نفس استخداماته القديم ، ويصنع نفس السلال والمقاطف والذكائب والأقفاص والحبال والأنوال والمفازل ، ويستعمل نفس الحرث والفأس

والشادوف وعروسة القمح والمذراة ، ويحفف خبزه في الشمس ؛ ويقم أسواقه
في الهواء الطلق .

ويقدم محرم كمال هذا التصوير الشعري للتشابه القوي من مظاهر الريفين
الحديث والقديم في كتابه « آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية » فيقول
« ونحن إذا سرنا على جسور القرى نرى صفوفاً من الرجال والماشية والدواب
وهي تسير في الأفق البعيد فتعيد إلى ذاكرتنا مناظر الصفوف الطويلة المشابهة
المرسومة على جدران المعابد والآثار ، وبما يزيد هذه الصورة حركة وقوة حياة
ما نراه يرفرف فوق رؤوسنا من طيور ، فهنا نجد الآلهة المصرية القديمة « نخت »
ترفرف على شكل عقاب ، وهناك يطير الإله « حورس » على شكل صقر
كبير ، وعلى مدى البصر يسير الإله « أنوبيس » على شكل ابن آوى فيختبئ
في الوديان والسهول ، وعند مواطئ أقدامنا نرى « خبر » يسير متمهلاً في
شكل جمل صغير ، وهناك تحت الشجرة الباسقة نرى الإله « خنوم » يرقد
تحت ظلها في هيئة كبش كبير ، وهكذا في كل جانب من جنبات الوادي
وسهوله نرى الحروف والعلامات الهيروغليفية تقفز بيننا ، تذهب وتجيء كأنها
نقوش معبد فرغوني قديم قد عادت إليها الحياة فجأة بقوة ساحر عظيم .

* . * *

وكثير من العادات والتقاليد التي كان يمارسها المصريون القدماء لا تزال باقية
إلى اليوم ولا تكاد تدخل تحت حصر ، منها مثلاً لجوء الزوجة الغاضبة إلى منزل
أخيها ، وعقاب الزوجة الخائنة أو الابنة الخاطئة بالقتل ، وولع النساء بالترين
بالحلي والكحل والشعر المستعار ، والتخلص من شعر الجسد ، وحب الاكثار
من الاولاد ، والتمسك بوظائف الحكومة ، والعزوف عن الهجرة ، والتوسع
في الولائم والأفراح . وكذلك العادات المصاحبة للموسيقى والغناء كالتصفيق
بالأكف ، والطريقة بأطراف الأصابع ، وإظهار الإعجاب بالمغني ، ووضع اليد

على الخد عند الغناء أو تجويد القرآن ، وأدوات الموسيقى كالزمار والدفوف والصاجات ، والزواج المبكر ، وتقاليد الزواج والولادة والرضاع ، وغسل الأيدي قبل الأكل وبعده ، والتطهر بالاغتسال ، والاعتقاد في السحر وفنونه وقدرته على النفع والإيذاء والتحبيب والتفريق ، واستخدام الدمى التي تحرق بالدبابيس وتحرق بالنار ، وتقلد التائم والأحجية والتعاويد ، والاعتقاد في الحسد وأيام السعد والنحس ، وتعليق البصل في الأعياد ، واستخدام طاسة الخضة وإقامة حفلات الزار لطرد العفاريت من الجسد، وتكريم بعض المعبودات القديمة كالشمس والأشجار والقطط والثعابين ، وتعليق التماسيح المهنطة على أبواب المنازل ، ولحرق الذبائح على عتبات المنازل الجديدة ، والوصفات الطبية والعلاج بالعقاقير القديمة كالخردل والثوم وزيت الخروع، والاعتقاد في القديسين والمشايخ المحليين ، والاحتفال بعيد وقاء النيل وليلة النقطة وشم النسيم ، وأكل الفسيخ والبيض والبصل والخس والملانة في الحدائق ، وتناول الطعام على الطبلية في البيوت وصنع كعك الأطفال على هيئة أشكال آدمية ، ومضغ اللبان ، وحرق البخور ، وخضاب الشعر والأيدي والأقدام بالحنة ، وقرع الطبول والصفائح المعدنية عند خسوف القمر ، وفكرة القرين الذي يطابق شكل المولود ويولد معه في نفس اللحظة والاعتقاد بوجود « الأخت » أو القرينة ، وكذلك العادات المتصلة بالحيوان مثل تزيين ثيران التضحية ، وختم الماشية بخاتم محمى بالنار ، وتعليق الأجراس والجلاجل حول رقاب البقر ، والاعتقاد في تقمص الأرواح للقطط ، والرفق بالطيور وتحريم اصطياد النافع منها ، وتسمين الدواجن بطريقة « التزغيط » .. كل هذه ومئات غيرها عادات وتقاليد انحدرت إلى المصريين المحدثين من أجدادهم القدماء ولن تجد نظيراً لها بين الشعوب العربية الأخرى .

أما العادات المتعلقة بالحزن والوفاء فهي من أقوى العادات القديمة التصاقاً بالمصريين المعاصرين بالرغم من أنها مستهجنة من الناحية الدينية، ومن هذه العادات

البذخ في اقامة المقابر والتطرف في اظهار الحزن بالصياح والعويل وحل الشعور ولطم الحدود وشق الجيوب وتعمرية النحور والاثداء وتلطيف الرؤوس والأجسام بالنيلة والطين واستئجار النسوة المحترفات للندب والتعديد . وتدور هذه المراسم المزعجة بينما جسد المتوفي مسجى في فراشه ، ويدخل الأهل والأصدقاء لإلقاء النظرة الأخيرة عليه [كما فعل أخناتون وزوجته نفرتيتي في لوحة شهيرة وهما يلقيان النظرة الأخيرة على جسد ابنتها المتوفاة] ثم يكفن الموت بأثواب عديدة قد يبلغ طولها عشرات الأمتار [في حين أن النبي كفن في بردته] وتفسل ملابسه لتخليص بقايا روحه العالقة بها ، وتصرف الروح بقراءة القرآن أو استدعاء القسس [وكانوا قديماً يستدعون الكهنة] ثم تبدأ مراسيم الجنائز فتشارك فيها النسوة كما كن يفعلن قديماً ، وربما يسير أمامها حملة القماقم والمباخر الذين يشبهون خدم الميت وكهنته في العصور القديمة ، وعند الوصول إلى المقبرة التي تشبه في هيكلها المثلث مثلتها القديمة يذبح حيوان وترش دماءه على عتبة القبر [كما فعل سنوحي منذ أربعة آلاف عام] ويشوى المتوفي في قبره بين العويل والصياح والتلاوة والإنشاد ، وأخيراً يقفل الركب عائداً حيث يمكث الرجال أمام المنزل لتقبل العزاء بينما تنقلت النسوة إلى الداخل ليواصلن عويلهن بين صديقاتهن الجاهلات ، وتخلع النساء حليهن ، ويطلق الرجال ذقونهم ، ويمتنع الجميع عن مظاهر الترف أياماً أو أسابيع [كانت فترة الحداد تستمر سبعة أيام في مصر القديمة وهي المدة التي تستغرقها عملية التحنيط] .

وبعد ذلك تبدأ طائفة كبيرة أخرى من العادات المتصلة بهذا الحدث الجلل كزيارة المقابر في الأعياد بالخبز والكعك والفاكهة وسعف النخيل ، والتصديق على روح المتوفي ، وتلاوة القرآن في المقابر ، وطلب الرحمة والنور للأموات ، ومناشدة قارىء شاهد القبر أن يقرأ الفاتحة على روح المتوفي والاعتقاد بأن

روح المتوفي تعود إلى القبر في أيام (الطلعة) لرؤية الأقارب والأحباب ، كل هذه العادات لها مثيلاتها الحرفية في مصر القديمة .

* * *

ليست هذه العادات والتقاليد فحسب هي ما تبقى من مخلفات مصر القديمة بلي نجد إلى جانبها مجموعة ضخمة من الألفاظ المصرية القديمة لا تزال تنطق كما هي في نفس استخداماتها أحياناً وبتحريف ضئيل أحياناً أخرى لتدل بدورها على وجود استمرارية واضحة في حياة المصريين .

ومن هذه الألفاظ مجموعة من أسماء الأشخاص لا تستخدم فقط بطريقة واعية بفرض أحياء القديم كرمسيس ومينا وتحتمس وأحمس ورامس ، وإنما تستخدم كذلك بطريقة غير واعية وعلى نحو مستمر رغم نسيان معناها الأصلي ، ومن هذه الأسماء بانوب (أي عين الاله انوبيس) وباهور (عين الاله حورس) وتايديس (خادمة ايزيس) وباخوم (عين تمثال الاله) وبشاي (عبد الله) وآدم (اتوم) وماري (مري ألي المحبوبة) وسويرس (من ساور أي الرجل العظيم) .

ومن هنا كذلك أسماء الشهور القبطية القديمة التي لا تزال مستخدمة في الزراعة وتحمل نفس اسمائها وخصائصها القديمة إلى اليوم ، وهي : توت (شهر الاله تحوت) وبابه (عين أمون) هاتور (شهر صخور) كباك (شهر كاهاكا أي اجتماع الأرواح) طوية (عيد القمح) أمشير (شهر اله الريح والعواصف) برمهاث (نسبة للفرعون امنحات) برمودة (شهر رنودة الهة الحصاد) بشنس (شهر بن خلسو اله القمر) بثونس (با أوني أي عيد جبانة وادي الملوك) أبيب (عيد الاله أبيي) مسرى (مس. را = ابن رع) .

ومن هنا طائفة كبيرة جداً من أسماء المدن والقرى التي بقيت كما هي أو

قليلا ، فمن الأسماء الباقية كما هي دون أدنى تحريف : طرة . بسيوت .
صهرجت . شطاخوف . دقرة . طوخ . شبرا . شبراخيت . شبراريس .
شبرامنت . مطاي . طهطا . قوص . كوم امبو . بلامون . باويط اسنا .

ومن أسماء الأماكن المحرفة قليلا : أثر النبي (هاتور نتوق أي معبد حتحور
الذهبية) حلوان (حر . أرن أي المدينة التي تعلق أون وهي عين شمس)
الفرما (بر . مساعت أي معبد الالهة ماعت ربة العدل والفضيلة) رمهور
رمى . ن . هور أي مدينة الاله حور) الزقازيق (جقاجيق بالقبطية) بلبيس
(بر . بيس أي معبد الاله بس اله المرح والسرور) تل بسطه (بر . بايسته أي
معبد الالهة بابست القطه) أبو صير (بر . أوسير أي معبد الاله أوزير) سنهور
(سا . ن . هور أي ابن الاله حورس) بهيت (بر . هيت أي معبد الأعياد)
بنا (بنهاو بالقبطية) بلاق الدكرور (بلاق . دكرور أي جزيرة الضفادع)
سقارة (نسبة للاله سكر اله الجبانة) الفيوم (بي . يوم أي الأرض المغمورة
بالماء) ميدوم (بر . آتوم أي معبد الاله آتوم) اهنا (هلسو بالهيوغليفيه
وهناس بالقبطية) المنيا (منت أو الميناء) اوشمونين (شمنو أي مدينه الالهة
الثانية) ملوى (منلوى بالقبطية) أسيوط (سيوط ومعناها الحارس) اخيم
(خم . مين أي مدينة الاله مين) طما (حت . طمت) دندرة (تندرر
بالهيوغليفيه وتنثرة بالقبطية) قفط (جبتو بالهيوغليفيه ومنها اسم القبط واسم
مصر باللغات الأجنبية) أرمنت (بر . منت . أي بيت الاله منتسو) ادفو
(ادبو بالقبطية) اسوان (سوون أي السوق بالهيوغليفيه) التوبة (نتوب
أي أرض الذهب) .

والى جانب ذلك هناك تعبيرات كثيرة لا تزال نستخدمها في حياتنا
اليومية وليس لها أصل عربي وإنما أصلها قبطي وفرعوني ولكنها لا تزال قوية
وموحية من اللغة العامية الدارجة لتسدل بدورها على الاستمرارية في حياة

المصريين . من هذه التعبيرات كلمة دميرة التي لا يزال يستعملها الفلاحون إلى اليوم ومعناها فيضان النيل وحسب أي بشر أو عين ماء ، وفي أي مجرى أو قناة ، وبعبع وأصلها بوبو وهو عفريت يخيف الأطفال ، وبخ أي عفريت أو شيطان ، ومم وهي موم أي طعام ، وامبو ومعناها شراب ، وننه وهي دعوة للنوم ، وثاتا ومعناها امشي ومنها اسم نفرتيتي وترجمته الجميلة تتهادي ، وطظ فش وهي توس فيش أي الشيء اليابس أو المكسور الذي لا يشمر ، وابن الايه أي ابن البقرة ، ويتليس وهي مشتقة من الكلمة الفرعونية ليس أي طين ومنها لوصة أي وحل ومنها تعبير هيلايضا الذي يستخدمه المراكبية إلى اليوم وترجمته هيا فخرج من الوحل ، وكلمة يهيص مشتقة من مه . يص أي سرعة أو قفز بلا نتيجة ومنها مهبصة ومهباص وهو الرجل الكثير الحركة بلا انتاج ، وسباب جاك أو أي جاءك الويل أو الحسرة ، وجاك طمسة أي فلتدفن لأن الطمسة هي الدفن ومنها فول مدمس أي مطموس أو مدفون ، وببية هي برغوث ، وحمراً أي غش في اللعب ، وعنتيل وهو القوي من الكلمة الفرعونية انتوري ومنها أيضاً الكلمة اليونانية قنطورس وهو حيوان قوي برأس انسان وجسد ثور ، وخن كلمة قبطية معناها داخل ، ومشرشر أي مكسر ، ومخلخل أي مخلع ، ومخخم أي ساخن ، ويشطف أي يغسل الملابس من الكلمة الفرعونية ايشتوفو ومنها طشت وهو آنية الغسيل ، ويشطح أي يدرك ، وخم وتستخدم للدلالة على التفضيل نتيجة للتجهيل ويقال انا آنحيت أي فضلت شيئاً على شيء باعتباره خطأ انه الأحسن ، ونونو أي صغير ، ويولول من ويلويل أو ولولة وهو النوح والبكاء ، ويشنشن أي يرن أو يطن ، وصهر اي نار أو لهيب ، ونجرة أو نقرة الشمس من نج . رع أي شمس شديدة ، وشأشأ من شاهشا أي سطع أو اضاء ، ويوش اي يصدر صوتاً رتيباً ، وباش اي لان أو طرى ، وبوس اي سلب او نهب ومنها راح بوش أي راح بلا ثمن ، وكوش أي تركه

لا يملك شيئاً ، ويبشش أي يندى الثرى ، وأمان وأمين هما تحريف أمون ،
ورخ أي نزل المطر أو الماء ، وياما من أما بمعنى كثير ، وكاني ماني أي سمن
وعسل أما دكان الزلباني فهو دكان البقال ، وحانا باتا أي لحم وعظم ويقال نزل
على الأكل حنتك بقتك أي لم يترك منه لحماً أو عظماً ، وليلي يا عيني أي افرحي
يا عيني وقد وردت في انشودة العذراء مريم ومطلعها بالقبطية : ليلى أودي
برتينوس اي افرحي ابتها العذراء .

ويقدر محرم كمال عدد الكلمات الفرعونية والقبطية المستخدمة في لغتنا
الدارجة بالمئات ان لم يكن بالآلاف أصلاً أو اشتقاقاً أو ترجمة صرفية وهي
تكثر في مجالات الحياة اليومية المختلفة ولا سيما في الأعمال المزاولة من قديم
والعادات القديمة المتوارثة .

* * *

يقول أحمد رشدي صالح في كتابه « الأدب الشعبي » :

« الواقع ان الأدب القبطي العامي واللغة الدارجة القبطية مازجا الأدب
العربي واللهجات العامية العربية ، واستوى من ذلك مزاج عربي قبطي ، أو قل
استوى مزاج قبطي اسلامي وهذا يصدق على الشكل والمحتوى سواء بسواء ،
ولو اردنا أن نشير إلى المحتوى - أي المعتقد الشعبي - أيام العهد الإسلامي لما
استطعنا إلا أن نجده مكلاً للمعتقد الشعبي الفرعوني وان كان مكلاً له في وجه
جديد ، وكما أن المصريين أخذوا المسيحية ديناً رسمياً دون أن ينبذوا فعلاً
تصوراتهم الوثنية السابقة فكذلك أقبلوا على الإسلام يعتنقونه ولا يتخلون عن
تلك التصورات بل غالباً ما كانوا يذيعونها ، وما يقال عن المعتقد الشعبي يقال
عن أصول المعارف الشعبية وكذلك السلوك الاجتماعي وقضايا الأخلاق وكافة
ذلك الصراع المتعدد الجوانب .

ويضيف : إذا كنا نؤرخ لأدبنا الشعبي الشفاهي باستخدام العامية في مصر فالواقع ان جذوره أقدم من ذلك بكثير وانها ترجع إلى الأدب الشعبي المصري الفرعوني القبطي في اطواره السابقة .. وخطوطه المستشرق أويستروب التي يعتبرها البعض أقدم نص عامي مكتوب فيها مزيج من مفردات العاميتين القبطية الصعيدية والعربية الدارجة ، ومؤدى ذلك ان الكتبة والصناع والفنانين كانوا في المرحلة الأولى الطويلة اقباطاً مزاجاً أو اقباطاً رسمياً ودينياً .. وكذلك حدث تزاوج بين الروح الإسلامية وبين الفن القبطي ، فالزخارف الإسلامية المكونة من الخط والنقطة كان موطنها الأول مصر ويوجد مصحف بدار الكتب المصرية يرجع إلى أوائل القرن الثاني الهجري وبه زخارف قبطية ، وهناك رق مكتبة جوتا بمدينة ميونيخ الذي يتضمن صفحة من القرآن وبه أشرطة بين السور تتضمن زخارف قبطية ، ومعظم زخارف جلود الكتب الإسلامية الأولى بمصر بها زخارف ذات طابع قبطي والتواريخ عليها على أساس الكتابة القبطية (١) .

كما تناقلت الذاكرة الشعبية جيلاً بعد جيل قصصاً وأساطير وخرافات تعود إلى مصر القديمة أو تدور حول أحداث سحيقة أو تتعلق بآثار مصرية قديمة .

وقد سجلت وينفريد بلاكان في كتابها عن فلاحى مصر العليا بعض هذه القصص التي لا يزال يحكيها قصاصو القرية المحترفون ومنها قصة : شاه إيران وابنته والبقرة الذهبية وهي تشبه إلى حد كبير قصة منقرع وابنته والبقرة الذهبية التي سجلها هيرودوث نقلاً عن المصريين . وتقول القصة الحديثة ذات الأصل القديم ان ابنة شاه إيران الجميلة احتالت للتهرب من عزم أبيها الزواج منها بأن صنعت بقرة ذهبية واختبأت في جوفها ، وباع شاه إيران البقرة

(١) أحمد رشدي صالح : الادب الشعبي ص ٥٢ - ٥٣ .

الذهبية وهو يحبل ما فيها إلى ملك الهند الذي اكتشف أمر الفتاة وأحبها وقرر الزواج منها عندما تسنح الفرصة ، وحدث ان سافر ملك الهند لبعض شؤنه في الخارج وطلب من أمه أن تقدم كل يوم الطعام للبقرة وتتركها وحيدة وشأنها ، ولكن بنات عمه الشريرات - وكن يطمعن في الزواج من الملك - يكتشفن أمر الفتاة ويحتلن على أم الملك حتى يأخذن البقرة ويوقدن ناراً تحتها فتخرج منها الفتاة ثم يضعن الفتاة في صندوق وبلقين به في اليم فينشله شيخ صياد يأوي الفتاة في أسرته ، وعندما يعود الملك ويكتشف ضياع البقرة الذهبية يصيبه الحزن البالغ ، أما الفتاة فقد كانت تنسج المناديل وتعطيها للصياد الشيخ لبيعها والارتزاق منها ، وطلبت الفتاة من الصياد أن يبيع منديلًا معينًا للملك نفسه ، وعندما وصل المنديل إلى يد الملك قرأ عليه ما نقشته الفتاة عن أمرها ومكان وجودها فبعث في احضارها واجتمع شمل الحبيبين وبطش الملك ببنات عمه الشريرات (١) .

وهناك قصة شعبية أخرى تحكيها عجائز الفيوم عن مغامرات أحد الشطار وهي تماثل حرفياً القصة الفرعونية التي سجلها هيرودوت عن اللصين اللذين أسر لهما أبوهما قبل وفاته بسر الدخول إلى خزائن الملك عن طريق حجر مسحور يسهل تحريكه وحين يكتشف الملك انتقاص جواهره مع أن باب الخزائن مقفل واختامه سليمة يأمر بصنع فخ يوضع في حجرة الكنوز ، ويأتي اللصان كالعادة لسلب مزيد من الجواهر فيسقط أحدهما في الفخ ولكنه يطلب من أخيه أن يقطع رأسه ويأخذها معه حتى لا يتعرف عليها الملك ، وفي الصباح يكتشف الملك - لحيرته الشديدة - جثة بلا رأس قد أمسك بها الفخ ، فيأمر بتعليق الجثة في السوق حتى يكتشف أحداً من أقارب اللص إذ وجدده يبكي بالقرب ، وتطلب أم اللصين من ابنها الحي أن يحضر جثة أخيه فيحتال على

(1) Blackman : Wingred : She Fellahin of Upper Egypt P 272 .

ذلك بأن يدفع حراس الجثة إلى احتساء كمية كبيرة من الخمر كان يحملها فوق حمير ، ويتظاهر بأنها تسيل منه على الأرض ، وعندما ينسام الحراس من فرط السكر ، يفك اللص جثة أخيه المقطوعة الرأس ويحملها عائداً إلى أمه ، وتزداد حيرة الملك ويقرر القبض على اللص معها كان الثمن فيضع ابنته في مأخور ويطلب منها أن تعرف بمن يتردد عليها أبرع واخبت ما فعل في حياته ، وأن تمسك على الفور بمن يخبرها بهاتين المغامرتين ، ويحضر اللص اثناء الليل ويقص على ابنة الملك مغامراته وعندما تهم بالامساك به يضع في يدها كفاً مقطوعة كان قد أحضرها معه لهذا الغرض ، ويتسلل هارباً تحت جناح الظلام ، وهنا تزداد دهشة الملك واعجابه باللص الشاطر فيعلق العفو عنه ويؤوجه من ابنته (١) .

وتدل هاتان الحكايتان - وربما هناك كثيرات غيرهما - على أن ذاكرة الشعب المصري تحتفظ بحكايات فرعونية قديمة لا تكاد تفقد تفاصيلها القديمة رغم مضي آلاف السنين ، وهذا دليل على أنها ذاكرة تضرب في أعماق الماضي البعيد وان التراث القديم يتناقل شفاهة عبر الأجيال (٢) .

أما الأساطير والخرافات التي تدور حول مصر القديمة وآثارها العجيبة ولا يزال يتناقلها المصريون إلى اليوم فهي كثيرة ومتواترة ، وقد أورد بعضها محرم كمال في كتابه « آثار الفراعنة في حياتنا الحالية » .

فهناك اسطورة « الذهبية العجيبة » التي يحكيها أهل الاقصر ويؤمنون فيها

(١) هذه القصة أوردها شوقي عبد الحكيم في الملحق الادبي لصحيفة الاخبار ١٩٦٩/٦/٢٩ وعقد مقارنة بينها وبين قصة هيرودوث تدل على التشابه المطلق بينها .

(٢) راجع أيضاً د. لويس عوض : اسطورة أوريس والملاحم العربية وفيها يثبت ان ملحمة الزير سالم تحمل آثار اسطورة ايزيس وادزيريس .

ان سفينة ذهبية تظهر في بعض الليالي القمرية على سطح البحيرة المجاورة لاطلال معبد الكرنك وعليها ملك من الذهب الخالص يحف به بحارة من الفضة ، وتشق طريقها على سطح البحيرة مخلفة وراءها ذبلاً من الاحجار الكريمة ، والسعيد من يصادف هذه السفينة ويتتبعها في صمت وهدوء حتى ترسو إلى الشاطئ فيقفز اليها في غفلة من قائدها ويغترف من كنوزها ما يشاء ، أما إذا أبدى حركة أو صوتاً يجعل ركاب السفينة يفتنون إلى وجوده فسوف تضيع فرصته النادرة إذ تختفي السفينة الذهبية فوراً تحت سطح الماء .

فهذه الاسطورة اثر باق من الاحتفال بعيد الاله آمون على صفحة البحيرة المقدسة المجاورة لمعبده حين كان الكهنة يحملون تمثال آمون المصنوع من الذهب الخالص ويخرجون به من قدس الأقداس حيث يضعونه في السفينة المقدسة التي يركب فيها أيضاً الملك وكبار حاشيته وكهنته ، ويقومون بجولة في أنحاء البحيرة المقدسة بين الترتيل والانشاد .

ونفس الاحتفال القديم بآمون يكاد يتكرر كل عام بتفاصيله حتى الآن وذلك في الاحتفال بمولد أبي الحجاج الولي الإسلامي حامي الأقصر والمتخذ مقامه بين أطلال معبد الأقصر ، إذ يوجد في هذا المقام قارب أو سفينة صغيرة يحملها الناس على اكتافهم في عيد أبي الحجاج الذي يوافق ليلة النصف من شهر شعبان المكرم ويطوفون به في عربة ذات عجلات في انحاء الأقصر ، فالرموز الحديثة المستخدمة في الاحتفال بأبي الحجاج توحى بالرموز القديمة المستخدمة في الاحتفال بآمون كالقارب المقدس والقيام بجولة في المدينة ، والاحتفال الشعبي وما يتخلله من غناء ورقص وعبث وشراب ، وإذا لاحظنا أن في مصر مئات بل آلاف من الأولياء المحليين ولكن لا يحتفل بهم نفس احتفال أبي الحجاج ولا تعد لهم زوارق كزورقه أو تقام لهم مواكب كموكبه قوي الدليل على أن احتفال أهل الأقصر بأبي الحجاج استمرار لاحتفال أهل طيبة بآمون ، وفي بعض نقوش

جدران معبد الأقصر ما زلنا نرى كيف كان يحتفل بمهرجان الاله آمون في الماضي فقد كان الكهنة يحملون تمثاله في قارب صغير على اكتافهم ثم يضعونه في السفينة المقدسة الكبيرة الراسية أمام المعبد حيث تنقله إلى معبد الكرنك وبحيرته المقدسة ، ويشارك في المهرجان النبلاء والجنود وقد رفعوا الأعلام والبنود ، والناس من حولهم يبتهجون ويرقصون بينما يعرض اللاعبون والمهرجون ألعابهم وفنونهم ويعزف الموسيقيون على آلاتهم .. وجميعها مناظر تكاد تتكرر حرفياً في مهرجان أبي الحجاج إلى اليوم .

وعلى مقربة من معبد الكرنك يوجد معبد قديم للاله بتاح اشتهر بين سكان الأقصر بأنه مقر غولة فظيعة تفترس الأطفال ، وتأكد لديهم هذا الاعتقاد المجهول المصدر عندما انهار جرف اثناء بعض أعمال التنقيب بالقرب من المعبد ودفن تحته سبعة أطفال صغار لم تظهر جثثهم أو عظامهم بعد ذلك على الإطلاق ، وكان الأهالي لشدة اعتقادهم في صحة خرافة الغولة يتحاشون المرور بهذا المكان قدر امكانهم فإذا اضطروا إلى ذلك اعتزلتهم رعشة الخوف وتمتموا بالتعاون ، وظل أصل هذا الاعتقاد مجهولاً حتى كشفت الحفريات الحديثة عن تمثال هائل للالهة سخمت ذات رأس اللبؤة والسحنة البشعة داخل ذلك المعبد . وسخمت هي التي وكل إليها رعب في الاسطورة القديمة مهمة افناء الجنس البشري عندما ازداد فساداً وشروراً فأغرقت سخمت البلاد في الدماء وأعملت في الناس القتل والفتك ، ولذلك ظلت مرهوبة إلى الآن كما أظهرت أسطورة الغولة قاتلة الأطفال ، ولك أن تتصور مدى الرعب الذي عقد السنة عمال الحفائر الأقصريين وهم يخرجون تمثال الغولة « سخمت » من تحت أطباق الثرى .

وفي قفط كانوا يرددون اسطورة أثبتها المقرئ في خططه تتلخص في أن المعبد الفرعوني المقام في هذه البلدة تتولى حراسته فتاة سوداء تحمل على ذراعها طفلاً صغيراً أسود مثلها ، وترى هذه الفتاة في الليالي القمرية ترتاد جنبات المعبد وفنائها حاملة طفلها .. هذه الفتاة الاسطورية ليست في الحقيقة

سوى ايزيس تحمل طفلها الرضيع حورس إذ ان قفط وهي كبتوس القديمة كانت محلاً لعبادة الربة ايزيس وفيها معبدها .

أما أهالي دندره فيرددون اسطورة اخرى عن المعبد الفرعوني هناك تتلخص في أن احد الملوك القدماء أودع أمواله وذخائره في ثقب داخل هذا المعبد وأقام على حراسته بقرة عظيمة لا تزال ترى إلى اليوم وهي تتنقل في أرجاء المعبد اثناء الليل لتراقب كنزها الخبوء ، ورغبة في سبك الاسطورة يضيفون ان فلاحاً معيناً - يحددون اسمه - استطاع أن يغافل البقرة وينتهب بعضاً من هذا الكنز ولكنه لم يستفد بما أخذه إذ غاص في أرض بيته ولم تستطع يداه أن تصل اليه ، ولكن بغض النظر عن هذه التفاصيل يمكننا أن نرى بوضوح ان هذه البقرة الاسطورية ليست أيضاً إلا ظل البقرة المقدسة حتحور التي اقيم معبد دندرة مركزاً لعبادتها وترى مرسومة على جدرانها .

وفي بلدة أتريب وكانت قديماً مركزاً لعبادة الصقر حورس توجد أسطورة مماثلة أوردتها المقريري أيضاً عن حمامة بيضاء تحوم فترة من الزمن حول مذبح أحد الأديرة القديمة في يوم معين من السنة .. هذه الحمامة ليست سوى الصقر حورس .

ونفس الخرافة تتكرر عن معبد خنسو بالكرنك والبوابة البطلمية الضخمة المقامة أمامه ، إذ يقال ان قزماً خيفاً يعيش فوق البوابة ذا خلقة مشوهة وقامة قصيرة ممثلة وله وجه عريض وعينان براقتان وأنف افطس ولسان متدل وذراعان طويلان تصلان إلى الأرض ، والأهالي يرهبونه بشدة ويتجنبون المرور بالقرب من البوابة ليلاً لأن هذا القزم إذا احتاج أخذ يرسل صياحاً خيفاً ويصب شروره على الجميع من أناس وحيوان . هذا القزم ويسمونه « عيط الله » ما هو إلا صورة طبق الأصل للمعبود المصري القديم « بس » ذي اللسان المتدلي

والذي أقيمت البوابة تكريماً له ، وقد ظلت ذكراه عالقة بأذهان الناس آلاف السنين بعد أن نسوا كل شيء عن أصله .

* * *

إلى جانب مثل هذه الرواسب الفولكلورية المتنوعة المتخلفة عن العصور المصرية القديمة نجد أيضاً أن المصريين المحدثين يحملون الواناً من الفنون والمهارات توارثوها جيلاً بعد جيل عن أجدادهم الفراعنة .

يقول أدولف ارمان أن أغاني الفلاحين والمراكبية التي تتردد اليوم بين الحقول الخضر وعلى صفحة النيل كان يرددها من قديم الزمان فلاحو مصر الفوعونية وملاحوها ، ويكفي دليلاً على ذلك أن الموال المصري بمعانيه والحنان يعتبر نسج وحده في العالم العربي ، فمن أين جاءته هذه الخاصية ان لم تكن ميراثاً تتناقله الأجيال ؟ ويقول أدولف ارمان : ولست أدري ما إذا كانت التفتحة الأنفية المعنية التي تصاحب هذه المواويل والالحان هي أيضاً ميراث من العصور القديمة ، ولكن من المؤكد أن حالة البهجة التي تصاحب الغناء هي نفس ما كانت عليه في الماضي (١) .

ومن الوان المهارات القديمة التي نجدها في المصريين المحدثين تلك المقدرة غير العادية على تحريك الأشياء الثقيلة وحملها باليسير من العون الآلي ، وتظهر هذه المقدرة بوضوح في عمال البناء والتنقيب عن الآثار رغم اعتلال صحتهم وضعف بنيتهم . يحكي عالم الآثار المرحوم محمد زكريا غنيم (٢) أن صديقاً انجليزياً أخبره كيف كان يراقب في دهشة وفزع محاولة نفر من الأحداث المصريين الأقوياء الذين يرتدون الجلابيب نقل تمثال هائل من الجرانيت في متحف الآثار المصرية ،

(1) Adolf Erman : The Literature of ancient Egypt P. XXVIII

(٢) محمد زكريا غنيم : الهرم الدفين ص ٦٤ .

كان هذا التمثال تبلغ زنته مائة طن أو أكثر ولكن الفلمانيون المصريون تكالبوا على التمثال بأدواتهم البسيطة التي لا تعدو قطعاً من الحديد والخشب والحبال ومع صيحاتهم وتنهداتهم تأرجح التمثال بينهم وبدأ يتحرك معهم . كان هذا فناً قديماً جاء من السلف ، وهـل يعجز أحفاد من حملوا صخور الأهرام على اكتافهم العارية عن زحزحة تمثال ؟

* * *

يقول الدكتور حسين مؤنس ^(١) « ولعل بلداً من بلاد الأرض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، فإن مصر التي ولدت منذ نحو خمسة آلاف سنة لا زالت هي بعينها اليوم لم يتغير فيها الدين على طول هذه الاحقاب إلا مرتين ولم تتغير اللغة إلا مرتين أيضاً على حين أن بريطانيا مثلاً لا يبعد تاريخها إلى أبعد من ألفي سنة تغير الدين خلالها مرتين واللغة أربع مرات على الأقل ، واسبانيا يرجع تاريخها إلى ألفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها ثمان مرات واللغة ست مرات ، أما جنسنا فلم يتغير في جملته خلال هذه الأعصر إلا تغيرات طفيفة في حين أن بلداً كإيطاليا تعاقبت عليه أجناس كثيرة غيرت عنصر السكان تغييراً هاماً أكثر من مرة ونتيجة ذلك ان طبيعة الحياة في مصر وجوهرها لم يختلفا كثيراً رغم هذه الاحقاب المتطاولة بل ان العين تقع اليوم على شاهد كانت موجودة كما هي اليوم أيام الفراعنة » .

ويفسر الدكتور جمال حمدان سبب هذه الاستمرارية بسيطرة ظروف طبيعية معينة على حياة مصر في مختلف العصور ، فهذه الظروف ترسم خطط ادارة البلاد واستغلال مواردها على نحو واحد تقريباً ، ولذلك فان أعمال أي من الفراعنة أو السلاطين أو الحكام تتكرر فيما عدا الأسماء والتواريخ ، ونمط

(١) د. حسين مؤنس : مصر ورسالتها ص ١٢٢ - ١٢٣ .

الحياة والزراعة تمثل وحدة الحياة على ضفاف النيل (١) .

وقد لاحظ المؤرخ العالمي أرنولد توينبي نفس هذه الملاحظة في مقارنة عقدها بين محمد علي الكبير حاكم مصر وبين بطرس الأكبر حاكم روسيا ، وأشاد فيها باهتمام الأول بالزراعة وهاجم اهتمال الثاني لها ، غير أنه لم يلبث ان استدرك قائلاً ان ظروف مصر الطبيعية هي التي دفعت محمد علي إلى الاهتمام بالزراعة ولو كان الرجلان قد استبدلا مركزيهما لكان بطرس الأكبر - كحاكم لمصر - قد أبدى نفس الاهتمام بالزراعة ، وكان محمد علي - كحاكم لروسيا - قد أهملها !

ونفس ذلك يقال عن الحكم المركزي الذي كان نتاجاً للبيئة الطبيعية المصرية ، فقد أدت ظروف مصر الطبيعية إلى قيام دولة مركزية في وادي النيل طيلة خمسة آلاف سنة ولم ينفرط عقد وحدتها القومية إلا في فترات استثنائية نادرة وقصيرة للغاية خلال هذا الزمن الطويل .

(١) جمال حمدان : شخصية مصر (الكبير) ص ٤٧٨ .

[٥]

الاستمرارية الجنسية

رأينا في الفصل السابق دليلاً على استمرارية الشعب المصري في بقاء ذخيرة كبيرة من الرواسب الفولكلورية التي لمجحت في تحدي الزمن حتى الوقت الحاضر . وقد جاءت الابحاث الانثروبولوجية الحديثة لتؤكد وجود استمرارية نسبية ولكنها واضحة ، للشعب المصري .

ولكن ينبغي التنبيه منذ البداية إلى ان ذلك ليس معناه أن الشعب المصري جنس مغلق على ذاته ، فلا وجود للاجناس النقية إلا في غيلة دعاة الفلسفات العنصرية ، والمصريون أولاً وأخيراً ومنذ أقدم العصور حتى الآن جزء من المحيط البشري الموجود لهم ، وهو المحيط الذي يضم سلالات البحر المتوسط ومن أبرزها العنصر العربي السامي ، وكان المصريون يتفاعلون باستمرار مع هذا المحيط ، ولكن المقصود بالتحديد عند الحديث عن الاستمرارية الجنسية وجود انتماء مباشر بين غالبية المصريين المحدثين وبين أجدادهم القدامى الذين أقاموا صرح الحضارة الفرعونية على ضفاف النيل .

وكثيراً ما تختلف الآراء في تحديد أصل المصريين القدماء فالبعض يرى انهم من الجنس السامي ، وآخرون يرجعون الأصل الحامي أو اللوبي . وثمة آراء

أخرى تتضارب في نسبة المصريين الى مختلف الأجناس ابتداء من أقصى الشرق الآسيوي إلى أقصى الغرب الأوروبي ، بل ان بعض علماء الأجناس يقارنون بين المصريين القدامى وسكان أمريكا الجنوبية الأصليين الذين نزحوا اليها من شمال شرقي آسيا عبر ممر بهرنج . والرحالة دينون الذي زار مصر عام ١٧١٠ يقول أن المصريين من أصل أوروبي موغل في القدم ، والواقع كما يقول عالم الأجناس الطبيب اليوت سميت انه ليس هناك مكان في العالم لم يسدع عنه كاتب أو آخر انه مصدر قدماء المصريين^(١).

غير انه من المؤكد ان السلالة التي عمرت مصر في مطلع عهد الاسرات ترجع اصولها في وادي النيل الى عهد يسبق ذلك ببضعة آلاف من السنين ، وانها استقرت فيه خلال العصر الحجري الحديث واشتغلت بالزراعة وتربية الحيوان ، وهذه السلالة تنتمي الى سلالات البحر المتوسط التي تتميز باستطالة الرأس واعتدال القامة^(٢).

وقد استقرت الآن معظم الآراء على ان الطراز المصري الأصيل يرتبط بأوثق أواصر النسب والتقاليد المشتركة مع سكان ساحل شرق أفريقيا جنوباً إلى مضيق باب المندب من جانب وسكان ساحل أفريقيا الشمالي من جانب آخر ، وان التأثير العربي أو السامي من شبه الجزيرة العربية لم ينقطع عن مصر في مختلف العصور وبخاصة في العصور الموعلة في القدم قبل عهد الاسرات . وجاء هذا التأثير عن طريق شبه جزيرة سيناء أو باب المندب أو وادي الحمامات في بعض الآراء أو عن طريقها جميعاً في آراء أخرى .

1) Elliot Smith : The ancient Egyptians and the Origin of Civilization P. 40.

(٢) د. سليمان حزين: تاريخ الحضارة المصرية ج ١ فصل البيئة والانسان والحضارة في وادي النيل ص ٢٨ - ٣٠ .

ويذهب اليوت سميت الى ان العرب الاصلاء والمصريين القدماء يتون الى أصل مشترك واحد كان يسكن كل المنطقة التي يفصلها البحر الاحمر ثم انقرض كل منها بخصائص معينة من حيث التركيب الجنسي والعادات والمعتقدات وذلك قبل زمن طويل من بداية التاريخ المكتوب ثم لم ينقطع هذا التأثير العربي في مصر على مدى ستين قرناً غير انه لا سبيل الى تقدير حجم هذا التأثير ومداه تقديراً أقرب إلى الصحة واليقين^(١).

ومن المؤرخين الذين يرجحون الأصل السامي او العربي للمصريين برستيد وما سيرو وارمان وهرمان رانكه وحسن كمال وأحمد كمال وفيليب حقي وجرجي زيدان وسليم حسن ، وذلك على خلافات يسيرة بينهم حول مدى الاختلاط بأجناس أخرى كاللوبيين والهاميين والجالا والصومال^(٢).

والمؤكد علمياً ان التأثير السامي أو العربي بلغ أقصى مداه في عصر ما قبل الأسرات ، ومنذ بداية العصور التاريخية استقر النمط المصري ولم تطرأ عليه بعد ذلك تغييرات جوهرية بالرغم من عدم انقطاع الهجرات والغزوات والعلاقات المختلفة بين مصر والشرق السامي ولا سيما في أعقاب الفتح العربي الاسلامي .

ويقول الدكتور سليمان حزين انه على الرغم من الغزوات التي تعرضت لها مصر في العصور الفرعونية فقد احتفظ المصريون بصفاتهم الجسمية التي ربطتهم منذ عصور ما قبل التاريخ بسكان غرب آسيا الذي أصبح يعرف فيما بعد بالشرق العربي ، وحتى عندما جاء العهد الاغريقي ونزحت العناصر الاغريقية إلى شمال مصر وغربها بقي أثر الاغريق محصوراً في نطاق ضيق ولم يلبث أن تحلل في كتلة السكان الأصليين ولم يغير شيئاً من الصفة العامة للسكان ، وبعد الفتح الاسلامي

(١) اليوت سميت : المرجع السابق ص ١٠١ .

(٢) محمد عزة دروزة : عروبة مصر قبل الاسلام وبعده .

نزحت إلى وادي النيل الأدنى عناصر جديدة من القبائل العربية ولكن لم يترتب عليها تغيير التكوين العام للمصريين لأن هذه العناصر الجديدة كانت متشابهة في صناعاتها العامة مع سكان مصر ، ولأن صلات السلالة والدم بين وادي النيل الأدنى وشمال الجزيرة العربية صلات وثيقة وقديمة ، وما حدث بهجرة القبائل العربية بعد الفتح الاسلامي إنما كان تسجيلاً وإبرازاً لما هناك من صلات بين المصريين والعرب سبقت التاريخ المكتوب ولكن زادت مسحة الثقافة العربية والاسلامية المشتركة ظهوراً وتوكيداً ، وعندما حل الاتراك محل العرب في حكم مصر توقف تيار الهجرة العربي ولكن التيار التركي اقتصر في الغالب على امداد مصر بطبقة الحكام والجنود وهم قلائل بالنسبة لتعداد المصريين وبالنسبة للهجرات العربية السابقة على السواء ، ولذلك ظل تيار النمط التركي وهو يختلف عن النمط المصري العربي من حيث استدارة الرأس وشكل الأنف ولون البشرة وبنية الجسم ضعيف التأثير في كيان المصريين الجنسي ، وبقي محصوراً في مناطق وطبقات خاصة من السكان ، وكان عديم الأثر تماماً في البيئة الريفية^(١) .

* * *

ويمكن هنا أن نورد بعض مقتبسات من أقوال العلماء تشير إلى وجود استمرارية جنسية للمصريين منذ أقدم العصور إلى اليوم الأمر الذي يستقيم معه القول حقيقة لا مجازاً بأن المصريين الحاليين هم أحفاد أجدادهم الفراعنة الذين أقاموا على ضفاف النيل أعرق وأعظم حضارة عرفت البشرية في فجر يقظتها .

يقوك أدولف ارمان وهرمان رانكة « في مصر وحدها دون غيرها

(١) د . سليمان حزين ، المرجع السابق .

نستطيع أن نرى نفس الناس طوال خمسة آلاف سنة : لم تتغير فيها اللغة إلا مرة واحدة ، وتغيرت فيها الديانة مرتين وجنسية الطبقة الحاكمة عدة مرات ، ولكن الظروف الطبيعية للحياة بقيت ثابتة لا تتغير ، وهذا لم يحدث في التاريخ إلا فيما يتعلق بالشعب المصري .»

ويضيف المؤلفان « لا يزال الشعب الذي سكن مصر القديمة يعيش بروحه الآن في السكان الحاليين لهذه البلاد ، لقد غيرت تقلبات التاريخ لغة البلاد ودينها ، ولكنها لم تستطع أن تغير من مظهر هذا الشعب القديم .. ان مئات الآلاف من اليونان والعرب الذين استقروا في البلاد لم يحدثوا فيها أثراً لأن هذه البلاد قد امتصتهم ، وقد يكون من المحتمل انهم تمكنوا من احداث أثر في المدن الكبيرة التي استقروا فيها مجتمعين ، ولكنهم في سائر البلاد - وبخاصة في الوجه القبلي - لم يحدثوا إلا أثراً ضئيلاً جداً .. فالفلاح الحالي لا يزال يشبه أجداده الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة تمام الشبه مع فارق بسيط هو أن الفلاح الحالي قد أصبح يتكلم اللغة العربية ويدين بالاسلام أو المسيحية ، والذي يتجول الآن في قرية مصرية من قرى الوجه القبلي يستطيع أن يرى أشكالاً من الناس يخيل للمرء أنها خرجت لساعتها من الرسوم والصور التي تغص بها المقابر المصرية القديمة ^(١) .»

ونفس هذه الحقيقة يؤكدها الأب دريوتون بقوله « يتحتم الاعتراف بأنه يوجد في مصر منذ الدولة القديمة طابع مصري خاص ظل برغم الغزوات التي حدثت فيما بعد على دفعات متعددة حافطاً لكيانه إلى نهاية العصر الفرعوني بل وما يزال يعثر عليه إلى يومنا هذا » ^(٢) .

(١) مصر والحياة المصرية في العصور القديمة ترجمة د . عبد المنعم ابو بكر ومحرم

كمال ص ١

(٢) ابتيبي دريوتون وجاك فاندبه : مصر تعريب عباس بيومي ص ٤

كما يؤكد برودريك بقوله « من الواضح طوال الستة آلاف سنة الأخيرة أو يزيد انه لم يكن هناك أي تغيير ملحوظ في مظهر جمهرة المصريين ، فالبدرايون وأهل نقارة ومصريو الأسرات الأولى والفلاحون الذين نراهم يعملون في الحقول اليوم كلهم من نفس النمط القاعدي المتوسطي » (١) .

ويلاحظ كون « ان التغيرات التي لحقت النمط الجنسي في أي جزء من أوروبا خلال السنوات الخمسةائة الأخيرة كانت اكبر منها في مصر خلال خمسة آلاف سنة » (٢) .

ويقول البوت سميث « منذ ١٣ قرناً اكتسبت مصر اللغة العربية والدين الاسلامي دون أن تخضع لأي تغيير ملحوظ في الصفات البدنية لشعبها » (٣) .

ويقول جان بويوت : ان الرجال المصورين في جبانة منف وفلاحي اليوم يشكلون في مجموعهم نموذجاً بشرياً مشتركاً ومن ثم يحق لنا أن نتحدث عن وجود سلالة مصرية متميزة : القامة متوسطة ، والجسم قوى ، والانف عريض مستقيم والشفتان غليظتان ، والشعر مجعد أسود ، والبشرة تختلف درجة سمرتها باختلاف خط العرض ، ولم يتغير أصل السلالة المصرية تغيراً ملموساً بفعل الهجرات التاريخية من الهكسوس الساميين الى الاغريق والعرب الى استجلاب أسرى الزنوج والليبيين والآسيويين في الدولة الحديثة على ضفاف النيل ثم إقامة الحاميات الأجنبية ايام الفرس » (٤) .

ويقول الدكتور جمال حمدان « منذ فجر التاريخ يبرز الشعب المصري

(١) د . جمال حمدان : شخصية مصر ص ١٤٨

(٢) نفس المرجع ص ٢٨

(٣) نفس المرجع ص ٣٠

(٤) جان بويوت : مصر الفرعونية ترجمة سعد زهران ص ٢٥ .

كوحدة جنسية واحدة الأصل متجانسة بقوة في الصفات والملامح الجسمية ، وقد ظل محافظاً على هذا التجانس حتى اليوم دون ان تحدث اي ابتعادات ملموسة عن النمط الأول أو تتنافر معه تخصصات محلية ضيقة . والواقع أن من أطرف الحقائق الانثروبولوجية بقاء أو ثبات النمط المصري عبر العصور Persistence فلم يكذ يتحرك منذ آلاف السنين حتى أن ثمة من التماثيل الفرعونية من عصر الاهرامات حين كشفت في القرن الماضي ما تعرف الفلاحون وعمال الحفائر على بعضه كشييه ويمثل لبعض أفراد من بينهم» (١).

ويضيف الدكتور جمال حمدان ان « مصر لم تكن حصاناً تغير عليه عدد من المسافرين أثناء الرحلة أو عدد من الركاب أثناء سباق التتابع ، وإنما استمر راكبه - المصري القديم والمعاصر - هو الأول والأخير والوحيد طوال الرحلة دون أن يتغير ، وقصارى ما تغير فيه رداؤه ولونه وجلده ربما »

ويعزى الدكتور جمال حمدان ظاهرة الاستمرارية الجنسية والثبات النسبي الجنسي في مصر إلى قدرة مصر الحارقة على تمصير الواردين اليها ، ويشرح قوة التمصير هذه قائلاً « في مواجهة الغزو الخارجي كانت مصر تقامس « الغزو من الداخل » بمعنى انها كانت تتمتع بقوة امتصاص فادرة وحيوية بيولوجية تبتلع وتضم بها معظم العناصر الوافدة حتى تعيدها كأنها البوتقة في الجسم الكبير ، وهكذا كانت العناصر الوافدة تحتوى وتمصر في النهاية دمويًا وحضاريًا ، وبدلاً من أن يفرضوا شخصيتهم الجنسية على مصر كانت هي التي تفرض شخصيتها عليهم ومن مصادر هذه الحيوية أن مصر لم تعرف بصفة عامة الحاجز اللوني أو الحضاري القوي ولا التمييز العنصري ، ومن ثم فقد كانت تمثل وحدة كبرى من التزاوج الداخلي على المستوى الاقليمي ، وبهذا كانت مصر تتجدد بمقدار بواسطة

(١) د . جمال حمدان : شخصية مصر (الكبير) ص ٤٨ .

الهجرات والعناصر الداخلة ، وتكتسب عروقها دماء جديدة منها كانت كميّتها ضئيلة محدودة ، وتلك ظاهرة صحية ومفيدة ومنشطة للبنية البشرية للسكان ، لذلك يمكن أن يقال ان مصر لم تكن مقبرة للغزاة بالمعنى السياسي فحسب بل وبالمعنى الجلسي أيضاً ^(١) .

وفكرة قوة التمييز البيولوجي تحدث عنها كتاب كثيرون من قبل ومنهم الدكتور محمد حسين هيكل الذي استعرض في مقدمة كتابه « تراجم مصرية وغربية » تاريخ الغزوات الأجنبية التي تعرضت لها مصر مثبتاً أن الأجانب تمصروا واندمجوا في الشعب المصري وهضمتهم مصر ولم تعد تفرق بينهم وبين باقي بنيتها ، ويطبق الدكتور هيكل نظريته على الفتح العربي لمصر ويعمل بها انتفاض مصر على السلطة العربية الراشدية والأموية والعباسية المركزية ثم نيلها استقلالها منذ أيام الطولونيين ثم تسنمها المكانة الأولى بين الأمم الإسلامية واسهامها في التراث العربي العلمي والأدبي ^(٢) .

* * *

الفلاح المصري اذن من اكثر العناصر ثباتاً واستمراراً في قصة مصر ، ولم يعد هذا فرضاً نظرياً وإنما حقيقة علمية أثبتتها الدراسات التاريخية والانتروبولوجية والفلكلورية ، ولقد بدأت قصة الفلاح المصري مع فجر الحضارة في وادي النيل منذ ستة أو سبعة آلاف سنة واستمرت حتى الآن دون أن تنقطع تحت وطأة التغيرات الكبرى التي طرأت على مصر خلال تاريخها الطويل وأهمها انهيار

(١) المرجع السابق : ٥٧

(٢) انيس صايغ : الفكرة العربية في مصر ص ٢٠٧ وفيه يشير الى تراجم مصرية وغربية

ص ١٠ - ٢٩ .

الحضارة الفرعونية وضياع استقلال مصر السياسي ، ودخولها في كنف الحضارة العربية الاسلامية وأخيراً انفتاحها على حضارة العصر الحديث ، فكل هذه التغيرات الكبرى لم تؤثر كثيراً في التكوين الجنسي والنفسي للفلاحين المصريين ، ولم تؤثر إطلاقاً في استمرارية حياتهم ، ولا ينبغي بالتالي أن تحول دون محاولة تقييم دورهم الحضاري المتصل .

لقد لعب الفلاح المصري دوراً أساسياً في قصة الحضارة المصرية ، انه يعتبر في الحقيقة خالق هذه الحضارة الاول وينبغي أن يسجل له هذا الدور بالعرفان والتقدير بالرغم مما وصلت اليه حالته اليوم من تدهور وتخلف حتى أصبح - للأسف - من أكثر العناصر البشرية تخلفاً في العالم !

فالحضارة المصرية القديمة كانت حضارة زراعية عناصرها الأرض والنيل والمناخ . ولكن الانسان هو الذي مزج بين هذه العناصر بحيث يمكن اعتباره هو نفسه بعداً رابعاً في هذا الثالوث الحضاري بل هو في الواقع أكثر العناصر إيجابية . فالفلاح المصري هو الذي أرسى أسس الحضارة الفرعونية العريقة وهو الذي تعهدا بعمله وإنتاجه خلال عشرات القرون ، واليه يرجع الفضل المباشر في كل المنجزات العظيمة التي ذخرت بها تلك الحضارة .

فمثلاً .. نظام التقويم الشمسي الذي يسير عليه العالم بتعديلات طفيفة حتى الآن بدأ وضعه في مصر قبل الالف الرابع قبل الميلاد^(١) ولا شك انه وضع في بيئة زراعية ، فهو جهد يمزج بين الأرض والسماء .. بين أطوار الزراعة وحركة الشمس والنجوم ، وإذا كان كهنة برع هم الذين اكتشفوا سر هذا التقويم بأدمان النظر في صفحة السماء فلا شك أن هؤلاء الكهنة أنفسهم ليسوا سوى فلاحين تخصصوا في هذا النوع من المعرفة وأوقفوا حياتهم على هذا الضرب من الملاحظة ،

(١) راجع ما سبق في الفصل الاول .

ولم يكن جهدهم منعزلاً عن بيئتهم الزراعية وواقعهم المصري بل انهم وضعوا علمهم في خدمة بني جلدتهم من الفلاحين الذين يكدهون في الأرض ويشعرون بحاجة ملحة الى مقياس زمني يحدد لهم مواسم الزراعة ويضبط مواعييدها من بذر وري وحصاد وأعياد .

ولنضرب مثلاً آخر .. العقائد والاساطير الدينية التي لعبت دوراً أساسياً في صياغة الفكر المصري القديم وقام عليها صرح الحضارة الفرعونية نشأت كذلك في بيئة فلاحية أي أن واضعها ليسوا إلا مفكرين من الفلاحين. ولنأخذ مثلاً اسطورة إيزيس ويوزيريس ذات المكانة الرئيسية في الفكر المصري والعالمي القديم نجد انها نتاج نخلة فلاحين وعناصرها الأساسية مستمدة من واقعهم ، فاوزيريس هو رب الخصب والنماء الذي علم المصريين أصول الزراعة ومبادئ الحضارة ، وغريمه ست هو رب القحط والجذب والصحراء ، والصراع بينهما يعكس التناقض بين الخصب والبور كما يعكس نظرة الفلاحين البسطاء الى الخير والشر ووجوب انتصار الخير في النهاية كما ينتصر الأخضر على اليابس .

وكثير من النظم الاقتصادية والتشريعية والمعايير الاخلاقية والآداب والفنون وباختصار معظم مظاهر الحضارة في مصر القديمة من نتاج البيئة الزراعية أي من وضع الفلاحين المصريين سواء نتيجة لعبقريتهم الجماعية أو الفردية .

والريف هو الذي أمد مصر بمعظم أو كل كهنتها ومهندسيها واطبائها وفنانينا ومثقفينا ، فقد كان الريف المصري قديماً مثلما هو اليوم المورد الذي يمد المدينة بقوتها البشرية ، وإذا كانت العادة قد جرت على نسبة الحضارة المصرية القديمة إلى الفراعنة وليس الفلاحين فما ذلك إلا من باب التبسيط ، فالفلاح المصري هو الذي شاد بفكره ويديه كل هذه المنجزات العظيمة التي تثير أطلالها اعجابنا اليوم ، كان هو المهندس والكاهن والصانع والعامل ، ان أروع التأسيسات التي

تخلد الملوك كآلهة ، وأرق الحلى التي كانت تزين محاور الملكات والاميرات ، وأجل الصناديق والتوابيت والأثاث والثياب التي كانت تذخر بها مقابر النبلاء وقصورهم إنما هي نتاج ايدي صناع مهرة من الفلاحين البسطاء .

وإذا كان هذا هو حال الفلاح المصري في عصر ازدهار الحضارة الفرعونية فلا بد انه كان شخصية متفتحة يشارك في كافة مظاهر المدنية من حوله ولم يكن محصوراً في العمل اليدوي الزراعي مع أن هذا العمل في حد ذاته كان أساس حضارة العصر .

وقصة « الفلاح الفصيح » التي ترجع إلى العهد الاهناسي (الأسرة العاشرة) في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد تدل دلالة كافية على مدى حيوية الفلاح المصري وثقافته وإيمانه بالعدالة والقيم العليا . وتأتي هذه القصة في شكل تسع شكايات حكيمه بليغة تقدم بها فلاح يدعى « خونا نوب » الى كبير أمناء البلاط الملكي « رينسى بين ميرو » يطالب فيها برفع ظلم شديد أصابه ، ولا شك انه إذا كان فلاحو ذلك العصر لا يتمتعون بالذكاء الكافي لما أمكن لمؤلف القصة أن يضع على لسان الفلاح « خونا نوب » كل هذه الفصاحة أو ينسب اليه كل هذا التعمق في فلسفة الحكم والاخلاق^(١).

ولا بد اذن ان يثور سؤال : ترى لماذا وكيف تدهورت حالة الفلاح المصري صانع الحضارة القديم لتصل الى ما وصلت اليه من تخلف ؟

ينبغي أن نلاحظ أولاً أن تدهور الفلاح المصري ليس ظاهرة حديثة وإنما

(١) راجع القصة مترجمة عن الاصل الهيروغليفي في « روايات وقصص مصرية » لجوستيف لوفيفر ترجمة الدكتور علي حافظ عن النص الفرنسي (الالف كتاب) وراجع تحليلاً لها في رائعة الدكتور حسين فوزي « سندات مصري » وفي « اول ثورة على الاقطاع » للمؤلف (كتاب الهلال)

هي أيضاً ظاهرة موهلة في القدم يمكن القول بأنها ترجع الى العصور الفرعونية نفسها بل وفي الوقت الذي كانت فيه الحضارة الفرعونية قد بلغت أوجها، ولكن مركز الفلاح المصري واصل تدهوره فيما بعد .

ولا يتسع المجال هنا لتقصي عوامل تدهور الفلاح المصري تفصيلاً ، وكيف تحول من انسان حر يشعر بفرديته ويساهم بعبقريته في جميع مظاهر الحضارة من حوله الى مجرد زراع للأرض يعيش على هامش الحياة بقتات الجهل والخرافات وثن تحت سياط الظلم والعسف دون أن يثور أو يرفع مجرد صوت بالشكوى، ولكن قد يمكن أن نجمل هذه العوامل اجمالاً سريعاً ..

من أول هذه العوامل فساد العقيدة الدينية القديمة وتحولها الى أحاجي وألغاز وخرافات مما أفسد بالتالي ذهن الفلاح المصري ، ففي عهد الدولة الوسطى انتشرت عبادة أوزيريس التي كانت بمثابة عبادة شعبية بالمقارنة بعبادة رع المملكية التي لم تكن تتاح إلا للطبقة العليا ، وظهرت بالتالي خرافات كثيرة عن الحياة بعد الموت وما تعج به من ثعابين وتماسيح وقردة وشياطين تعارض طريق المتوفي في العالم الآخر وينبغي أن يعمل لها حساب قبل الموت، ويمكننا أن ندرك مدى هذه الأخيلة والأوهام إذا قارننا بين كتاب الموتى ونصوص الأهرام وأدر كنا كثرة هذه التصورات في الكتاب وندرتها أو عدمها في النصوص، وأدى ذلك الى انتشار الصلوات والدعوات والاحجية والتعاويذ التي من المفروض فيها أن تقي المتوفي شرور الطريق في الدار الثانية ، وصارت هذه الخزعبلات مصدر رزق كبير للكهنة الذين برعوا في التفرير بعقول الفلاحين والعامة، ووضعوا في ذلك كتاباً أسماه « الدليل » لضم المعلومات والوصايا اللازمة لتحقيق حسن المكاب ، وكتاباً آخر يسمى « دليل الطريقين » يسير على نفس النهج ، وكما يحدث دائماً في بدايات الاضمحلال أصبح هذان الكتابان محور القصيدة في حين

أهملت قواعدهما الصحيحة وطمست أفكارها التجريدية وفقدت قدرتها على الإيجاء ، ويرجع برستيد أن يكون الهدف الوحيد من هذين الكتابين هو مجرد ابتزاز المال ، وهكذا بدأت تظهر تلك الاكوام الهائلة من الخرافات والخزعبلات التي عرقلت تطور المصريين فيما بعد وتفاقت سوءاً في نهاية العصور الفرعونية^(١).

وواكب هذا التدهور العقيدي ظهور الاقطاع كنظام اقتصادي غالب وانهيار نظام الملكية الفردية الذي عرف في الدولة القديمة ، وإذا كانت بذرة الاقطاع قد ظهرت في مصر منذ أقدم العصور في شكل أوقاف المعابد إلا ان الاقطاع لم يعرف كنظام اقتصادي شامل الا خلال الفترة المتوسطة الأولى والدولة الوسطى وظل قائماً إلى نهاية العصور الفرعونية ثم أصبحت مصر كلها ضعيفة لروما ، وظل مركز الفلاح المصري يتدهور اقتصادياً وفكرياً وقانونياً كلما رسخ الاقطاع واستقرت دعائمه حتى تحول من انسان حر مفكر خلاق الى عامل سخرة وتابع أرض .

ثم انهارت الحضارة المصرية مع فقدان مصر استقلالها السياسي ، وخضعت البلاد منذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد لسلسلة لا تنتهي من الحكم الاجنبي فخضعت لاحتلال اللوبيين والاثيوبيين والاشوريين والفرس والأغريق والعرب والترك والمغول والعثمانيين ، وكان الفلاحون دائماً الذين يمثلون أغلبية الشعب هم الذين يقع عليهم العبء الأكبر من الاضطهاد والاستنزاف المستمرين من جانب شتى ألوان الحكام والمحتلين وأدى ذلك بالتالي إلى زيادة تدهورهم مادياً ومعنوياً .

ويمكن القول كذلك بأن من أسباب تدهور مركز الفلاح المصري حلول التجارة والمبادلات محل الزراعة كأساس للحضارة ، وقد بدأت هذه الظاهرة

(١) برستيد : تاريخ مصر من اقدم العصور ترجمة حسن كمال ص ١١٣

أيضاً في عصر مبكر يرجع الى الدولة الفرعونية الحديثة حين أصبحت مصر امبراطورية كبرى يعتمد في رخائها على التجارة الخارجية والعائد الاستعماري وتضاءلت أهمية الارض أمام زيادة أهمية السفن والقوافل التي تجلب شتى منتجات العالم القديم ، وظهرت بالتالي طبقة وسطى من سكان المدن والثغور وقلت أهمية الريف وساكنيه ولم تعد الزراعة أبداً فيما بعد الى مجدها القديم ، وكذلك لم يعد الفلاح .

لكل هذه الاسباب الرئيسية - وربما لغيرها أيضاً - أخذت مساهمات الفلاح المصري في الحضارة والمدنية تتضاءل بالتدريج حتى وصلت تقريباً الى حد العدم بينما استمرت انتاجيته الزراعية دون انقطاع منذ أقدم العصور الى وقتنا الحاضر .

غير أن ذلك التمرس الطويل القديم بالحضارة هو الذي مكن الفلاح المصري من الصمود لعوادي الزمن والاحتفاظ بكيانه وتراثه الفولكلوري وخصائصه النفسية والجنسية رغم كل عوامل التدهور التي جرعتها حتى الثمالة ، وكان هذا الصمود من جانب الفلاح المصري في أسوأ الظروف هو سر بقاء مصر رغم ما أصابها من محن ، فقد بادت الحضارة القديمة ولم يعد لها وجود ، ولكن الشعب الذي نشبع بها اكتسب مناعة كافية ولم يتلاش بانهار حضارته وضياح استقلاله وانتهاء تفرد بل ظل يقاوم الزمن ملتصقاً بالأرض والنيل وملتحفاً بالمناخ الطيب والسماء الصافية بينما تلاشت شعوب كثيرة أخرى عاصرت مصر القديمة لأن فلاحها كانوا مجرد زراع أرض وليسوا صانعي حضارة كالفلاحين المصريين .

فالملاحظ انه عندما فقد المصريون استقلالهم السياسي وخرجوا من عصور تنورهم ظلوا مع ذلك يصنعون الحضارة طيلة العصر اليوناني الروماني بل وفي العصر الاسلامي إذ ترك القبط ذوو الأصل الفلاحي والبارعون بالوراثة في فنون السيراميك والنسيج طابعهم على الفن الاسلامي في مصر .

ولا يزال الفلاح المصري الى اليوم يحمل من الرواسب الحضارية ما يثري شخصيته ثراءً طبيعياً ويجعله يتمتع بنفسية متحضرة بالرغم من كل الظروف القاسية التي كابدها عشرات القرون ، يكفي انه يحب للخير والسلام والعمل ، مؤمن في اعماقه ، صبور دؤوب متفائل قانع . ولتقرأ مثلاً ما كتبه عن الفلاحين المصريين الباحثة الانجليزية وينفريد بلاكان التي عاشت بينهم في الصعيد سنوات طويلة قبل أن تضع كتابها الممتاز المثير « فلاحو مصر العليا » فيه تقول : « الفلاحون المصريون رغم فقرهم الشديد ومرضهم وقلة ما لديهم من ألوان التسلية التي يمكن ان تكسر رتابة حياتهم تراه على الاجمال شعباً قنوعاً مبتهجاً ، يمتازون بسرعة الفهم ، ولديهم استعداد للفكاهة والمرح فهم يحبون النكتة حتى لو كانت ضد أنفسهم ، وهم عادة يهتمون بذاكرة قوية ، وقلوب صافية ، حالمون ، كرماء ، دمويون على العمل ، عاطفيون للغاية»^(١).

وهذه الرواسب الحضارية التي يتمتع بها الفلاحون المصريون تجعل لديهم استعداداً ثقافياً عالياً ، وبما يلفت النظر أن معظم علمائنا ومثقفينا وفنانينا نشأوا في الريف أو ينتمون الى أصول ريفية مباشرة ، ومعنى ذلك ان أبناء الفلاحين إذا كفلت لهم فرصة التعليم يمكن أن يبنوا أبناء المدن في القدرة على التحصيل والابداع رغم التسهيلات والامكانيات الثقافية الكبيرة المتاحة لهؤلاء . وان الشاب القروي — منذ عهد رفاعة الطهطاوي حتى الان — ليلتحق بأرقى معاهد العلم في عواصم أوروبا وأمريكا ويتفوق على أقرانه من أبناء الحضارة الغربية في شتى فروع العلوم والفنون والآداب . والريف المصري كما يخرج المثقفين يخرج أيضاً مهرة العمال والصناع ، فالأغلبية الساحقة من العمال في المصانع والمشروعات المختلفة هم فلاحون قدموا مباشرة من الريف واكتسبوا الخبرة والمهارة في أعمالهم بسرعة فائقة ، ومعنى ذلك ان الفلاحين المصريين لا ينقصهم

1) Blackman, W, The Fellahin of Upper Egypt P. 23.

الاستعداد التكنولوجي ، أعرف فلاحاً شبه أُمي من إحدى القرى المنقطعة نسبياً عن المدينة يتمتع بمقدرة مذهلة في إصلاح الآلات الدقيقة كالساعات وآلات التصوير وساعات الأطباء ، وكثيراً ما يلجأ إليه سكان « البندر » بآلات تعذر إصلاحها للاستفادة من مهارة أئامه !

ومن المؤكد أن زواجب الفلاح الحضارية ، وذكاءه الفطري ، واستعداده الطبيعي للتطور ، عوامل كفيلة بإثمار أي جهد صادق للنهوض بالريف والفلاح إلى مستوى عصر الثورة التكنولوجية الحالي ، ولا شك أن الريف المصري قد قطع بعد ثورة ٢٣ يوليو أشواطاً هائلة إلى الأمام ، فقد عرف لأول مرة الإصلاح الزراعي وتخلص من عبثة الاقطاع ، واستفاد من الطاقة الكهربائية والمياه النقية ، وعرف جانباً من أساليب الزراعة الحديثة في الإنتاج والتسويق ، ومع ذلك لا يزال هناك الكثير مما يجب عمله حتى يتطور الفلاح المصري الذي تخلف عند المرحلة الزراعية منذ آلاف السنين إلى إنسان يساير عصر التكنولوجيا والبحث العلمي . لا بد من القضاء نهائياً على الآفات التقليدية الثلاث التي تهدم فلاحينا هدماً وهي الفقر والجهل والمرض ، ولا بد من تغيير الأوضاع المادية في الريف بإحداث ثورة عميقة في أساليب الإنتاج وعلاقاته ، وتصنيع الريف ، وتخطيط القرى ، ولا بد من بذل جهد أكبر للنهوض بالفلاح ذاته نفسياً وعقلياً وسياسياً .

وعندما ينهار الستار الحديدي بين الريف والمدينة ، سوف يسقط معه الفاصم الوهمي بين الحاضر والماضي ، وسوف يعود الفلاح المصري إلى المساهمة الايجابية في حضارة العصر الحديث كما كان يفعل أيام أمجاده التليدة .

القسم الثاني

عروبة مصر

علاقات قديمة

إذا كنا قد خلصنا في القسم الأول من هذا الكتاب إلى وجود اتصال بين مراحل التاريخ المصري رغم انقطاعه الظاهري، وإلى تقرير وحدة هذا التاريخ منذ أقدم العصور إلى الآن فإن القول بذلك لا يمكن أن يستقيم نهائياً إلا إذا فهمنا تلك الظاهرة العميقة المعقدة في تاريخ مصر ألا وهي انتقالها بحكم الضرورة التاريخية وطبيعة الأشياء إلى حوزة العروبة والاسلام .

ان تعريب مصر هو الحلقة التي تربط بين تاريخ مصر قبل الاسلام وبعده ، ولا بد لتقرير مبدأ وحدة التاريخ المصري من أن نتأكد من وجود هذه الحلقة ومن أنها تصل بين مرحلتين ولا تفصل بينهما .

أو بمعنى آخر، هل استبدل الاسلام بمصر مصرأ أخرى أم أنه جدد شباب مصر وحيويتها ؟ هل الغطاء البشري في مصر العربية الاسلامية غطاء جديد تماماً أم أنه نفس الغطاء القديم بعد أن منح عقيدة جديدة وجرت في شرايينه دماء جديدة فحسب ؟ وماذا كان موقف المصريين من الفتح العربي : هل هو موقف الرضا والقبول أم موقف الرفض، والارغام ؟ وهل ظلت مصر تتمتع

بقدرة ذاتية على التأثير في الحياة الجنييدة التي دخلتها أم أنها فقدت كل عناصرها الإيجابية وتحولت الى كم سلبى يتأثر ولا يؤثر ؟

قبل الاجابة على مثل هذه الاسئلة ينبغى القاء نظرة على العلاقات المصرية العربية منذ أقدم العصور الى الفتح العربي الاسلامى عام ٦٤٠ م .

لقد ظلت مصر منذ أقدم العصور الى الآن جزءاً لا يتجزأ من الوسط البشرى المحيط بها ، فليس هناك بالتحديد ما يسمى بالجنس المصرى وإنما هناك فحسب من يسمون بسكان مصر الذين هم فرع من سلالات البحر المتوسط وكان سكان مصر دائماً على اتصال وثيق بالجنس السامى الذى موطنه شبه الجزيرة العربية ولكنه لا ينحصر فيها بل يفيض منها على الهلال الخصيب وما حوله .

وقد أخذ هذا الاتصال ثلاثة أشكال رئيسية ..

الشكل الأول هو الاشتراك فى أصل جنسى واحد يعد بمثابة الأب المشترك لكل من العرب والمصريين ، وقد رأينا فيما سبق رأى اليوت سميت وغيره من العلماء فى أن المصريين والعرب يرجعون إلى أصل مشترك واحد كان يسكن كل منطقة الشرق الأدنى التى يفصلها البحر الأحمر ، ويذهب فيليب حتى إلى أن الجنس السامى كان متحداً فى عصور ما قبل التاريخ مع فرع آخر من الجنس الأبيض هو الفرع الحامى (الشائع خطأ أن بنى حام هم الزوج وهذا ليس صحيحاً) وكان الاثنان يكوّنان شعباً واحداً يقطن فى بعض نواحي شرق أفريقيا وتفرع منه ما دعوتاهم بعدئذ بالساميين وعبروا الى الجزيرة العربية عن طريق باب المندب فيما يظن ، وهذا ما يجعل أفريقيا الموطن الأصلي المرجح للجنس السامى الحامى الذى ينتمى اليه العرب والمصريون على السواء ثم أصبحت الجزيرة العربية مهداً للشعب السامى وبعد ذلك أصبح الهلال الخصيب مرتعاً للحضارة السامية .

أما الفرع الآخر من ذلك الجنس وهم المصريون فقد جعلوا من وادي النيل مهداً ومرقماً لحضارتهم^(١).

والشكل الثاني هو تلك الهجرات الجماعية التي كانت تخرج من الجزيرة العربية مهد الجنس السامي الى أطراف الجزيرة ومنها مصر فتختلط بسكانها وقدخل في نسيجها البشري ، ومعروف أن شبه الجزيرة العربية بيئة طاردة وأن مؤشر الهجرة البشرية يتجه من البيئات الصحراوية القاحلة إلى البيئات الزراعية ، وقد لاحظ العلماء ظاهرة امتلاء شبه الجزيرة العربية مرة كل ألف سنة بسكانها على نحو لا تستطيع معه استيعابهم فيفيضون على جوانبها كما يفيض الماء من الوعاء المملآن .

وقد حدثت الموجة الأولى من الهجرة السامية - ان لم تكن ثمة هجرات أخرى حدثت قبلها في الماضي البعيد - في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد (حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م :) واتجهت إلى وادي النيل الذي يربطها بسكانه الاشتراك في أصل بعيد واحد كما رأينا ، واستقرت هذه العناصر السامية الوفيرة العدد في مصر وامتزجت بسكانها وربما كانت هذه الهجرة من الأسباب التي عجلت بدخول الحضارة المصرية عصر التاريخ المكتوب . وفي نفس الوقت تقريباً اندفعت من الجزيرة العربية موجة سامية أخرى إلى الشمال واستقرت في وادي النهرين حيث امتزجت بالسومريين الذين هم ليسوا من الأصل السامي ونشأ نتيجة لهذا المزيج البابليون الذين واصلوا حضارة الرافدين .

وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد أي حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م. حدثت الموجة الثانية من الهجرات السامية الكبرى إلى غرب الهلال الخصيب ، وظهر

(١) فيليب حنى : تاريخ العرب (مطول) ج ١ ص ١٤ طبعة دار الكشاف وفيه يشير الى :

George Barton : Semitic and Hamitic Origins

نتيجة لهذه الهجرة الكنعانيون الذين سكنوا الشام وفلسطين ، والفينيقيون الذين سكنوا ساحل البحر المتوسط .

وبعد منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بقليل فيما بين عامي ١٥٠٠ و ١٢٠٠ ق.م. حدثت الهجرة السامية الثالثة إلى جوف سوريا وتسرب فيها العبرانيون إلى فلسطين والآراميون (السريان) إلى سهل البقاع يحوف سوريا .

وفي منتصف الألف الأول قبل الميلاد حدثت الهجرة الرابعة وأدت إلى ظهور ممالك عربية على هامش الجزيرة أهمها مملكة الأنباط الذين سكنوا الشمال الشرقي لشبه جزيرة سيناء ونحتوا عاصمتهم البتراء في الصخر ، ومملكة تدمر التي لمعت عالمياً في عصر ملكتها الشهيرة زنوبيا .

وحدثت الموجة الخامسة بعد منتصف الألف الأول الميلادي وهي التي حملت راية الاسلام إلى خارج الجزيرة واجتاحت الشام ومصر وأفريقيا الشمالية وفارس وآسيا الوسطى^(١) .

أما الشكل الثالث من المؤثرات فقد كان بطيئاً ولكنه حثيث ومستمر ، وأخذ أشكالاً شتى من هجرات فردية وجماعية ، إلى حروب وغزوات ، إلى علاقات ود وتجارة وثقافة ، ولم ينقطع طيلة عصور التاريخ حتى الآن .

* * *

وإذا استعرضنا العلاقات المصرية العربية عبر التاريخ نجد انه ما من مرحلة تاريخية الا وقد عرفت اتصالاً من نوع أو آخر بين المصريين والعرب الساميين ،

(١) فيليب سني : تاريخ العرب ج ١ ص ١٠ - ١٢ .

وسنحاول فيما يلي استعراض هذه العلاقات مع الاقتصار منها على ما كان قائماً بين مصر والبدو الساميين من سكان شبه الجزيرة العربية أو على هامشها ولن نتناول العلاقات بين مصر ودول الحضارات السامية كبابل وآشور لأنها علاقات مستقرة ومعروفة جيداً .

منذ عهد الأسرة الاولى وطوال العصر العتيق الذي سبق الدولة القديمة تسجل الآثار المصرية قيام ملوك الاسرتين الاولى والثانية بحملات تأديبية ضد البدو المقيمين على سواحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء والذين قدموا بالطبع من الجزيرة العربية مهد الجنس السامي وكانوا في طريقهم الى مصر كما فعلت موجات سالفة من أجدادهم ، وظهرت في اللغة المصرية منذ ذلك الحين كلمة « عامو » التي تطلق على البدو الاسيويين ، وكان هؤلاء العامو أو بدو سيناء الذين جاءوا أصلاً من الجزيرة العربية يبيعون منتجات سيناء من النحاس والفيروز في أسواق وادي النيل ، وقد عثر الاثري سير فلنדרز بترى في عام ١٩٠٠ على قطعة من العاج في ضريح أحد ملوك الأسرة الاولى في أبيدوس تحمل رسم رجل سامي كتب عليها « عامو » ويمثل الرسم رجلاً ذا لحية مروسة حليق الشاربين ولعله من عرب الجنوب^(١) .

وفي عهد الدولة القديمة زادت الاتصالات بمختلف أشكالها بين المصريين والعامو ، فكان سنغرو من الأسرة الثالثة وخوفو من الرابعة وأوسر كاف من الخامسة يصدون غارات القبائل الاسيوية ويقتفون أثرها إلى فلسطين ، وكان مصريو الدولة القديمة يستخرجون المعادن من سيناء ويحويون بسفنهم موانئ البحرين الأحمر والمتوسط وينشئون أقوى العلاقات التجارية مع عرب سوريا وبونت وشبه الجزيرة العربية نفسها التي كانت غنية بالحااصلات الزراعية والمعدنية

(١) فيليب حتي : المرجع السابق : ص ٤١

التي يحتاجها المصريون كاللبان والطيوب والمر والبخور والصمغ والراتنج
والأخشاب العطرية والعاج والابنوس .

وعندما انهارت الدولة القديمة ، وحل بمصر التفسخ الحضاري والضعف
السياسي والمنازعات الدامية انتهز البدو الآسيويون الفرصة ونزلوا بأعداد غفيرة
في الدلتا كما تدل على ذلك الآثار القليلة المتبقية التي تصور أحوال ذلك العصر
المضطرب ، ومنها « نبوءات الحكيم ايبور » التي جاء فيها أن أهل الصحراء
حلوا محل « المصريين » وأصبحوا يحرمون البلاد حرقها ، ولم تتخلص مصر من
هؤلاء المستوطنين الآسيويين إلا على أيدي ملوك الهناسيا الذين أقاموا الدولة
الوسطى وطاردوا بدو الدلتا^(١) .

وفي « التعاليم الموجهة إلى الملك مريكارع » من الأسرة العاشرة ، والأغلب
أنها موجهة إليه من أبيه الملك خيتي الرابع تجده يحذره من خطر الغزو الذي
قد تتعرض له البلاد من حدودها الشرقية ، وهو يصف المحارب الآسيوي أو
السامي الذي يغزى على البلاد لأعمال السلب والنهب وصفاً دقيقاً فيقول « انه
لا يستقر في مكان واحد ، ان ساقبه قد صنعنا كي تتجولا به بعيدا ، انه
يحارب منذ أيام حورس (أي منذ الازل) وهو لا يقهر ولا يقهر ، ولا يحدد
يوماً للقتال ، بل هو كاللص الذي يعمل في عصابة ، يهاجم الشخص إذا كان
يسير بمفرده ، ولكنه لا يهاجم مدينة بها سكان كثيرون »^(٢) .

وحين استردت مصر قوتها وتابعت سيرتها الأولى في عهد الدولة الوسطى
عادت العلاقات المنتظمة بين مصر والأقوام السامية ، وقد اهتم ملوك الأسرة
الثانية عشرة بإقامة التحصينات المنيعة على حدود الصحراء وأطلقوا عليها « حائط

(١) محمد الغرب موسى : أول ثورة على الاقطاع ص ٨٢

(٢) المرجع السابق : ص ٩٦ - ٩٧ .

الحاكم التي أقيمت لصد الآسيويين وسحق المسافرين في الرمال ، وقامت علاقات تجارية واسعة بين مصر وجاراتها في الشرق الأدنى وكانت مراكز الحراسة المصرية منتشرة في رءوس الطرق ومنعطفاتها لتأمين خطوط القوافل ، وسهلت قناة سنومرت بين النيل والبحر الأحمر الاتصال ببلاد بونت وسواحل العرب الجنوبية ، ونحن نعرف من قصة سنوحى التي ترجع إلى الأسرة الثانية عشرة مدى الروابط القوية التي كانت قائمة بين مصر والشام ، وهناك كذلك شواهد كثيرة على زيارات جماعية وفردية كان يقوم بها الآسيويون إلى مصر ، ففي إحدى مقابر بني حسن في زمن الدولة الوسطى نرى رسماً يصور جماعة من البدو الآسيويين تضم ٣٧ فرداً على رأسهم زعيم يدعى « أبشا » تهبط مصرحاملة هدايا طريفة منها طلاء أخضر اللون لتجميل العيون^(١).

وفي التراث السامي القديم أن أبا الأنبياء إبراهيم الذي عاصر الدولة الوسطى زار مصر هو وزوجته سارة لهاجاة كهنتها في شئون العقيدة ، واقترب إبراهيم بهاجر المصرية وانجب منها ابنه الأكبر اسماعيل أب العرب العدنانيين وجد الرسول عليه السلام ، أي أن الجدة الكبرى لبني الإسلام مصرية .

وبعد انهيار الدولة الوسطى ، وقبل قيام الدولة الحديثة ، أي فيما يطلق عليه الفترة المتوسطة الثانية ، تعرضت مصر لغزو الهكسوس ، وهي محاولة للاستعمار الاستيطاني بالمصطلح الحديث ، ويقول البعض اقتداء بالكاهن المصري مانيتون أن الهكسوس ربما كانوا عرباً وعلى هذا الرأي كثير من المؤرخين المحدثين غير أن الأرجح طبقاً للأبحاث الحديثة أن غزوة الهكسوس كانت تضم عنصرين أحدهما آري كانت له السيادة العليا والآخر سامي جاء في ركاب العنصر الآري ، فزعما الهكسوس أو الطبقة العليا في الحملة الغازية كانوا ينتمون إلى الجنس الآري ، فهم إحدى التدفقات الهندية - الأوروبية التي بدأت تضغط على منطقة

(١) محمد العزب موسى : هزيمة الهكسوس . المكتبة الثقافية .

الهلل الحصبب فف بءاءة الألف الثافف قبل المفلء ، وقل ءءى هءا الضفل الآرف إلى قللة شءفءة بفن الشعلوب والأقوام المسقرة فف المنلقة ، وكان الهكسوس إءءى هءه الءءفقات أنوا فف الأصل من آسا الصفرى وفتحوا سورفا وفلسطفن كخطوة نحو هءفهم النفاثف مصر ، وما فءل على أنهم فرع من الهجرات الهندفة الأوروبية أنهم جلبوا معهم الحصان والعربة وهما من مقومات الحضارة الآرف الشالفة ، كما كانوا فستلخدمون أسلحة من البرونز والحفءف مما فءل على أنهم كانوا على اقصال بمناجم أرمفنا وطوروس من فاففة وبالمنطقة العشبفة فف روسفا وسفنفرفا الوسطى من فاففة أخرى ، أما الأقوام السامفة فف المنلقة فلم تكن عنءئء تعرف العربفة والحصان ولا البرونز والحفءف ولكن من المرجح - وفكاء فكون من المؤكء - أن الهكسوس جلبوا فف ركابهم عناصر سامفة من سكان المنلقة ، وفتحوا مصر لمن شاء اسفطانها من السامفن ، وكان من عادة القبائل الآرف أنها لا تغلق مجتمعاتها على نفسها بل تسمح للاجناس الأخرى بالءلؤل فف زمرتها على شرفطة أن تكون السفاءة للعنصر الآرف وتتمثل هءه السفاءة فف المفاظة على الشعارات الآرف كاسماء الالهة والملوك^(١).

وعلى أفة حال ، فقد ترك الهكسوس مسحة سامفسة على حضارة مصر وثقافتها فف ذلك الفف ، والمعتقد أن مجف؁ يوسف واستقرار قفبلة ففقوب فف مصر ءءثا ءلال فترة ءكم الهكسوس^(٢).

وابفءاء من عهد الدولة الءءفة الفف قامت فف أعقاب طرء الهكسوس وءق نفاهة العصر الفرعونف إزءاءات العلاقات ثوئفا بففن مصر والشرق السامف فف مءلف المفافن بل فجلت وءءة الشرق واضحة فف ظل الامبراطورفة المصرفة الفف كانت أول مءولة بشرفة لءلقفق فكرة العالمفة ، وفف عصر الرعامسة

(١) المرجع السابق .

(٢) محمد شففق غربال : فكوفن مصر ص ٥٣

بالذات كانت مصر تذخر بالعرب الساميين الذين جاءوا اليها كأسرى أو تجار أو مهاجرين ، ولم تكن هناك مدينة مصرية على درجة من الأهمية إلا وبها أحياء كاملة يسكنها الكنعانيون والفينيقيون وغيرهم من العناصر السامية ، وكانت قوافل التجارة تأتي من بلاد العرب وبونت وفينيقياس وسوريا والسودان وجزر المحيط لتصب في مصر ثراء جديداً ودماء جديدة ، حتى إذا ما آذنت شمس رع بالغروب ودخلت مصر الفرعونية صفحات كتابها الأخيرة إزداد التأثير الأجنبي فيها سواء كان هذا التأثير اغريقياً أو عربياً أو بربرياً أو زنجياً ، وتعرضت مصر لغزو واحتلال النوبيين واللوبيين والاشوريين وهم جميعاً من أقارب العرب وتجري في عروقهم الدماء السامية ، وزادت سطوة بدو الصحراء وأصبحت لهم اليد الطولى على حدود مصر الشرقية حتى أن تمييز الفارسي يمكن من فتح مصر بمعونة عرب الصحراء الذين أمدوه بالأدلاء والجمال والمؤن^(١).

وفي الوقت الذي اعتلى فيه البطالسة الاغريق عرش مصر كانت مجموعة من الممالك العربية الذاهبة قد بدأت تظهر في جنوب شبه الجزيرة وعلى أطرافها الشمالية منها دولة معان في سيناء والحجاز ، ودولة معين وسبأ في اليمن ، ومملكة الانباط في شرق الاردن التي مدت سلطانها إلى طور سيناء ثم قتلها تدمر ومملكة الفساسنة . وقامت بين مصر البطلمية وهذه الممالك العربية دماء وثقافة علاقات متشعبة من تجارة وحروب وهجرات واتصالات شتى ، وكان العرب يقومون بدور الوسيط التجاري العالمي فهم يتحكمون في طرق التجارة البرية والبحرية القادمة من الصين والهند وفارس الى مصر والشام واليونان وروما ، وكانت حاصلات بلاد العرب الجنوبية كالمر واللبان والعطور والبهارات والعاج والارز والاصداغ والآلء تصب في الاسواق المصرية ويتهاقت عليها سكان وادي النيل ، وكانت هذه الحاصلات تصل بسهولة كبيرة إلى المدن المصرية بعد إعادة حفر القناة القديمة التي تربط النيل بالبحر الاحمر .

(١) د. عبدالله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ص ١٧

وقد عثر الاستاذ أنولتان على نقوش نبطية في الصحراء الشرقية بين البحر الأحمر والنيل تبلغ حوالي ٨٣ نقشاً أو خريشة عثر عليها في ستة عشر موضعاً تمتد من من سيناء شمالاً وتتجه جنوباً حتى الصعيد الأعلى مما يدل على أن الأنباط وهم عرب صحراء لم يقصدوا مصر للتجارة فحسب وإنما كانت لهم فيها محلات يهبطونها، ومعابد يتعبدون فيها^(١).

وواصلت هذه العلاقات ازدهارها بعد أن انتقلت مصر من الحكم البطلمي إلى الحكم الروماني ، بل أن الأنباط هم الذين أعانوا يوليوس قيصر على فتح الاسكندرية بكتيبة من الفرسان العرب أرسلها الملك النبطي مالك بن عبادة ، كما توغلت حملة رومانية مصرية في بلاد العرب حتى نجران^(٢).

كما نزلت مصر في مطلع العصر الروماني بطون من قضاة وكهلان وهم من العرب القحطانيين الذين انتقلوا من سبأ واليمن في جنوب الجزيرة العربية إلى الشمال على أثر دمار سد مأرب ، ودخل بعضهم مصر^(٣).

وفي العصر الروماني حدثت ما يسميها بعض المؤرخين « بروفنة » الفتح العربي الاسلامي حين غزت زنوبيا ملكة بالميرا [ويسمىها العرب الزباء أو زينب ملكة تدمر] مصر واقتطعتها من الحكم الروماني فترة من الوقت ، ولأهمية هذا الحدث باعتباره نموذجاً مصغراً للفتح العربي يحسن أن تلقى عليه بعض الأضواء .

كانت بالميرا إحدى المدن القديمة في شمال الصحراء العربية وأثرت ثراء بالغاً

(١) د. عبد المجيد هابدين : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب للمعري ص ٨٢.

(٢) د. عبدالله خورشيد البري : المرجع السابق ص ٢٥

(٣) د. عبد المجيد هابدين : المرجع السابق ص ٨٥ - ٩١

نتيجة لوقوعها في واحة وارفة من النخيل والعيون كانت ثمرتها - وتتوقف عليها - القوافل القادمة من اليمن وحضرموت في جنوب بلاد العرب إلى سوريا وفلسطين شمالاً ، وقد تسرب اليها النفوذ الهليني فأصبحت مركزاً لاستزاج الثقافتين الاغريقية والسامية في قلب الصحراء ، وفي عهد أغسطس قيصر قبلت بالميرا السيادة الرومانية وعاملتها الدولة الرومانية برفق فادر وسمحت لها بالاحتفاظ بجيش خاص حتى تكون مستعدة دائماً لحماية طرق التجارة وصد أي هجوم تتعرض له أطراف الامبراطورية من الشرق أو الصحراء .

ولكن بالميرا العربية لم تلبث أن واجهت تحدياً خطيراً بنمو قوة الفرس في المشرق ، وأخذوا يهددون تجارتها و ثرائها ومركزها الممتاز ، وحاولت بالميرا التماس الحماية الرومانية فلم تجدها فقد كان الرومان أنفسهم يلقون الهزائم المذلة على أيدي الفرس ، وكان الضعف والتراخي قد دبا في قوات روما بالمشرق ، وعندما رأى البالميريون ان قوات الدولة الرومانية غير قادرة على حمايتهم أو تقديم أي عون جدي لهم أخذوا الزمام بأيديهم دفاعاً عن أرواحهم وامتيازاتهم ، ونجحوا في إيقاع الهزيمة بالجيش الفارسي وغزوا العراق ، وعندئذ أعلن زعيمهم نفسه ملكاً ولم تسع روما سوى الاعتراف بهذا « الاستقلال الذاتي » قانعة بأن تتولى بالميرا عنها عبء الحدود الشرقية للامبراطورية ، وبعد وفاة ملك بالميرا أمسكت أرملة زنوبيا بمقاييس الحكم كوصية على ابنها وهب اللات ، واعترف الامبراطور الروماني كلوديوس بهذا الوضع في عام ٢٦٨ م^(١) .

وكانت زنوبيا امرأة على درجة عالية من الثقافة والطموح والذكاء ، ويقال انها كانت عربية صريحة وان كانت بعض الروايات تلصقها إلى أصل مصري ، وكانت هي نفسها تدعي انها من نسل الملكة المصرية كليوباترا ، ويقال انها

1) Weech : History of the World

كانت تتقن الاغريقية واللاتينية كما كانت تتحدث المصرية بطلاقة ، ويقال أيضاً أنها وضعت مؤلفاً في تاريخ مصر ، وفي بلاطها ازدهرت الحضارة الهلينية في أرقى صورها ، ولم تكن عبقرية زنوبيا السياسية والحربية أقل من تفوقها الثقافي ، وقد اعتقدت انها أحق بحكم الشرق من القواد الرومان الجاهلاء فشقت عصا الطاعة على الدولة الرومانية ، وضمت المدن والأقاليم المجاورة لها في يسر وسهولة لأن شعوب الشرق كانت ترحب بقوات بالميرا التي تحترم الحضارة ولا تدمرها كما تفعل الجحافل الرومانية ، وفي زمن قصير للغاية امتدت سيادة بالميرا من البوسفور الى النيل ، وكان استيلاؤها على مصر في عام ٢٧٠ م بعد أن هزمت قواتها الجيش الروماني بالقرب من بابلينون ورحب المصريون بهذا الفتح العربي الذي خلاصهم من نير روما ، ولكن عندما تولى الامبراطور أورليانوس عرش الامبراطورية الرومانية قرر تحدي الزباء والحد من سلطانها ولا سيما بعد أن أبدت ميلا للتفاهم مع الفرس ، وشعرت زنوبيا بما تضرره لها الدولة الرومانية فأقدمت على قطع آخر صلة تربطها بروما بأن تحت صورة الامبراطور الروماني من عملتها الوطنية وهي الشعار الوحيد الباقي للسيادة الرومانية وسكت عملة جديدة عليها صورة ابنها وهب اللات فحسب ، واتصلت بملكة الغال (فرنسا) التي كانت على عدااء مع روما وتحالفت معها ، وبدأت بين روما وبالميرا حروب عنيفة انتهت بهزيمة جيوش الزباء وسيقت هي أسيرة الى روما وأبيحت مدنياتها الجميلة للنهب والتدمير ، وبعد ذلك تمكنت روما من اخمد الثورات الوطنية التي قامت في بلاد الشرق وأعادت فرض سيطرتها على مصر (١) .

وقبيل العصر الميلادي مباشرة زاد العرب زيادة كبيرة في مصر ، وقد أشار إلى ذلك المؤرخون اليونانيون ومنهم سترابو وبلينيوس اللذان ذكرا أن

(١) د . عبدالله خورشيد البري : القبائل العربية في مصر ص ٢٧

العرب تضاعف عددهم على الضفة الغربية من البحر الأحمر ، وكانوا يشغلون كل المنطقة بين البحر ونهر النيل في أعلى الصعيد ، ووصف مترابو مدينة قفط بأنها واقعة تحت حكم العرب ، ونصف سكانها من العرب^(١).

وعندما دخلت مصر في حوزة الدولة البيزنطية الشرقية واعتنق المصريون المسيحية استمرت الاتصالات قائمة وقوية بين الأقباط وعرب شبه الجزيرة ، وتذخر كتب التاريخ بعشرات الأمثلة على هذه العلاقات ومنها ان رجال الدين المسيحي من المصريين كانوا يزورون بلاد العرب ونقلوا نظم الرهبنة المسيحية المصرية إلى بلاد العرب والشام ، وعين الراهب المصري موسى أسقفاً للمسيحيين العرب عام ٣٧٢ م ، وفرنسطور صاحب المذهب النسطوري الذي وسم بالهرطقة في مصر إلى بلاد العرب عام ٤٤٠ م وانتشر مذهبه هناك ، وتولى نجار قبطي كان يقيم في مكة اصلاح الكعبة عندما أضرت بها السيول في عام ٦٠٦ م أي قبيل بعثة الرسول بخمس سنوات ، وكان جبر عبدالله القبطي أحد الصحابة الذين أخذوا دينهم عن النبي ، وكانت القبائل العربية تهاجر إلى مصر والشام فراراً من الجذب في بلادها ومقدمة للفتوحات العربية القادمة ، وقبيل الفتح العربي كان يقيم في مصر وخاصة في المناطق الشرقية والاسكندرية والفيوم كثير من العرب كما كانوا يترددون عليها للزيارة والتجارة ومنهم عمرو بن العاص الذي زار مصر أكثر من مرة في الجاهلية وعرف مسالكها مما كان عوناً له على فتح مصر فيما بعد ، كما اشترك العرب في حملة كسرى لفتح مصر عام ٦١٨ م وسهل اشتراكهم في هذه الحملة تقبل المصريين لها^(٢).

* * *

(١) د . احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ١٢

(٢) د. عبدالله خورشيد البري : المرجع السابق ص ٣٢

من هذا العرض السريع يظهر واضحاً ان الاتصالات بين المصريين والعرب بدأت منذ زمن سحيق يعود إلى ما قبل التاريخ واستمرت على نحو منتظم تقريباً طيلة العصور التاريخية حتى الفتح الاسلامي وكانت تأخذ شتى الاشكال كالهجرات الجماعية والفردية ، والغزو المسلح للسلب والنهب أو للاستقرار والاستيطان إلى جانب مختلف أنواع العلاقات التجارية والسياسية والشخصية على كافة المستويات ابتداء من الرعاة والتجار والاتباع والجنود المرتزقة إلى الملوك والأمراء والنبلاء ورجال الدين .

ولم يتوقف الـدم العربي عن الامتزاج في عروق المصريين بكميات مؤثرة احياناً وقليلة احياناً ، ولا شك أن ذلك قد ساهم في تجديد دماء المصريين والحفاظ على حيويتهم بل وبقائهم نفسه ، فلو لم يكن المصريون على هذا الاتصال المستمر بالعالم الخارجي لكانوا قد بادوا أو انهاروا لدى أول طريقة خارجية يتعرضون لها كما حدث للهنود الحمر وسكان أمريكا الجنوبية الأصليين الذين انهارت حضارتهم كببت العنكبوت وتقوص مجتمعهم رأساً على عقب عند أول اصطدام لهم بالعالم الخارجي بعد قرون طويلة من العزلة في قارتهم المجهولة فالامتزاج الجنسي والحضاري بين الشعوب شرط لبقاء الحضارة والمجتمعات وحصانتها أمام المؤثرات الخارجية .

* * *

على أن التأثير الأكبر للعرب الساميين في مصر الفرعونية لم يكن في المجال الجنسي بقدر ما كان في الميدان الحضاري والثقافي لا سيما فيما يتعلق باللغة والمعتقدات الدينية .

يقول الدكتور عبد العزيز صالح ان اللغة المصرية القديمة التي تكتب

بالهيوغرافية تضم كثيراً من الأصوات والصيغ والمفردات السامية ، وهذا لا يدل فقط على مجرد الاقتباس بل الأرجح وجود أصل مشترك بينها . وقد عرفت اللغة المصرية في قواعدها النحوية كثيراً من الخواص الموجودة في اللغة العربية من حيث وجود حروف العين والحاء والقاف وهي حروف اقتصرتداولها على اللغات السامية ، ثم من حيث شيوع الأفعال ذات المصدر الثلاثي فيها ، وغلبة الأفعال المعتلة الآخر بينها ، ومن حيث ما أخذت به في تركيب عباراتها من سبق الفعل على الفاعل ، وإلحاق الصفة بالموصوف ، أو تأكيد الجمل الاسمية ببدئها بحرف ، واستخدام صيغة المثني ، وإضافة تاء التانيث في نهاية بعض الاسماء والصفات المؤنثة ، واستخدام تمييز البعض عن الكل ، واستخدام ياء النسبية وياء الإضافة للمتكلم ، وكاف المخاطب في حالة المضاف اليه والمعطى له ، وكذا نون الجمع وواو الجماعة ، وإضافة ميم المكان وميم الاداة لتكوين أسماء مركبة ، وكل ذلك مما لا يتأني إلا عن طريق وحدة الأصل بين اللغتين^(١).

وقد رأينا في الفصل الخاص بالرواسب الفولكلورية المتبقية في الحياة المصرية المعاصرة ان هناك كلمات قبطية أو مصرية قديمة لا تزال تستخدم إلى اليوم في لغتنا الدارجة ، ونضيف هنا أن هناك كذلك مفردات كثيرة مشتركة بين اللغة المصرية القديمة واللغة العربية الفصحى سواء المهجورة أو المستعملة إلى اليوم ، وسواء كانت تنطق بنصها أو مع تغييرات طفيفة نتيجة لاختلاف اللهجات المكانية ، ومنها أفعال وأسماء مختلفة ، فمن الأفعال التي تستخدم في اللغتين بنصها ومعناها : حسب . فهم . ختم . خب . خر . شد . تم . تم . بخر . وهي . وهن . هوى . زعق . عشق . حزن . نقم . نعى . قطف . بصق . ومن الاسماء : ذئب . جناح . قمح . سبي . قد . موت . منامة . يم . بركة . منحة . مهمة . حطمة . عين . صباع (اصبع) أيد (يد) ودن (أذن) .

(١) د. عبد العزيز صالح : مقال بالاهرام في ١٩٦٩/٨/٦ .

وهناك أيضاً مشابهات في الضمائر ، فضمير أنا العربي هو أنوك الفرعوني ، ومعني كان ينطقها المصريون القدماء (م . عاي) ومعنا ينطقونها (م . عانا) وممك ينطقونها (م . عاك)^(١).

وقد لمس كثير من العلماء ذلك التشابه القوي بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية التي بلغت قمة رقيها في العربية الفصحى ، ومن هؤلاء برستيد في كتابه « تاريخ مصر منذ أقدم العصور » فقال « ان اللغة المصرية قد حافظت على ساميتها بمرور الزمن وبالرغم مما طرأ عليها من تغيير وتحريف باختلاط السكان » وأحمد كمال في كتابه « تاريخ السودان القديم » فقال « ان أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد وأن الاختلاف الظاهر بينها ليس إلا نتيجة إسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل أو العكس ثم نتيجة لمسا يعتري الكلمات من القلب والإبدال وما يطرأ على اللغات من تغير بمعاملة الأجانب » وأحمد نجيب في كتابه « الأثر الجليل لسكان وادي النيل » فقال « ان أصول اللغة المصرية مشتقة من اللغات العبرانية والآرامية وأن الضمائر المتصلة والمنفصلة متشابهة » والمؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه « التاريخ الكبير العام » فقال ان بين اللغة المصرية واللغات السامية في مفرداتها وصرفها ونحوها مشابهة كبيرة تسوغ القول انها من أصل واحد « وجوستاف لوبون في كتابه « الحضارة المصرية » فقال ان كل جذور اللغة المصرية القديمة ومعظم قاموسها يتركب من عناصر سامية حتى أجروميتها فيما يتصل بتركيب المؤنث والجمع » وأدولف ارمان وهرمان رانكة في كتابهما « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » فقالا « ان من الممكن ارجاع اللغة المصرية القديمة الى الافريقية الشرقية والشمالية التي امتزجت بهما » ويؤثر عن العالم الاثري أحمد كمال انه وضع قاموساً يحوي

(١) المرجع السابق .

آلاف المفردات المصرية القديمة التي تشترك في المعنى أو المبنى مع المفردات العربية^(١).

وفي مجال المعتقدات الدينية كذلك نجد تأثيراً كبيراً متبادلاً بين العقائد المصرية والعقائد السامية نتيجة لهذه الاتصالات الوثيقة بين الشعبين ، فنجد مصر تستضيف من الآلهة السامية بعل ورشف وكوثار وعنات من أرباب الطبيعة والحرب ، وعشتار وقدهش من ربات الخصوبة والشفاء والحب . ونجد الساميين يشيدون المعابد لكثير من الآلهة المصرية مثل آمون وتياح وحتحور ، وكان لذلك أثر كبير في تخفيف حدة التعصب الديني وحلول روح التسامح بين الشعبين وقد بلغ التسامح الديني مداه في دعوة اخناتون التوحيدية التي تشمل جميع الشعوب والأجناس ، وكان اخناتون يذكر في أناشيده اسم مصر بعد البلاد الأخرى^(٢).

* * *

وعلى ذلك يمكن القول باطمئنان ان مصر لم تكن غريبة على العرب، والعرب لم يكونوا غرباء على مصر عند الفتح الاسلامي ، وإنما جاء هذا الفتح قمة لتلك العلاقات العرقية والثقافية والحضارية الضاربة في أعماق تاريخ الشعبين ، وكان ذلك من أهم الأسباب التي مكنت للعرب الفاتحين في مصر وجعلت المصريين —

(١) عن محمد عزة دروزة: عروبة مصر قبل الاسلام وبعده ص ٨٣ - ٨٤ ويقرر دروزة ان وسيطا نقل اليه عن المؤرخ المصري سليم حسن ان ٦٥ ٪ على الاقل من مفردات اللغة المصرية القديمة سامية .

(٢) د. عبد العزيز صالح : المرجع السابق .

وهم الذين استعصوا على الرومان رغم جبروتهم - يرحبون بالعرب الفاتحين ويختلطون بهم في شعب واحد .

والواقع ان كل منطقة الشرق الأدنى القديم كانت مسرح صراع مزمن بين الجدسين السامي والآري ففي بداية الألف الثاني قبل الميلاد بدأت الأجناس الهندية - الأوروبية تتدفق على منطقة الهلال الخصيب مرتع الجنس السامي ، فنزل فرع من هذا الجنس الآري وهم الحيثيون إلى سوريا الشمالية واستولوا على جلبميش وحلب وضربوا بابل بعد عزها القديم في عهد حامورابي ، ونزل فرع آخر وهم الكاسيون جنوباً من تلالهم الشمالية الشرقية في زاجوراس إلى السهول البابلية الخصبة وحكوا بابل عدة قرون بعد أن ضربها أقاربهم الحيثيون ، وواصل فرع ثالث وهم الخوريون التقدم جنوباً نحو سهل خابور ووسط الفرات حيث أنشأوا مملكة ميتاني ، وتقدم فرع رابع وهم الهكسوس إلى مصر^(١).

وقد تمكنت الشعوب السامية بعد صراع مرير من ارغام هذه التدفقات الآرية على الانحسار والارتداد نحو الشمال ، ولكن لم يلبث أن أخذ الضغط الآري يتجدد بشدة مرة أخرى خلال الألف الأول قبل الميلاد حين وقعت منطقة الشرق الأدنى تحت حكم الفرس ثم الأغريق فالرومان وظلت هذه السيطرة الآرية قرابة ألف عام حتى ظهر الاسلام الذي أعاد السيادة إلى العنصر العربي السامي ، ولذلك فعندما أهلت رايات الاسلام تحملها ثلة صغيرة من الفرسان العرب الفاتحين رحب بها المصريون رغم اختلاف الدين بينهم وبين العرب ووحدته بينهم وبين البيزنطيين الآريين ، أو كما يقول فيليب حتي « كان سكان

1) Glanville : The legacy of Egypt : the political approach to the classical World .

مصر يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بني جنسهم تربطهم بهم ما لا يربطهم
بحكامهم البيزنطيين الأجانب الفاصبين، فالفتوحات الاسلامية من هذه الوجهة هي
عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استورد به الشرق الأدنى مجسده السامي
الفاير، وجاء الاسلام مهيباً بالشرق الى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحتها
فيها سطوة الغريب «^(١)».

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ج ١ ص ١٩٤ .

مصر ترحب بالفتح العربي

خلال القرنين الأخيرين من الحكم البيزنطي أي من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الميلاديين تدهورت أحوال مصر تدهوراً بالغاً لم يسبق له مثيل حتى في قمة عصر الاضطهادات الوثنية ، ولم تكن نظرة الحكام البيزنطيين المسيحيين إلى مصر تختلف في شيء عن نظرة أسلافهم الرومان الوثنيين ، فمصر في نظرهم ليست سوى أمراء قسح تمد القسطنطينية بالغذاء كما كانت تمد روما من قبل ، ولا يهم بعد ذلك ما إذا استقر فيها الأمن أو اضطرب ، سادت الرفاهية أو الشقاء ، وإنما كل ما يهم الدولة وعمالها في مصر أن ينتزعوا آخر حفنة من القمح من قبضة الفلاحين المصريين الذين يقسح على عائقهم عبء الضرائب كاملاً بينما يعفى منه كلياً أو جزئياً الأجانب المقيمون في البلاد الناعمون بنجراتها من بيزانطيين ويونانيين ورومان ويهود .

وأخذت الكوارث تتوالى تباعاً على مصر ، فاختل الأمن ، واضطربت الأحوال ، وانتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، وأغاريت قبائل البدو والنوبة على أطراف البلاد ثم تناوشت قلبها ، وأدى ذلك إلى توقف الكثير من مظاهر الحياة المصرية المألوفة منذ آلاف السنين ابتداء من فلاحية الأرض إلى زيارة المعابد والكنائس .

وفي عهد الامبراطور انستاسيوس (٤٩١ - ٥١٨ م) أغار الفرس على مصر ، وأحرقوا أرباض الاسكندرية ، وتحولت البلاد إلى ساحة دائمة للحرب والصراع .

وازدادت الامور سوءاً باشتداد الصراع في مصر بين الحزبين الأخضر والأزرق ، ولم يكن الخلاف بينها على أي أسس مذهبية أو دينية أو مبدئية ، وإنما هو مجرد صراع شخصي للحصول على المكاسب والامتيازات ، وكان أنصار الحزبين يقتتلون في الشوارع ويرتكبون شتى أنواع الجرائم وهم بمنسأى من العقاب .

غير أن أسوأ ما تعرض له المصريون في ظل الحكم البيزنطي تلك المظالم والاضطهادات التي كانت ترتكب في حقهم باسم الدين ، فقد كان المصريون يختلفون عن حكامهم البيزنطيين في المذهب الديني حول طبيعة المسيح هل هي إلهية وناسوتية كما يقرر مذهب الدولة الرسمي أم إلهية فقط كما استقرت عليه الكنيسة المصرية منذ مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ؟

هكذا أصبحت مصر خلال القرنين السابقين للفتح العربي ساحة للمعارك الدامية بين الأحزاب والمذاهب السياسية والدينية ، ومرتعاً للصوص وقطاع الطرق والمغيرين البرابرة ، وأصبحت جرائم القتل شيئاً مألوفاً في شوارع المدن وأزقة القرى ، وانتشرت الأوبئة والمجاعات ، وما أن أهل القرن السابع الميلادي حتى كان أقباط مصر قد وصلوا إلى حالة تستحق أعمق الرثاء ، فقد انهارت قواهم الذاتية ، وتفرقت صفوفهم ، ودب فيها الفناء ، وبادت زراعتهم وتجارتهم وصناعتهم ، وحل بهم الجهل والقحط والوباء ، وفقدوا كل أمل في الخلاص ، وأصبحوا يرحبون بكل ما يمكن أن يخلصهم من هذه الشدة

المقيمة ، فرحبوا أولاً بانقلاب هرقل ، ثم بالغزو الفارسي ، وأخيراً بالفتح العربي .

* * *

عند مطلع القرن السابع الميلادي كان يجلس على عرش القسطنطينية امبراطور فاسد كريب يدعى فوكاس ، كان قائداً للجند واستطاع بعد سلسلة من المؤامرات والمذابح أن يغتلي العرش عنوة واغتصاباً ثم صب جام ظلمه وبلاءه على الناس ، وبادله الناس في جميع أنحاء الامبراطورية كراهية بكراهية .

دفعت هذه الأحوال القائد الشاب هرقل قائد حامية بنطابوس بشمال أفريقيا إلى شق عصا الطاعة على الامبراطور فوكاس وقرر الزحف على القسطنطينية لاسقاطه . وقسم هرقل قواته إلى جيشين تولى هو قيادة أحدهما بجرأ نحو القسطنطينية ، وتولى قيادة الجيش الآخر القائد نيسيتاس الذي اتبع طريق البر نحو مصر فالشام فأسيا الصغرى لتطويق قوات فوكاس البرية .

وعندما وصل جيش نيسيتاس إلى مصر قادماً من الغرب في عام ٦١٠ م رحب به المصريون وأعانوه على جند فوكاس بينما كان هرقل قد تمكن من اقتحام القسطنطينية والتغلب على فوكاس الذي لقي شرمية على يد جماهير الشعب في مذبح الثيران .

واستقر الأمر لهرقل على عرش الامبراطورية فأقر نيسيتاس في حكم مصر ، وأراد نيسيتاس أن يرد جميل المصريين الذين أعانوه على النصر فأحسن معاملتهم واطلق سراح سجنائهم ، وأبدى كثيراً من التسامح نحو مذهبهم الديني ، وسمح

(١) المرجع الاساسي للاحداث السابقة على الفتح العربي : بتلر : فتح العرب لمصر ترجمة فريد أبو حديد .

لهم ببناء الكنائس ومزاولة عبادتهم بأمن من الاضطهاد ، كما عقد صلحاً بين
الحزبين الأخضر والأزرق ، وأدت هذه الاجراءات إلى استتباب الأمن والنظام ،
وتنفس المصريون الصعداء .

وخلال حكم نيسيتاس تولى أمر الكنيسة الملكانية البيزنطية في مصر البطريرك
حنا الرحوم الذي اشتهر بطيبته وعدله فأحل روح الوفاق بين الكنيستين
الملكانية واليعقوبية وأحبه المصريون حتى لقد رفعت الكنيسة القبطية إلى مرتبة
قديسيها ، وكان الود بين حنا الرحوم بطريرك الملكانيين وانستاسيوس بطريرك
القبط اليعقوبيين مضرباً للأمثال .

ولكن هذه البعوضة السياسية والدينية لم تستمر سوى سنوات قليلة ،
وسرعان ما هبت تلك العاصفة الجائحة من الشرق .. غزو الفرس .

ففي أوائل العقد الثاني من القرن السابع الميلادي خرجت جيوش كسرى
امبراطور الفرس محتاج أملاك الامبراطورية البيزنطية غرباً ، وكان العداء بين
الامبراطوريتين قديماً مستحكماً يثور أحياناً ويخمد أحياناً ويتبادل الطرفان
الهزائم والانتصارات ، ولكن في هذه المرة كان الفرس يضمرون توجيه الضربة
القاضية للامبراطورية البيزنطية ، فجهز كسرى قوات غفيرة العدد وافرة
العدة وخرج من عاصمته المدائن قاصداً تحطيم خصمه في عقر داره ، واكتسحت
القوات الفارسية كل شيء في طريقها حتى وصلت إلى أرمينيا فانقسمت إلى
جيشين واصل أحدهما الاندفاع غرباً متوغلاً في آسيا الصغرى نحو القسطنطينية
واتجه الآخر جنوباً نحو الشام ومصر .

واستطاع هرقل بعد جهد كبير أن يوقف تقدم الجيش الفارسي عن أسوار
القسطنطينية ، ولكنه لم يستطع أن يرده على أعقابيه ، وبقي هرقل محاصراً
داخل أسوار عاصمته لا يتعداها بينما اجتاحت القوات الفارسية كل أملاك

الامبراطورية البيزنطية جنوباً دون مقاومة ، فاستولت على الشام واقتنعت بيت المقدس واستولى الفرس على الصليب المقدس من مستقره بكنيسة القيامة وأعملوا المذابح في المسيحيين ففر الكثيرون منهم إلى مصر والجزيرة العربية هرباً من الفرس عبدة النار .

وبعد استيلاء الفرس على الشام في عام ٦١٧ م تقسّم جيش فارس بقيادة القائد شاهين إلى مصر فاستولى بلا مقاومة على العريش والفرما وممفيس والدلتا ثم وقف عاجزاً أمام اسوار الاسكندرية المنيعة فانتقم بتدمير كل المناطق المحيطة بالمدينة وكانت ذاخرة بالكنائس والاديرة القبطية ، وبعد حصار طويل تمكن الفرس من اقتحام المدينة عن طريق البحر بفضل خيانة يهودي أجنبي مقيم بها ، وعندما اقتحم الفرس الاسكندرية وكانت عاصمة البلاد فر الحاكم نيسيتاس والبطريرك حنسا الرحوم على ظهر سفينة قاصدين القسطنطينية ، وانتهى بذلك عصر قصير استنشق فيه المصريون نسيم العدل والتسامح .

ويؤكد بتلر استناداً إلى أدلة كثيرة ان القبط لم يساعدوا الفرس على غزو بلادهم ولم يرحبوا بهم في أول عهدهم خلافاً لما يشاع ، وقد رد الفرس على مقابلة المصريين لهم باضطهاد رجال الدين الاقباط اضطهاداً بالغاً فاشبعوهم قتلاً ونكالا ، وخرّبوا كنائسهم وأديرتهم ، وصعدوا في النيل جنوباً ينشرون الدمار حولهم فلم تكد تنجو من شرهم بلدة أو قرية على ضفتي النيل حتى أسوان .

ولكن الامور تحسنت بعض الشيء مع استقرار الحكم الفارسي في مصر ، والغريب ان الفرس الذين اشتهروا بالوحشية في الحرب اشتهروا بالتسامح في زمن السلم ، وكان كسرى رغم عداوته للدولة البيزنطية يكن احتراماً للدين المسيحي وبخاصة المذهب المونوفيسي الذي يعتنقه الاقباط المصريون والطوائف الشرقية المسيحية حتى انه حاول أن يفرضه كمذهب أوحيد لجميع المسيحيين في

امبراطوريته ولذلك لم يحاول الفرس ارغام المصريين على التخلي عن عقائدهم بل أمنوهم إلى حد بعيد على دينهم ودينامهم واتسم حكمهم بالتسامح والرحمة وسمحوا للمصريين بتولي الوظائف العامة في ادارة بلادهم بعد رحيل البيزنطيين عنها ، وفي عهدهم ارتقى كرسي المكرازة المرقسية الانبا بنيامين الشهير الذي شهد احداث الفتح العربي فيما بعد .

وما كاد المصريون يلتقطون أنفاسهم خلال الحكم الفارسي الذي استمر عشر او اثني عشر عاماً حتى ردوا مرة اخرى إلى ابشع الشقاء عندما استعاد الروم البيزنطيون مصر من أيدي الفرس .

وقد كان انتصار الروم على الفرس آخر الأمر شيئاً أشبه بالمعجزة ، فقد رأينا كيف اجتاحت الجيوش الفارسية الامبراطورية البيزنطية واختصرتها إلى حدود عاصمتها مما أسقط في يد الامبراطور هرقل وظل عاجزاً عن التصرف زهاء عشر سنوات ، وحاول هرقل أن يحصل على السلم بأي ثمن ، فبعث رسولا إلى كسرى يعرض عليه الصلح ، ولكن كسرى رد على رسول هرقل رداً خشناً بقوله « قل لمولايك أن دولة الروم من أرضي ، وما هو إلا عاص ثائر ، وعبد آبق ، ولن أمنعه سلاماً حتى يترك عبادة الصليب ويسجد للنار » وفكر هرقل في الفرار أو في نقل مقر حكمه إلى شمال أفريقيا . ولكن سرجيوس بطريرك القسطنطينية استطاع أن يثنيه عن عزمه ويحضه على الجهاد ، وبعد تردد وتحاذل طويلين قرر هرقل الامتثال لرأي البطريرك ، ورفع راية الجهاد ضد الفرس ، وانتشرت الحمية الدينية في نفوس المسيحيين ، فتقاطروا على حمل السلاح ، واستطاع هرقل بخبرته وحنكته في تنظيم الجيوش اعداد جيش قوي يضم ١٢٠ ألف مقاتل بدأ به مسيرة الجهاد يوم عيد الفصح عام ٦٢٢ م .

دامت الحرب سجلاً بين الفريقين ست سنوات متعاقبة وانتهت بانتصار

الروم نصراً مبيناً ، وتقهقرت فلول جيش كسرى إلى مدينة وستجرد الفارسية التي لا تبعد عن العاصمة المدائن بأكثر من ثمانين ميلاً ، وعندئذ حاول كسرى الهرب نجاة بنفسه ، ولكن خليفته شيرويه قبض عليه وقتله وأحرق قصره ودخل في الصلح مع الروم ، وعاد هرقل حاملاً الصليب المقدس فدخل القسطنطينية مظفراً منصوراً وأعلن النصر المؤزر على منبر كنيسة أيا صوفيا .

وبعد كسر شوكة الفرس بعث هرقل جيشاً إلى مصر في شتاء عام ٦٩٢ م أعاد فتحها بسهولة .

وهكذا تحققت تلك النبوءة العجيبة التي خرجت من أقصى الجنوب ، من بلاد العرب القاحلة ، قبل بضع سنوات عندما نزل الوحي على الرسول العربي محمد بالآية الكريمة « غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين » ، ومن اعجاز القرآن أن تنزل هذه الآية والفرس في ذروة انتصارهم وبينما كان العرب الوثنيون في قمة شماتتهم بالمسلمين لهزيمة الروم وهم أصحاب كتاب أمام الفرس وهم عبدة أوثان !

وعزم هرقل على أن يكمل نصره الخارجي بتحقيق وحدة الامبراطورية في الداخل ، وقرر أن يضع حداً للانقسامات الدينية التي تمزق امبراطوريته فطلب من كبار رجال الاكليروس ايجاد صيغة توفيقية بين مذهب الطبيعة الواحدة ومذهب الطبيعتين ، وتوصل هؤلاء إلى صيغة توفيقية تعرف بالمذهب « المونوتيلي » تقوم على الاعتراف بأن للمسيح ارادة واحدة ومنع الخوض في ماهية طبيعته نفسها وهل هي واحدة أم ثنائية .

لقد أريد بهذه الصيغة أن تكون مخرجاً عملياً من تيه الخلاف المذهبي حول طبيعة المسيح وما يرتبط بها من تخريجات ميتافيزيقية وفلسفية لا نهاية لها ولا

جدوى من ورائها ، ثم هي تقدم في نفس الوقت حلاً يرضي أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الذي يعتنقه أقباط مصر ، بل هي في الواقع تنطوي على تنازل واضح لهم ، فما دامت للمسيح ارادة واحدة - كما يقول المذهب المقترح - فلا بد أن تكون هذه الإرادة إلهية لأنها لا يمكن أن تكون إرادة إنسانية فحسب لأن القول بذلك ينفي ألوهية المسيح ، وفي هذا انهيار للفكرة الرئيسية التي تقوم عليها المسيحية .

وبعث هرقل بأسقف فاسيس المدعو قيرش وهو من كبار رجال الدين الملكانيين وأحد الذين اشتركوا في وضع صيغة التوفيق إلى مصر ليتسولي بطريركية الاسكندرية وزوده كذلك بالسلطة الزمنية ، وأمره بأن يسمى إلى تحقيق وحدة المذهبين المولوفيسي والملكاني في المذهب المونوثيلي الواحد .

تولى قيرش أسقف فاسيس كرسي البطريركية الملكانية بالاسكندرية في خريف ٦٣١ م وكله ثقة وأمل في انجاز مهمته ، ولكن سرعان ما اتضح ان مهمته كانت أصعب مما يتصور ولم تلبث ان اسفرت عن نتيجة عكسية تماماً ، فبدلاً من أن تكون وسيلة لتوحيد الكنائس المسيحية زادت من هوة الخلاف بينها ، وقطعت آخر خيط واه يصل بين المصريين وحكامهم البيزنطيين .

لقد خيل لقيرش في البداية انه يحرز نجاحاً مطرداً في مهمته التوفيقية التي توسل لتحقيقها بكافة سبل الاقتناع والحداد والشدة ، وكان يبالي في وصف هذا النجاح لهرقل ويصور له أن حله على وشك أن يتحقق وان الونام سرعان ما سوف يحل بالكنيسة المنشقة ، ولكن الأمور كانت في الواقع تسير على عكس ما يشتهي ويتوقع .

لقد كان المذهب المونوثيلي الجديد يعد في جوهره تنازلاً للكنيسة القبطية لأنه في التحليل الأخير يعترف بالوهية المسيح حين ينفي ان ارادته ناسوتية ،

ولم يكن المطلوب من المصريين سوى أن يكفوا عن البحث في طبيعة المسيح وكنهه غير أن أقباط مصر بما درجوا عليه من صلابة وعناد رفضوا. أن يفعلوا ذلك بل قالوا ما دام هذا المذهب يعترف بأن إرادة المسيح إلهية واحدة فلماذا لا يعترف كذلك بأن طبيعته إلهية واحدة ؟ لا بد أن في الأمر خديعة ما !

ويقول بتلران هذا الموقف لم يكن مرجعه أسباباً دينية أو منطقية بقدر ما يرجع إلى أسباب قومية ، فقد كان الهدف اللاشعوري للمصريين التمسك باستقلالهم الديني أو المذهبي عوضاً عن الاستقلال القومي الذي فقدوه منذ قرون .

كان يـلي كرسي الكرازة المرقسية في ذلك الحين الانبا بنيامين وهو من أقوى آباء الكنيسة القبطية في كل العصور وكان شخصية شعبية بحبوبة بقدر ما كان صلباً في الحق لا تلين له قناة ، وعقد الانبا بنيامين مجمعاً لرجال الدين والشعب بالاسكندرية حثهم فيه على الثبات على عقيدتهم إلى أن توافيهم المنية ، وتنبأ بموجة قاسية من المحن والاضطهادات تستمر عشر سنوات وبعدها ينجلي الغم ، وكتب بنيامين إلى جميع الأساقفة والقسس بأمرهم أن يلوذوا بالصحارى والجبال حفاظاً على عقيدتهم الدينية ، وخرج هو إلى الصحراء الغربية ومنها إلى الصعيد حيث استقر في دير صغير بالقرب من قوص .

وأطلق قيرش آخر سهم في جمعته ، فوضع صيغة توفيقية أخرى للمذهب المونوثيلي الجديد ، ولكن المصريين لم يروا فيها إلا أنها أكثر كفراً وقبحاً من الصيغة الأولى . وهنا استشاط قيرش غضباً ، وفقد كل المقدرة على الصبر والملاينة ، فرمى المصريين بأقبح الصفات ، وتخلّى عن محاولة اقناعهم بالمذهب الجديد في أية صورة من صوره وأمرهم باعتناق مذهب الطبيعتين نفسه كما أقره

جمع خلقدونيا بدون قيد أو شرط .. وبدأت الاضطهادات التي تنبأ بها الانبا بليامين .

وكانت هذه الموجة من الاضطهادات أشد وأنكى من أية اضطهادات شهدتها المصريون من قبل ، فقد سالت دماء القسس والرهبان ، وغصت بهم السجون ، وهدمت الكنائس والبيع وتعرض المصريون عموماً لشر النكال .

ومن صور هذه الاضطهادات التي تزخر بها كتب التاريخ أن الجند البيزنطيين القوا القبض على ميناس شقيق الانبا بليامين في الاسكندرية ، وأخذوا يلسعونه بنيران المشاعل « حتى سال الدهن من جنيبه على الأرض » ثم نزعوا أسنانه واحدة وراء الأخرى ، ولكنه لم يتزعزع عن عقيدته فوضعه في زكينة مثقلة بالرمل وتوغلوا به في البحر ، وعرضوا عليه النجاة ثلاثاً ان هو أقر بمذهب خلقدونيا ، فرفض ، فألقوا به حيث استقر في قاع البحر .

وسيق الراهب صمويل القلموني - بعد أن تزعم تمرداً قام به رهبان دير قلمون - إلى قيرش وهو مقيد اليدين من خلاف وقد وضعوا في عنقه طوقاً من الحديد يسحبونه منه ، وأمر قيرش جنده أن يضربوه حتى سال دمه كما يسيل الماء ، وسأله لماذا يحرض الرهبان وينكر مذهب الطبيعتين ، فرد عليه الراهب قائلاً وهو يعرف أن مصيره هو الموت : « ان البر في طاعة الله والبطريرك بنيامين وليس في طاعة قيرش والدخول في مذهب الشيطاني ، يا سلالة الشيطان ! يا أيها المسخ الدجال ! » .

ودبر المصريون مرة مؤامرة للتخلص من قيرش نسجوا خيوطها في كنيسة دفاشير بالقرب من مريوط ، ولكن خبر المؤامرة نمت إلى السلطات فهاجم جند

قيرش كنيسة دفاشير ، وساقوا المتأمرين إلى التنكيل والقتل الجماعي بدون محاكمة أو تحقيق .

وبلغ من قسوة الاضطهادات ان كان الاقباط يلقي بهم أحياناً في الحمامات العامة لتكون لحومهم وعظامهم وقوداً لنيرانها .

ولكن كل ألوان العقاب والنكال من قتل واحراق وسجن وتعريض للسم العقارب لم تزد المصريين كماداتهم إلا صلابة وعناداً ، فجاهروا بالعداء لقيرش وهرقل ، وصبوا عليها الشتائم واللعنات ، ولعن قيرش في وثائق الكنيسة القبطية بأنه كافر وزنديق ومسيخ دجال ، وكان بنيامين - وقد بث قيرش حوله العيون والأرصاء - يتنقل في الحفاء من دير إلى دير في الصعيد وفيافي الصحراء يشد أزر شعبه ، ويحث على المقاومة والصمود ، واستمرت موجة الاضطهادات عشر سنوات - كما تنبأ بنيامين - قتل خلالها خلق كثيرون ، وارتد البعض عن عقيدتهم تحت الوعد والوعيد ، وهدمت معظم الكنائس القبطية ونهبت كنوزها وذخائرها ، واستحكمت العداوة والبغضاء استحكاماً تاماً في نفوس المصريين تجاه جلاذيتهم البيزنطيين ، وصاروا يتطلعون إلى أية قوة تنقذهم من هذا البلاء المقيم .

وفجأة ، وفي قمة اليأس القاتل فتح باب الخلاص على مصراعيه بمقدم الفاتح العربي عمرو بن العاص ..

* * *

لم تكن هناك قوة واحدة في مصر راضية عن الوضع القائم أو تستطيع الدفاع عنه ان هو حاز رضاها ، فجميع القوى اما مؤيدة للفتح العربي ، أو غير قادرة على صده ، أو تقف منه موقف الحياد .

فالمصريون - كما رأينا - وهم اصحاب البلاد الحقيقيون والشرعيون والسواد الأعظم من سكانها كانوا يكرهون حكامهم البيزنطيين كراهية لا حد لها ويتوقون للخلاص منهم بأي ثمن وهم لا ينقمون فحسب على رؤساء الدولة في القسطنطينية ومثلها وجندها في مصر بل ينقمون كذلك على المستوطنين الروم المحليين الذين يستأثرون دونهم بمناصب البلاد وخيراتها ويقفون منهم موقف الغطرس والغرور .

ويقال ان الانبا بنيامين رأى في منامه قبيل الفتح ان مصر ستفتح لأناس مختونين تجد خلاصها على أيديهم ، وذكر ابن عبد الحكم صاحب أقدم كتاب عن فتح مصر أن الانبا بنيامين عندما بلغه مقدم عمرو بن العاص جمسع أساقفته وأبلغهم انه لا تكون للروم دولة في مصر ، وأن ملكهم قد انقطع وأمرهم بتلقي عمرو . والثابت ان القبط كانوا عوناً للعرب في فتح بلادهم خاصة عندما زحف عمرو إلى الاسكندرية فكانوا يرمون لهم القناطر والجسور ، ويحضرون لهم المؤن والمعلومات المفيدة ، ويحاصرون معهم قلاع البيزنطيين ويحولون دون اتصالها سويًا . وفي هذا يقول ابن عبد الحكم « فخرج معه جماعة من رؤساء القبط ، وقد أصلحوا لهم الطرق ، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصارت لهم القبط أحوالاً على ما أرادوا من قتال الروم (١) » .

وإلى جانب المصريين كان يسكن البلاد زمن الفتح العربي عدد كبير من اليهود يقدر بنحو مائتي ألف وهؤلاء أيضاً كانوا من القوى المناوئة للسلطة البيزنطية فهم يحملون لها غلا قديماً بسبب ما لقوه من اضطهادات وتشريد على

(١) الرافعي وعاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٣٦ .

يدها ويد سابقتها الدولة الرومانية الغربية ، وفي عهد فوكاس الذي انتقض عليه هرقل تعرض اليهود في مختلف أنحاء الامبراطورية البيزنطية لموجة جديدة من الاضطهاد ، وكان فوكاس يأمر بتعميدهم كسيحيين كرهاً وقتل كل من يرفض منهم الدخول في المسيحية ، وعندما اعتلى هرقل عرش القسطنطينية أمل اليهود في الراحة واستقبلوه عند مقدمه إلى بيت المقدس واستطاعوا أن يستخلصوا منه عهداً بالأمان ، ولكن اليهود لم يلبثوا أن ظاهروا الفرص في جريهم ضد هرقل ، وعندما استرد هرقل بيت المقدس وعرف ما فعله اليهود بالمسيحيين أثناء الاحتلال الفارسي أوغر صدره ضدهم ، واقنعه رجال الدين المسيحي بانتقاض عهده لهم على أساس أنه منحهم إياه قبل أن يعرف جرائمهم ، وتعدوا له بالصوم نيابة عنه اسبوعاً كل سنة تكفيراً عن ذنبه ، فأعلن هرقل انتقاض عهده لليهود ، وأعمل فيهم مذبحة كبرى أبادتهم في فلسطين ، وغر من نجا منهم إلى مصر وغيرها من بلاد المنطقة فكانوا عند الفتوحات الإسلامية يحملون سخيمة كبرى للروم (١) .

وكانت ثمة قوة ثالثة تقطن مصر زمن الفتح العربي وأصبحت عوناً للعرب الفاتحين وهي قوة البدو المنحدرين من أصول عربية قديمة أو حديثة ، وهؤلاء كانوا يسمون بالبشموريين ويقيمون في الحواف الشرقي على اتساع المراعي الواسعة على تخوم الصحراء الممتدة بين البحيرات الشمالية وأودية الجنوب ، وقد عاونوا العرب الفاتحين كما عاونهم بدو الشام ، ويقول الاستاذ العقاد : وإذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة بشمورية علمنا أن أقسام البادية

(١) عباس العقاد : عمرو بن العاص ص ١٣٠ - ١٣٣

العربية لم تتغير كثيراً من قديم الزمن وأن عمرو بن العاص قصد الفيوم قبل منف على علم بأصول هذه السلالة (١) .

أما القوة الرابعة فكانت قوة المستوطنين الروم وهؤلاء لم تكن تربطهم بالدولة البيزنطية وحدة الوطنية أو القومية بل رباط المصلحة في الحل الأول والمذهب الديني في الحل الثاني ، فهم لم يكونوا من جنس واحد ، بل كانوا مزيجاً من الروم واليونان والسريان ومختلف العناصر ذات الثقافة الهلينية المسيحية التي تقاطرت على مصر في أزمنة مختلفة ، وكانوا يعتمدون على القسطنطينية وجندھا للمحافظة على مصالحهم المحلية في مصر وللتغلب على أية مقاومة يبديها المصريون ولذلك كانوا القوة الوحيدة التي أبدت إلى جانب الجند البيزنطي مقاومة ضئيلة للفتح العربي ، ولكنهم في الواقع كانوا قد خسروا الحرب قبل أن تبدأ ، فقد استقر في أعماقهم أن الهزيمة لا محالة من نصيبهم ، وإن النصر لا جدال في صالح العرب ، كان اعتقادهم الراسخ أن العرب لا يقهرون ، فها هم قد انتصروا على هرقل في الشام وهو في أوج قوته وانتصاراته الفارسية فكيف يمكنه الصمود الآن في مصر وهو في شيخوخته وهزيمته وضعفه ؟

والواقع انه قد وقر في أذهان الروم جميعاً في شق أنحاء الامبراطورية انهم خطاة آثمون ، وأن العرب سوط عذاب به يقتص الله منهم جزاء اثمهم وخطاياهم ، ولقد قيلت هذه العبارة صراحة في مؤتمر انطاكية وعلى مسمع من هرقل الذي كان يشعر شخصياً بأنه غارق في الخطيئة بسبب علاقته المحرمة بابنة اخته مارتينا .

وفي نفس الوقت كانت أخبار الفتوح الإسلامية تصل إلى أسماع المصريين

(١) المرجع السابق : ص ١٣٤ .

أولا بأول ، ها هم العرب يهزمون الروم والفرس ، ويقوضون الامبراطوريات
العاتية ، وينتصرون في السهل والجبل دون أن تستطيع قوة أن تقف في وجههم ،
وهم إلى جانب ذلك حملة عقيدة سمحاء ، ويسرون بين الناس بالرحمة والعدل ،
ان الخليفة العربي عمر بن الخطاب يرفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يطالب
بها المسلمون من بعده ، ويعطي عهداً بالامان لبطريك بيت المقدس ، ثم أن
العرب من قبل ومن بعد أبناء عمومة المصريين فهم أبناء اسماعيل من هاجر
المصرية ، وأقرب اليهم من أي جنس آخر ، وها هو النبي العربي يستوصي
بأقباط مصر خيراً فان لهم ذمة ورحمة .. وهكذا كان المصريين مهياًين تماماً
لاستقبال الفتح العربي والتعاون مع الفاتحين .

تعريب مصر

[٣]

عندما استتب الأمر لعمر بن العاص في مصر ودانت له البلاد حتى الاسكندرية استهل عهده بأن أرسل يستدعي الانبا بنباهين من صومعته في البرية ، وبعث اليه عهداً يؤمنه فيه على حياته وحياة القبط ويطلب منه العودة إلى كرسيه ومباشرة شئون كنائسه ، ثم أعلن عمرو على رؤوس الاشهاد بعد ان التقى بالبطريرك بنيامين انه لم يشاهد في حياته كلها كاهناً مسيحياً أظهر ذيلاً وأنقى صحيفة وأجل منظراً منه^(١).

هذا الموقف يذكرنا على الفور بموقف الاسكندر الأكبر بعد فتح مصر عام ٣٣٣ ق.م. فقد كان المصريون عند دخول الاسكندر يثنون تحت النير الفارسي الذي أذلهم وقضى على كرامتهم وقوميتهم وسحق ثوراتهم بدون رحمة ، ولذلك استقبل المصريون الاسكندر كمنقذ ورموه فرعوناً بهذه الصفة ، واحترم الاسكندر تقاليد المصريين عرفاناً منه بحضارتهم العريقة التي كانت ماثلة بقوة

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ج ١ ص ٢٢٠

د . حكيم أمين : دراسات في تاريخ الرهبانية والديرية المصرية ص ٢٦٥ .

في ذهنه الأغريقي رغم مظاهر اضمحلالهم المتأخر . وكذلك كان دخول عمرو بن العاص مصر بعد قصة اضطهاد مريير على أيدي البيزنطيين ، فقد وجد المصريين في الفتح العربي خلاصاً لهم ، وكان عمرو - مثلما كان الاسكندر - يذكر ما لمصر من شهرة أسطورية ، ويذكر الكلمات الطيبة التي قالها الرسول عن القبط وتوصيته بهم خيراً ، فأحسن معاملتهم ، ونعم المصريون في عهده بحالة من الحرية الدينية والمدنية لم يألّفوها من زمن طويسل ، فارتفع عنهم اضطهاد البيزنطيين ، وسمح لهم ببناء الكنائس وخصصت دخول سنوية لأديرتهم ، ويعترف المؤرخ سيرتوماس أرنولد بأن أقباط مصر الذين ذاقوا الأمرين في العصر البيزنطي وجدوا في الاسلام حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان^(١).

وسار عمرو في سياسته بمصر بالعدل راعياً العهد الذي قطعه لأهلها ، وكان يعرف جيداً ماذا تصلح به هذه البلاد التي يسمى فيها القيروط كما قال رسول الله ، فهو القائل في خطاب بعث به الى الخليفة عمر بن الخطاب « والذي يصلح هذه البلاد وينميها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمة إلا في أوانها ، وأن يصرف ارتفاعها في عمل جسورها وترعها ، فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال »^(٢).

وحرم عمرو أن يؤذى المصريون في أجسامهم استيفاء للضرائب ، وتعهّد بأن لا يزيد عليهم الضرائب وهي جنيهاً للرأس فيما عدا الشيخ والمرأة والطفل ، واتبع عمرو هذه السياسة بدقة حتى لقد حاسبه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان على قلة خراج مصر وعزله الثاني لهذا السبب ، وعندما قال له عثمان بعد أن ولي عبدالله بن ابي سرح على مصر وبعث هذا مزيداً من الخراج « أرى اللقاح

(١) الرافعي وعاشور ص ٣١

(٢) عباس العقاد : عمر بن العاص .

(البقرة) قد درت من بعدك يا عمرو « أجابه قائلاً « حين أعجفتم فصالحيا «
وفي رواية أخرى «ولكنها أضرت ببنيها « وحين عزل عمرو بعد ولايته الأولى
لم يتخلف عنده من المال ما يغنيه لفرط عدله وعفة يده وإلا ما قال له عثمان
« أرى جبتك قملت منذ عزلناك » (١).

ولا شك أن هذه السياسة العادلة فتحت قلب المصريين للقادمين بمقيدتهم
الجديدة وأسلوبهم الجديد .

ولأول مرة منذ زمن طويل أصبح للمصريين دور في إدارة بلادهم رغم انعقاد
السيادة لحكام جدد ، فقد استخدم العرب الفاتحون القبط في كثير من الوظائف
والشئون وبخاصة في جمع الضرائب والأعمال الحسابية ، وأحلوهم في إدارة
بلادهم محل الروم الذين غادروا البلاد تبعاً ، وأبقوا من كان منهم في وظائف
عامة قبل الفتح العربي في نفس وظائفهم وأعمالهم ، فكان منهم حكام الكور
ورؤساء للدواوين بالإضافة إلى شتى الوظائف الصغيرة ، ومن هؤلاء عامل يدعى
ميناس استبقاه المسلمون في عمله كحاكم للمنطقة الشمالية ، وآخر يدعى شنودة
وكلت اليه حكومة الريف ، وثالث تولى حكومة الفيوم ، وكان بالحكومة
المركزية في القسطنطينية كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى ، وبرز
في عهد مروان بن عبد الحكم كاتب قبطي يدعى اثناسيوس الرهاوي بلغ درجة
الرئاسة على ديوان الاسكندرية ، وتلقب في المكاتبات الرسمية بلقب الكاتب
الافخم وكان بديوانه تحت رئاسته عشرون كاتباً زيدوا الى أربعة وأربعين ،
وفي عهد عبد العزيز بن مروان كان والي الصعيد قبطياً اسمه بطرس ، وحاكم

* * *

(١) المرجع السابق

مربوط قبلياً اسمه ثاوفانس^(١).

تلك هي الخلقية العامة التي صحبت دخول المصريين في الاسلام بعد الفتح العربي ، ولا جدال في ان الاسلام لم ينتشر سواء في مصر أو غيرها بالقوة والارهاب ، وكما يقول بئر إذا كانت ثمة ظاهرة انتشرت بقوة السلاح فهي سيطرة العرب السياسية وليست عقيدتهم الدينية .

وقد بدأ دخول المصريين في الاسلام في وقت مبكر يعود الى زمن الفتح نفسه ، لقد أسلم فريق من أسرى الاسكندرية عندما خيروا بين الاسلام وإداء الجزية ، كما أسلم عدد من الأقباط وصحبوا الجيش العربي في تحركاته ، وما ان استقر الوضع الجديد حتى اطردت حركة الدخول في الإسلام ولم تنقطع أو تتوقف الى أن أصبح للإسلام الاغلبية الساحقة في مصر .

ولقد حاول بعض المستشرقين تفسير هذه الحركة برغبة القبط في الخلاص من الجزية ، ولكن هذا التفسير ليس له ما يؤيده ، وقد حدث أن الوالي الأموي بشر بن صفوان استعظم تناقص الخراج بسبب كثرة الخارجين عن النصرانية الى الاسلام و اراد أن يضع حداً لهذه الظاهرة وأنبأ الخليفة عمر بن عبد العزيز بذلك ، فأغلظ له عمر القول والمعاملة ، وقال له مؤنباً ان الله قد بعث محمداً هادياً لا جابياً . وإذا كان الاسلام يعفي المسلم من الجزية فانه يفرض عليه الزكاة - وهي ضريبة لا تكاد تقل عن الجزية وقد تفوقها - كما أنه لا يعطيه من خراج الأرض ، ويوجب عليه الجهاد أو التجنيد بينما يعفى منه الذمي ، ومعنى ذلك انه لم يكن هناك تخفيف ذو بال يدفع الذميين الى دخول في الاسلام ، ثم ان الاقبال على الاسلام لم يقتصر على فقراء القبط وحدهم بل انتشر بنفس القوة بين

(١) الراقعي وعاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٣٧ .

د . احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٣١ - ٣٢ .

مرااتهم ووجهاهم ، وقد كانت الجزية دينارين في العام ولا يعقل أن يترك أحد دينه ومعتقداته تهرياً من إداء هذا المبلغ الضئيل لا سيما أن المصريين الأقباط قد عرفت عنهم الصلابة في العقيدة والعناد في الرأي زمن الاضطهادات البيزنطية ، وهم إذ يدفعون الآن دينارين كجزية بعد الفتح العربي فقد أعفوا من ضرائب ثقيلة متعددة كانوا يدفعونها من قبل للبيزنطيين .

والحقيقة أن سر اقبال المصريين على الاسلام تابع مما يتمتع به هذا الدين من قوة استقطاب كبرى نظراً لبساطته وتقدميته واحكامه لا سيما وقد اقترن بعدل الفاتحين ونظرتهم الإنسانية الواسعة ، لقد بدا الاسلام في ذلك العصر أشبه بسراج وهاج يخلب نوره الابصار وتهفو اليه الافئدة هرباً من ظلمات تلك العصور الى نور المستقبل ، فالاسلام لم ينتشر في مصر أو غيرها من الاقطار المفتوحة أو في بلاد العرب نفسها نتيجة للضغط والارهاب ، والتسامح الديني في الاسلام وشعاره « لا اكراه في الدين » فوق الشبهات ، والذي حدث ان النفوس تآقت للاسلام تنسماً لعبير الحرية والكرامة والانسانية كما تتوق الزهرة إلى الضوء الذي ينميتها ، ولندكر مثلاً تلك القصة التي أصبحت مثلاً وعنواناً على عدل المسلمين في مصر وهي قصة المصري الذي ضربه محمد بن عمرو بن العاص لأن فرسه فازت في سباق دون فرسه ، وكيف اقتص الخليفة عمر بن الخطاب المصري من عمرو بن العاص وابنه ، ثم قال عبارته الخالدة « أيا عمرو ا متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » هذه القصة لا بد أن كان لها وقع السحر حين شاعت بين المصريين وهي كفيلا دون شك أن يكون لها أثر في تحبيب الناس في الاسلام ودفعهم اليه أكبر من أثر عشرات الدعاة والمبشرين في الوقت الذي لم يعرف فيه الاسلام نظام التبشير .

ويعتقد كثير من المؤرخين أن من بين العوامل التي ساعدت على انتشار الاسلام في مصر ضيق المصريين والمسيحيين الشرقيين عموماً بالخلافات المذهبية في

المسيحية وشدة المظالم التي صاحبها ، فقد زعزعت هذه الخلافات ثقة المسيحيين في عقائدهم ، وإذا كان المصريون قد تمسكوا حق الموت بالمذهب الارثوذكسي اليقوي في مواجهة الروم فقد كان هدفهم الحقي التمسك بوطنيتهم والحفاظ على كيانهم من الضياع والآن وقد زال هذا المبرر بزوال الاضطهاد الروماني فقد ضعف باتالي مبرر تمسكهم بالمسيحية أصلاً ، وأقبلوا على العقيدة الجديدة السهلة المبرأة من الجدل السقيم .

ويقول المستشرق الايطالي كيتاني واصفاً اقبال المسيحيين الشرقيين على الاسلام : « فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء ، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية وتزعزعت قواعدها الأساسية واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك الحالة قادرة على مقاومة اغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل وحينئذ ترك الشرق المسيحية وارتمى في احضان نبي بلاد العرب »^(١).

وظل الاسلام ينتشر في مصر باطراد لا سيما بعد أن استوطن المهاجرون العرب الريف واختلطوا بالمصريين على نطاق واسع ، ولكن انتشاره لم يكن بمعدل منتظم بل كان يسرع أحياناً ويبطئ أخرى تبعاً لعوامل مختلفة ، ومن الفترات التي سجل فيها التاريخ زيادة كبيرة في معدل الدخول في الاسلام السنوات الأربع بين عامي ١٢٤ - ١٢٨ هـ [٧٤١ - ٧٤٥ م] إذ اعتنق الاسلام في هذه الفترة أربعة وعشرون ألف قبطي^(٢). وكذلك سنة ١٣٨ هـ [٧٥٥ م]

(١) مقتبسة في كتاب « الدين العالمي » للشيخ عطية صقر ص ٦٦

(٢) د . احمد مختار عمر : تاريخ اللغة العربية في مصر ص ٤٣ .

فقد شهدت اسلام الكثيرين من أهل الدمة في مصر حتى لقد أسلم منهم في قليوب وحدها ٤٥٠ شخصاً في يوم واحد^(١)، ومنذ القرن الثالث الهجري أخذ عدد المسيحيين في مصر يتناقص ولم تعد لهم الأغلبية العددية ويعتبر عصر الحاكم بأمر الله [٨٦ - ٤١١ هـ] نهاية للنفوذ المسيحي في مصر^(٢)، وتبدو ظاهرة التحول إلى الاسلام واضحة من استقراء أوراق البردي المصرية في صدر الاسلام، فأوراق القرن الأول الهجري تكثر فيها أسماء المسيحيين في العقود الرسمية والمعاملات المختلفة ، ثم تقل أسماء المسيحيين تدريجاً في أوراق البردي خلال القرن الثاني حتى تصبح الغلبة الساحقة لأسماء المسلمين في أوراق القرن الثالث الهجري^(٣).

* * *

لم يكن تحول غالبية المصريين إلى الاسلام هو ما دفع مصر نهائياً إلى كنف العروبة ، فقد أسلمت شعوب كثيرة في مختلف انحاء المعمورة ودخلت في حكم العرب دون ان تصبح عربية ، ولنضرب مثلاً بفارس التي لم تعرب رغم دخولها في السيطرة الدينية والسياسة العربية ، وفي ذلك يقول فيليب حتي « ان روح الفرس الدفينة لم تمت رغم الحكم العربي ورغم دخولهم الاسلام لقد غلبوا على أمرهم سياسياً ، وأطيح بكثير أو معظم نظمهم ، واحتلت العربية المركز الاسمي في بلادهم ، وصارت لغة الأدب والثقافة ، وتغلغلت إلى الحياة اليومية وتكلم بها الشعب واستمر الحال كذلك حوالي ثلاثة قرون ، ثم استفاق الفرس وأحيوا لغتهم وآدابهم القديمة ، وعادوا إلى طابعهم القومي أو الشعبي ، بل ان استقلاليتهم لم تقتصر على الفن والأدب والفلسفة فحسب بل تركت بصماتها حتى

(١) الراقص وعاشور ص ٣٣ .

(٢) د . احمد مختار عمر : المرجع السابق ص ٤٦

(٣) الراقص وعاشور : ص ٣٣ .

في المجال الديني، يثبت ذلك ظهور مذهب الشيعة فيما بينهم وهو الانقسام الأكبر في الاسلام، ودفعهم بحركة القرامطة الى الامام، وهي الحركة التي سهلت العبث بالخلافة العربية والتآمر على سلطة الدولة الاسلامية العربية^(١).

أما في مصر فلم يحدث شيء من ذلك بل تشربت مصر الروح العربية حتى النخاع وكأنها كانت عطشى إلى هذه الحضارة الجديدة، صالحة التربة لامتصاصها، فحدث بذلك حذو الشام والعراق حيث كانت سلاسل الاشوريين والسريانيين والآراميين يشعرون بأن الفاتحين العرب قوم من بني جلدتهم أنقذوهم من عبودية البيزنطيين والفرس، والواقع ان تعريب مصر في هذا الأمد القصير ظاهرة فريدة ليس لها مثيل في تاريخ مصر الطويل، فبينما لم تستطع ألف سنة من السيطرة اليونانية الرومانية المصحوبة بانتشار الثقافة الهلينية والدين المسيحي « رومنة » مصر نجد أن الفتح العربي استطاع في فترة وجيزة أن يعرب مصر قلباً وقالباً.

* * *

ومن العوامل الحاسمة التي أدت إلى تعريب مصر تحولها الى اللسان العربي وانتصار اللغة العربية فيها انتصاراً ساحقاً على اللغة القبطية أو أية لغة أجنبية أخرى كانت مستخدمة في مصر كالبيوتانية والسريانية، ومعروف ان اللغة العربية هي أهم أركان القومية العربية.

ولقد كان للغة العربية من الثراء والجرس والدقة ما جعلها أداة متقدمة للتعامل في مصر وكثير من البلاد التي فتحها العرب، فهي أكثر نضجاً من كل

(١) فيليب حتي : تاريخ العرب ج ١ ص ٢١٤ .

اللغات القديمة المعاصرة لها ، وقد وصل بها القرآن الى قمة التطور الذي بدأه خلال عشرات القرون من الجاهلية بينما كانت معظم اللغات الأخرى قد جمدت أو تدهورت مما جعل العربية تبرز كلفة للحضارة العالمية والثقافة المتقدمة حين انتشرت خارج بلاد العرب تحت راية الاسلام ، وساعد على انتشارها في نفس الوقت فقد كانت في حالة بالغة من الضعف والتدهور فهي قد ابتعدت كثيراً عن اللغة المصرية القديمة وان كانت تعتبر المرحلة الأخيرة المحتضرة لها ، وهي من حيث الشكل صارت تكتب بحروف يونانية ، وخضعت لقواعد الحركة في اللغة اليونانية بعد أن كانت اللغة المصرية القديمة (الديموطيقية) لا تعرف سوى الحروف الساكنة ، ومن حيث المحتوى دخلها كثير من الألفاظ والتعبيرات الأجنبية خاصة من اليونانية والسريانية ، وهجرت في نفس الوقت كثيراً من الكلمات المصرية القديمة^(١) وهي لم تفعل ذلك من مركز تطور وقوة وانما من مركز ضعف وخضوع أي أنها سحقت في الواقع تحت وطأة اللغة اليونانية التي كانت في ذلك الوقت لغة السيادة والثقافة العالمية ، وكانت اللغة الرسمية في مصر وبها يكتب ويتحدث عليه المصريين تاركين اللغة الوطنية للجهلاء والعوام .

وهكذا كانت اللغة العربية في أوج قوتها وتألقها واللغة القبطية في منحدر أفولها وتدهورها عندما ارتطمتا في مصر ، واستمر الصراع بينهما زهاء أربعة قرون الى أن انتهى بانتصار العربية الساحق .

ولا شك أن على رأس العوامل التي أدت الى انتشار العربية وغلبتها تحول معظم المصريين الى الاسلام وحاجتهم الى الامام بأصول دينهم الجديد وإدخال قرائضه ، والملاحظ أن انتشار العربية اطرده سلباً وإيجاباً بانتشار الدين فكان أسرع وقمماً في المناطق التي دخلت الاسلام وأبطأ في المناطق النائية التي تأخر اسلامها .

(١) د. مراد كامل : حضارة مصر في العصر القبطي .

وإلى جانب ذلك كانت اللغة العربية هي لغة الحكام مما جعل كثيراً من القبط حتى قبل إسلامهم يقبلون على دراستها لنيل الخطوة والصدارة في المجتمع وللتقرب من الحكام وشغل الوظائف العامة ولا سيما بعد أن حلت اللغة العربية محل اللغتين اليونانية والقبطية في الدواوين والمكاتبات الرسمية سنة ٨٧ هـ [٧٠٦ م] في زمن عبدالله بن عبد الملك بن مروان ، وحلول المسلمين تدريجياً محل الأقباط في الوظائف العامة .

وفي نفس الوقت كان نزول العرب الوافدين إلى الريف المصري واختلاطهم بالمصريين في المعيشة والمعاملات والتزاوج من أسباب انتشار اللغة العربية أيضاً ، فقد صارت لغة تطارد الأذن المصرية في كل مكان وأصبحت مألوفاً لعوام القبط بعد أن كانت لغة الدين والثقافة والدواوين فحسب .

ويرى الدكتور أحمد مختار عمر أن حلول العربية محل القبطية وانتصارها النهائي عليها كان وفقاً للترتيب الزمني التالي^(١) .

● خلال القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) أصبحت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة التي تكتب بها الوثائق وتسجل المكاتبات الرسمية وتعمل الدواوين .

● في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء مسلمين وأقباط ، وأصبح رجال الدين الأقباط يستخدمونها في مراسمهم وكتاباتهم الدينية بل ويشرحون بها قواعد اللغة القبطية والدين المسيحي .

(١) د : احمد مختار عمر : تاريخهم اللغة العربية في مصر ص ٥١ - ٥٥ .

● في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب العامة لكل المصريين على السواء وأصبح رجال الدين المسيحي يعظون بها كي يفهمهم سامعهم .

● ربما تأخرت غلبة العامية العربية على القبطية عن ذلك قليلاً أو كثيراً في بعض الأماكن النائية من الصعيد ولكن هذا التأخر لا يتجاوز قرناً أو قرنين بأية حال .

● ظلت اللغة القبطية حية مدة أطول من ذلك داخل الديرية وبين الرهبان ، وربما ظل بعض أناس يتكلمون القبطية حتى عصر متأخر (ربما إلى اليوم) ولكن هذه حالات فردية لا يبنى عليها حكم .

ويقول الدكتور أحمد مختار عمر « ولكن لا تعني هزائم اللغة القبطية المتتالية أمام هجمات العربية أنها لم تثبت وجودها في أي فترة من فترات الصراع ، فقد فرضت نفسها لفترة ما كلفة حديث حتى على العرب أنفسهم وتعلمها الكثيرون منهم ومن عرفوا بإجادتهم للقبطية القاضي خير بن نعيم الذي كان يكلم الخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية » .

وقد كان انتصار العربية على هذا النحو الحاسم هو العامل الرئيسي في مصر بأكثر من أي عامل آخر بما في ذلك الاسلام والهجرات العربية - التي سنبحثها في الفصل التالي - وهكذا اكتسبت مصر قوميتها العربية مع احتفاظها بكل خصائصها الذاتية الأخرى ، ولا يمكن أن تكون هذه الخصائص الذاتية مطعناً في عروبة مصر وقوميتها ما دامت مصر ناطقة بالعربية مساهمة فيها فكراً وعملاً ، وأية محاولة للحكم على عروبة مصر بـ معيار الدين أو الجنس هي محاولة خاطئة وغير علمية أو تقديمية .

والواقع كما يقول الدكتور أحمد مختار عمر « ان قصة اللغة العربية واستقرارها

في مصر من القصص الفريدة التي لا تتكرر كثيراً في التاريخ ، ويكفي أن نعلم أن مصر قد تتابع عليها حكام أجانب على امتداد تاريخها الطويل من هكسوس وآشوريين وفارسيين ويونان ورومان دون أن يتمكن أحد منهم من فرض لغته على مصر والقضاء على اللغة الوطنية المصرية تماماً، إلى أن جاء العرب فتمكنوا من فرض لغتهم وأحلالها محل القبطية ، وما أن تمكنت اللغة العربية في مصر حتى رسخت رسوخ الجبال ، وقاومت هجمات الاستعمار المتنوعة واستطاعت أن تصمد أمام تيار الغزو الأجنبي سواء كان تركيا أو فرنسا أو انجليزيا ، وظلت - ولن تزال - لغة مصر رائدة القومية العربية^(١).

* * *

درج معظم المؤرخين على النظر إلى هذه الفترة من تاريخ مصر من زاوية الفاتحين العرب وحدهم وكأن كل ما فعلوه كان حقاً وعدلاً بل وكأن له قداسة دينية تحول دون مناقشته وهم يتغاضون تماماً عن النظر من زاوية أقباط مصر كما لو كانوا قد صاروا فجأة كما مهملًا بعد الفتح لا يقبل منهم سوى الاسلام أو الخضوع مع أن هؤلاء المؤرخين أنفسهم حين يتناولون الحقبة التي سبقت الفتح العربي مباشرة ينظرون من زاوية القبط لا من زاوية مستعبيهم البيزنطيين ، فيصفون المظالم التي حاقت بهم والتي سهلت قبول الفتح العربي ثم ما أن يحدث الفتح حتى يسقط هذا العنصر المصري الاصيل من الحساب أو يكاد وتقص بقية التاريخ المصري الاصيل من الزاوية العربية الاسلامية فحسب ، فتجد وصفاً رقيقاً للنظم المختلفة التي أدخلها العرب والولاة الذين تعاقبوا على حكم مصر وما شجر بينهم من حروب ومنازعات ومدى تأثيرهم في دولة الخلافة العربية الكبرى بينما لا نجد كلاماً كثيراً عن أحوال القبط وطريقة معاملتهم وثوراتهم

(١) المرجع السابق ص ٥٧ - ١٥٨ .

وكيفية تأثيرهم في الاسلام وتأثيرهم به بل ان مثل هذه الموضوعات يكاد تكون لها حساسية شبه دينية .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن التأريخ الكنسي وبعض كتابات المؤرخين الاقباط تبالغ أحياناً في تسليط الأضواء على المظالم التي تعرض لها القبط في أعقاب الفتح العربي وعلى طول العصور الاسلامية وينقلون أو يقللون من شأن التغييرات العميقة التي أحدثها الاسلام في الحياة المصرية وفي أحوال القبط أنفسهم .

وأسوأ من هذين الموقفين موقف بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين الحاملين على الاسلام والعروبة ومصر معاً وهؤلاء تراه يأخذون جانب البيزنطيين قبل الفتح العربي ويحملون على القبط بحجة أن موقفهم المناوئ للكنيسة العالمية أدى إلى ضياع مصر من حوزة المسيحية في حين ان الخلافات المذهبية بينهم وبين الكنيسة الامبراطورية كانت جزئية ومن الممكن حلها في نطاق الوحدة المسيحية ، ثم تراه بعد الفتح يعطفون على موقف القبط ويأسون لحالهم ويحملون على سيرة العرب في مصر عموماً .

واعتقد ان هذه المواقف الثلاثة ليست سليمة وإنما تدفع اليها اتجاهات سلبية غير موضوعية لدى بعض المؤرخين سواء كانوا مسلمين أو أقباطاً أو غربيين مثل التعصب الديني وضيق الأفق والاحن والخصومات ، والواقع انه لا تكاد تكون هناك مرحلة من مراحل التاريخ المصري تعمل فيها هذه الاتجاهات السلبية أكثر من مرحلة الفتح العربي ، وبالتالي فان هذه المرحلة في حاجة ماسة لأن تكتب من جديد بروح وطنية خالية من التعصب لا تنظر إلى الحكام العرب نظرة مبرأة من كل نقص ، ولا تحمل عليهم حملة نكراء رغم كل شيء ، وكذلك لا تبغض المصريين الأصلاء حقهم سواء من بقى منهم على دينه أو تحول الى الاسلام وأيضاً لا تتعصب لهم وتنظر إلى الفتح العربي ككارثة حلت بهم ولم يكن في مقدورهم دفعها .

ولست أنوي بالطبع أن أقوم بهذه المحاولة ؟ فهي من واجب المؤرخين المتخصصين في تلك الحقبة من التاريخ ولكن ذلك لا يمنع من محاولة الإشارة هنا الى بعض الجوانب السلبية في سلوك دولة العرب في مصر حين كانت مصر تحكم بواسطة الولاة العرب بين عامي ٢٠ - ٢٥٤ هـ [٦٤٠ - ٨٧٤ م] وهي المرحلة التي تم فيها التحول الكبير ونضجت تلك الظاهرة التاريخية المعروفة بتعريب مصر .

إذا كان عمرو بن العاص قد سار في أول عهده بمصر سيرة عادلة وكذلك فعل بعض الولاة الآخرين فليس معنى ذلك أن جميع الولاة العرب نهجوا نفس النهج بل ان الكثيرين من هؤلاء الولاة جانبوا في حكمهم أبسط قواعد العدل إزاء مواليتهم المصريين مسلمين كانوا أو أقباطاً ، وحتى عمرو بن العاص نفسه نكص في فترة ولايته الثانية عن سيرته الأولى فاشتط على القبط ، وصادر أموالهم ، وكان يقول لهم « من كتمني كنزاً عنده ، فقدرت عليه ، قتلتة » وتحكى كتب التاريخ الاسلامي قصة قبضي يدعى بطرس أمر عمرو بقتله أمام باب المسجد لأنه أخفى عنه أمواله الوفيرة التي قدرت باثنين وخمسين أروبا ذهباً مصرياً ، والمعروف أن عمرو توفي عن ثروة طائلة قدرها ابنه عبدالله بسبعين جراباً من جسد ثور مملوء بالدنانير ، ولا شك أنه جمع هذه الثروة خلال فترة ولايته الثانية بدليل أن عثمان بن عفان قال له عندما عزله بعد ولايته الأولى « أرى جبتك قملت منذ خلعتناك » (١) .

ولم تلبث أن زيدت الجزية على الأقباط في خلافة عمر بن الخطاب نفسه ثم في ولاية عبدالله بن أبي سرح ثم في خلافة معاوية بن أبي سفيان إلى حد أن معاوية عزل وردان واليه على مصر عندما راجعه في أمر زيادة الجزية على القبط مذكراً إياه بأن « في عهدهم الا يزداد عليهم شيء » .

(١) الياس الايوبي : دولة العرب في مصر .

وقد بدأت انتكاسة معاملة القبط في عهد بني أمية حين اشتدت الحاجة إلى الانفاق ، فطلب الأمراء من ولايتهم في الأمصار مزيداً من الأموال ، وكان أن لجأ والي مصر عبد العزيز بن مروان إلى فرض الجزية على الرهبان لأول مرة ، وكذلك تشدد عبدالله بن عبد الملك بن مروان في جمع الأموال والنزم البطرك بدفع ثلاثة آلاف دينار كما زاد الجزية المفروضة على الأقباط وبلغت هذه السياسة التعسفية ذروتها في ولاية قره بين شريك الذي قال عنه المقرئزي انه « انزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا قبلها بمثلاً » ومن ذلك انه فرض على البلاد مائة ألف دينار زيادة عن خراجها المقرر^(١).

وفي العهد الأموي ظهرت أشكال جديدة من الجزية على القبط منها جزية الجملة التي تكون على أهل القرية كلها منها نقص عددهم وجزية موتى القبط على أحيائهم ، إلى جانب اشتطاط بعض الولاة في الجور على الأقباط رغبة في الأثراء السريع خلال فترة ولايتهم القصيرة ، ويكفي أن نعرف أن عدد ولاة مصر بلغ في عهد الأمويين ٣١ والياً أي بمعدل وال كل ثلاث سنوات تقريباً ، وبلغ في عهد العباسيين حتى أحمد بن طولون ٧٤ والياً أي بمعدل وال كل سنة ونصف وإذا كان بعض الولاة قد عرفوا بالعدل والتزاهة كالوليد بن رفاعة القهبي إلا أن معظمهم كان همهم الأكبر الأثراء بأسرع الطرق وأقصرها لا سيما بعد أن بردت ثورية الإسلام الأولى في عهد الخلفاء الأمويين الذين تشبهوا بالباطرة ولا سبيل إلى هذا الثراء سوى أموال الذميين لأن الجور على المسلمين لم يكن مما تحمد عقباه لأنهم أقدر على توصيل صوته إلى الخليفة في دمشق أو بغداد وأجراً على الثورة في وجه الولاة الظالمين^(٢).

وإذا أضفنا إلى ذلك سوء الإدارة التي شابت الحكم العربي نتيجة للحروب

(١) الرافعي وحاشور : ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) الياس الايوبي : دولة العرب في مصر . المقرئزي : الخطط .

والمنازعات والفتن الدامية التي حدثت في صدر الدولة الإسلامية وما أدت اليه من مظالم لم يكن ينجو منها المسلمون أنفسهم أمكننا أن نتوقع ونفهم انتفاضات الاقباط على الحكم الإسلامي في أول عهده بمصر، ومن واجبتنا كمصريين محدثين- مسلمين واقباط -- أن نضع هذه الانتفاضات في إطارها التاريخي الصحيح فلا نستنكرها ابتداء ولا فتحمس لها أو نأمر لفشلها بل ينبغي أن ننظر اليها كنوع من آلام الخاض التي سبقت مولد الوحدة الوطنية المصرية .

ويحدثنا تقي الدين المقرئزي بأن القبط قاموا بعدة ثورات أولاها في عام ١٠٧ هـ حين انتفضت كورة تنوديي وقربيط وطرابية وعامة الحوف الشرقي فبعث اليهم والي الحر بن يوسف بأهل الديوان - أي العرب المرابطين - ثم خرج اليهم الحر بنفسه ، وقام قتال بين الجانبين قتل فيه بشر كثيرون قبل أن تحمد الفتنة بعد ثلاثة أشهر .

وفي عام ١٢١ هـ انتفض أهل الصعيد فبعث اليهم والي الأموي حنظلة ابن صفوان بأهل الديوان فقتلوا من القبط ناساً كثيرين وظفروا بهم .

وفي عام ١٣٢ هـ قام قبطي يدعى بخنسي بثورة في سمخور فبعث اليه عبد الملك بن مروان بموسى بن نصير أمير مصر فقتل بخنسي في كثير من أصحابه .

وفي عام ١٤٢ هـ خالفت القبط في رشيد متشجعين باختلال أحوال الخلافة الأموية فبعث اليهم مروان بن محمد الجعدي لما دخل مصر فاراً من بني العباس بعثان بن أبي قسيمة فهزمهم .

وفي عام ١٥٠ هـ خرج القبط في سغا في ولاية يزيد بن حاتم بن أبي صفوة وطردها عنهم العرب وساروا الى شبرا سنباط وانضم اليهم سكان البشور والاريسية والنجوم فأتى الخبر يزيد بن حاتم فمقد لنصر بن حبيب المهلي على أهل الديوان ووجه مصر فخرجوا اليهم فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين ، فألقى المسلمون النار في عسكر القبط وانصرف المسلمون الى مصر منهزمين .

وفي عام ١٥٦ هـ انتفض القبط ببليبي في ولاية موسى بن علي بن رباح فخرج اليهم عسكر المسلمين وهزمهم .

ثم خلد القبط الى الهدوء فترة طويلة حتى هبوا هبتهم الأخيرة عام ٢١٦ هـ متشجعين بانتفاضات المسلمين في الدولة العباسية وقامت حروب مريرة بين الثائرين وعسكر المسلمين حتى قدم الخليفة المأمون بنفسه إلى مصر في العام التالي وأخذ فتنهم الكبرى التي كان قد اتسع نطاقها من الصعيد الى سدا وحكم عليهم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال . يقول المقرئزي « ومن حينئذ أذل الله القبط في جميع أرض مصر وخذل شوكتهم »^(١).

وبغض النظر عن أسباب هذه الانتفاضات التي قام بها القبط في وجه حكامهم العرب المسلمين وعن طبيعة هذه الانتفاضات نفسها وهل كانت « تقدمية » تتفق مع حركة التاريخ أم « رجعية » تتناقض مع اتجاه المستقبل .. بغض النظر عن كل ذلك فإن هذه الانتفاضات التي تعيد إلى الأذهان انتفاضات المصريين ضد الفرس واليونان والروم دليل على استمرارية شعب مصر وعلى أن شوكته ظلت قائمة حتى بعد دخول مصر في حوزة العروبة والاسلام ، أي أن مصر الأصلية ظلت مستمرة بل ومتمردة على استوعبها تماماً العهد العربي الجديد فانتقلت إلى كنف العروبة نهائياً بمسليها واقباطها الذين نجحوا في نسج وحدتهم الوطنية رغم ما بينهم من اختلاف ديني .

(١) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٧٨ .

[٤]

دماء جديدة

لقد أنقذ الفتح العربي المصريين من أحد مصيرين لا ثالث لهما : إما الإبادة والذوبان في العناصر الغريبة الوافدة من روم ونوب ولوبيين وآسيويين على اختلاف انتماءاتهم العنصرية ، ومعنى ذلك أن تفقد مصر قدرتها التاريخية على التمصير وبدلاً من أن تكون بوتقة لصهر الأجناس تصبح معتركا لمتخالف الأجناس ويختفي عنصرها الوطني الأصل بعد أن يفقد تماماً مقوماته الحياتية الخاصة . وإما البقاء كحفرة بشرية متفوقة كما حدث لليهود والبارسين والنساطرة الذين تخلفوا عن المجتمع السرياني القديم واستمروا كجماعات بشرية مغلقة بعد أن أطاح الآشوريون بدولهم واستقلالهم القومي وسكنت بلادهم عناصر أخرى فاستعاضوا عن الدولة بالمحافظة على الشخصية عن طريق التمسك بالتراث الديني والاندماج في الحياة العملية والاقتصادية للشعوب الأخرى^(١).

وكان المصريون أقرب بالفعل إلى المصير الثاني ، تدل على ذلك استمارة القبط في العصر البيزنطي في المحافظة على شخصيتهم القومية واستقلالهم الديني رغم

1) Toynbee : Study of History vol. 8 P. 275

أن الخلافات المذهبية بينهم وبين حكامهم البيزنطيين لم تكن كبيرة جداً في الناحية الموضوعية .

وجاء الفتح العربي بمثابة طوق نجاة ينقذ المصريين من هذين المصيرين .. من مصير الإبادة لأنه درأ عنهم غزوات العناصر الغربية المعادية ، وطردهم الجاليات الأجنبية التي كانت تستوطن مصر كالطفيليات ، وأتاح للمصريين الامتزاج - أو على وجه التحديد التطعيم - بالعنصر العربي القريب والحليف والذي يتصلون معه بالأصل البعيد الواحد وبالعلاقات القديمة المتشعبة . كما أنقذهم من مصير التحجر والتفوق لأنه أتاح لهم الدخول في مجتمع جديد وحمل رسالة جديدة سواء تحولوا إلى الإسلام أو ظلوا على المسيحية .

وليس أدل على شعور المصريين بالخلاص بالفتح العربي من أنهم أقبلوا على الإسلام والعربية بسهولة وبدون ارغام وهم الذين قاوموا بشدة المذاهب والتفسيرات المسيحية التي لا تتفق مع عقائدهم ، وليس أدل على ذلك أيضاً من أنهم فتحوا صدورهم - لا بلادهم فحسب - للعرب الواقدين وسمحوا لهم بالنفاذ إلى صميم النسيج المصري ابتداء من أكبر المدن إلى اعماق الريف .

ولا شك أن الهجرة العربية إلى مصر كانت من العوامل الحاسمة التي أدت إلى تعريب مصر وحصولها على ذلك المجتمع الجديد وتلك الرسالة الجديدة .

وقد بدأت الهجرة العربية إلى مصر بعد الإسلام بالقوات العربية التي قامت بالفتح تحت قيادة عمرو بن العاص والزبير بن العوام وبلغ عددها خلال ربع قرن (١٨ - ٤٣ هـ) بضع عشرات من الألوف نظمت لهم خطط في مدينة الفسطاط ، ثم استمر العرب يتوافدون على الفسطاط حتى بلغ عددهم في عهد معاوية أربعين ألفاً بينما كانت عدد الحامية العربية بالاسكندرية ١٢ ألفاً في عام ٤٣ هـ زيدت إلى ٢٧ ألفاً في عهد معاوية . أما الصعيد فقد قصده ٢٠ ألفاً تحت قيادة

عبدالله بن أبي سرح في بداية الفتح بالاضافة إلى جماعات عربية أخرى لم تكن من قوام الجيش العامل ولكنها نزلت مصر في ظله^(١).

ثم تتابعت الهجرات العربية إلى مصر في العهد الأموي ، وكان معظمها من عرب الجنوب (القحطانيين) الذين قصدوا عدم الامتزاج بالمصريين فسكنوا أطراف البلاد أو في أحياء خاصة بهم في المدن الكبرى ، أما عرب الشمال (العدنانيون) فقد كان عددهم محدوداً جداً في أوائل الفتح إلى درجة ان احتوتهم جميعاً خطة واحدة في القسطنطينية ، ولكن في عهد عبد العزيز بن مروان بدأ التفكير في هجرة العدنانيين بوفرة الى مصر فقدموا في أول الأمر في آلاف قليلة ثم تزايدوا وتكاثروا حتى تكافأوا من الناحية العددية مع القحطانيين ، وهبطوا الريف ، واشتغلوا بالزراعة واختلطوا بالأهالي المصريين مما كان له أكبر الأثر في زيادة حركة دخول المصريين في الاسلام في القرن الثاني الهجري ، وفي نفس الوقت بدأت الكتل القحطانية تتفتت وتنتشر أيضاً مما أدى الى ترجيح كفة العدنانيين مع مرور الزمن^(٢).

وقد أخذت الاتصالات الأولى بين العرب الفاتحين وسكان البلاد المصريين صوراً شتى كانت وسطاً بين الانعزال والاندماج حتى انتهى الأمر بالاختلاط التام بين العنصرين ثم انصهارهما في بوتقة واحدة .

ومن هذه الصور ما عرف بالارتباع ، إذ لم يكن الجنود العرب يلتزمون القسطنطينية طوال العام بل كان يؤذن لهم عندما يجيء الربيع بالتحرك داخل البلاد للاصابة من خيراتها بالصيد وشرب اللبن وإطلاق خيولهم للرعي في حقول البرسيم

(١) د. عبد المجيد عابدين : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب للمعري ص ٩٥ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٩ وما بعدها .

لتسمن، وكان يراعى أن ترتب كل قبيلة في مكان مخصص لها كل عام، كما يراعى في اختيار هذه الأماكن درجة خصوبتها وقربها من الحوف الشرقي، وكان عمرو يوصي جنوده بأن يحسنوا معاملة سكان البلاد خلال الارتباع، وأن يكفوا أيديهم عن أموالهم وأبدانهم ويعفوا فروجهم عن أعراضهم، وكانت موسم الارتباع يستمر حوالي ثلاثة أشهر وهي شهور الربيع حتى إذا دخل الصيف انسحبت القبائل العربية مرة أخرى إلى الفسطاط، وهكذا كان الارتباع فرصة للاتصال المباشر بين العرب والمصريين، وشيئا فشيئا بدأت القبائل العربية تستقر في أماكن ارتباعها^(١).

ولم يكن الارتباع هو الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين العرب والمصريين، بل اقتضت ضرورات الأمن مرابطة جزء من القوات العربية في الثغور والسواحل بصفة دائمة، وهو ما يعرف في الاصطلاح العسكري العربي بالرباط، وكانت ربع القوات العربية يربط في الاسكندرية وحدها، وربع آخر يربط في سائر السواحل المصرية، والنصف يستبقى في الفسطاط ولم تكن القوات المرابطة في الثغور تقيم في معسكرات خاصة بها كالفسطاط بل تقيم بين الأهالي، وهكذا كان الرباط وسيلة أخرى لتحقيق الاختلاط^(٢).

وبمقتضى اتفاقيات الصلح كان للعرب الفاتحين حق الضيافة على سكان البلاد الأصليين إذا نزلوا قراهم وأحياءهم، ويستمر هذا الحق ثلاثة أيام يجب على المصريين خلالها القيام بكافة واجبات الضيافة للعرب، ولذلك أقيمت في القرى المصرية مبان أو قاعات خاصة للضيافة تسمى بالليوان أو الإيوان، ولا يزال بعضها قائما في القرى حتى اليوم بالقرب من الكنائس، وفي هذه المباني كان

(١) د. عبدالله خورشيد البري : ص ٤٥ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ٤٩ .

ينزل موظفو الدولة وجنودها والمهاجرون العرب ، وتتحمل القرية بأكملها نفقات ضيافتهم ، وهكذا كانت الضيافة شكلاً آخر من أشكال الاتصال^(١).

وإلى جانب ذلك كان العرب الفاتحون يعتمدون على أهل البلاد اعتماداً كلياً في الزراعة وفي كثير من الأمور الأخرى كأعمال الديوان والطب ومسح الأراضي وبناء البيوت وصناعة السفن والمنسوجات ، وفتح ذلك باباً آخر للاتصال والاختلاط بين الفريقين .

وفي خلافة المعتصم العباسي (٢١٨ - ٢٢٧ هـ) سقطت دولة العرب في مصر ، وحرمت القوات العربية العاملة من مرتبات الدولة ، واستبدل بها الخليفة أجناد من الأتراك أثبتوا مكان العرب في الديوان فتفرق العرب في الريف المصري سعياً وراء الرزق من موارد أخرى غير الجهاد والحرب فمارسوا الزراعة والتجارة وتختلف الحرف التي كانت وقفاً حتى ذلك الحين على سكان البلاد الأصليين وجماعات من العدنانيين^(٢) .

وبذلك انتهت الموجة الأولى من الهجرة العربية الإسلامية بانتشار العرب في جميع أنحاء مصر ابتداء من الاسكندرية شمالاً إلى أسوان جنوباً ، وأدى هذا الانتشار وما تبعه من اختلاط وعلاقات وزيجات بين العرب والمصريين إلى ظهور بوادر المجتمع المصري العربي الإسلامي الجديد الذي حمل رسالة العروبة والإسلام فيما بعد وحتى وقتنا الحاضر ، وفي هذا المجتمع تم الامتزاج بين العرب والمصريين اجتماعياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً وذاب العرب القادمون في محيط الشعب المصري ، وأصبحوا ينتسبون إلى البلد الذي يسكنونه أو الحرفة التي يشتغلون بها وليس إلى قبيلتهم الأصلية التي جاءوا في كنفها من شبه الجزيرة العربية ، وهذا

(١) المرجع السابق : ص ٥٥ .

(٢) د . عبد الحميد عابدين : ص ١٠٤ - ١٠٥ .

ما عناء المقرئ في مقدمة رسالته « البيان والاعراب » بقوله « اعلم ان العرب الذين شهدوا فتح مصر أبادهم الدهر وجهلت أحوال أكثر أعقابهم » .

وهكذا أدت قوة الجذب المصرية الى عكس السياسة التي كان يخططها الخليفة عمر بن الخطاب في أول الأمر وهي محاولة الحفاظ على الارستقراطية العسكرية العربية حتى انه حرم على القوات العربية الاستقرار في الريف والاشتغال بالزراعة ، وفي الواقع كانت العملية قوة استقطاب ضخمة ذات محورين : فالمصريون يستقطبون العرب اجتماعياً وجنسياً وحضارياً والعرب يستقطبون المصريين ثقافياً ودينياً وروحياً وكانت المحصلة النهائية تعريب مصر وتجديد دماء المصريين دون أن يتعرضوا للفناء أو التلاشي ، وبذلك استمروا كأمة متصلة الحلقات .

يصف الدكتور جمال حمدان هذه العملية قائلاً « من المسلم به أنها (الهجرة العربية) بدأت بأعداد محدودة كغزوة ذكرية ولكنها سرعان ما تحولت الى هجرة واسعة النطاق مختلطة النوع وهي الأخرى بدأت كشبه استقرار على أطراف الصحراء وحواف المدن - خاصة الحوف الشرقي أي شرق الدلتا - وكشبه معسكرات في المدن ، ولكنها لم تلبث أن استقرت في بطن الحوف أي داخل الأراضي الزراعية والريف وانتشرت في المدن ، وهكذا تم الاختلاط لا في بؤرات المدن وحدها كما في حالة اليونان والرومان من قبل ، وإنما في تضاعيف الريف ، ولهذا كتب للتعريب أن يكون تحولاً خالداً لا ظاهرة عابرة كالهلبية»^(١)

وكثير من علماء الاجناس يؤكدون ان التكوين الجنسي للمصريين لم يتأثر تأثراً اكيداً بموجة الهجرة العربية بعد الفتح الاسلامي نتيجة لقلة العرب الوافدين نسبياً بالمقارنة بمجموع الشعب المصري ، وهذا يقودنا إلى ضرورة محاولة تقدير

(١) د . جمال حمدان : شخصية مصر - كتاب الهلال ص ٣٠ .

حجم الهجرة العربية التي تمت بعد الفتح، وهي محاولة لا يمكن أن تكون دقيقة ان لم تكن مستحيلة تماماً لأنها محاولة تقوم على التقدير الجزافي البحث .

ويمكن أن نشير هنا إلى ثلاثة تقديرات . . فقد قدرها البروفيسور فلنדרز بترى بحوالي ١٥٠ ألفاً وهو تقدير مسرف في التقليل من شأنها^(١) ، بينما يذهب نعوم شقير في كتابه « تاريخ سيناء » الى أن ثلثي المسلمين الذين أحصاهم التعداد الرسمي في مصر عام ١٩٠٧ وعددهم ٣٥٩ و ٢٨٧ و ١١ يرجعون إلى أصل قبضي، والثلث الباقي من أصل عربي وتري وعجمي^(٢). أما عبدالله خورشيد البري فقد أحصى القبائل والبطون العربية التي وفدت إلى مصر وأقامت بها خلال القرون الثلاثة الأولى بعد الفتح العربي فوجد مجموعها ٢٤٤ ، ونضيف إلى ذلك اننا إذا افترضنا أن كلا منها كانت تضم في المتوسط ثلاثة آلاف شخص يكون معنى ذلك أن عدد العرب الوافدين يبلغ في مجموعه ٧٣٢ ألفاً أي حوالي سبع عدد المصريين الأصلاء إذا افترضنا أن عدد سكان مصر في هذه المرحلة كان في حدود خمسة ملايين نسمة .

وينبغي أن نلاحظ ان الهجرات العربية التي أفادت مصر وجددت دماءها حقاً هي التي اندمجت في بحر الحياة المصري وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من النسيج البشري المصري بحيث لم تعد قائمة بذاتها أو كما يصفها المقرئزي « أبادها الدهر » ، أما القبائل العربية البدوية التي لم تندمج في الحياة المصرية بل ظلت تحياحياتها البدوية القبلية في صحاري مصر وعلى هامشها فلم تسهم في تلك النتيجة بل كانت عنصر هدم ولم تكن عنصر بناء حضاري ، فقد كانت تقوم بأعمال السلب والنهب والتمرد والاغارة على الحضارة والتجارة ، وكانت السلطة المركزية في كل العصور تحاول قمعها بكل شدة ، وظلت على هذه الحال طيلة تاريخها ، وتذخر كتب

(١) المرجع السابق : ص ٣٠ .

(٢) محمد عزة دروزة : عروبة مصر ص ١٧٧

التاريخ المصري كالمقريزي وابن تغري بردي والجبرتي بأمثلة لا حصر لها على النشاط التخريبي لتلك القبائل البدوية على امتداد مئات السنين ، ونحن نفهم من ذلك أن العبرة في الحضارة الإسلامية في مصر لم تكن بهجرة القبائل العربية في حد ذاتها ، وإنما بقدرة مصر على تمصير هذه القبائل وامتصاصها وتمثلها في دماها وسداها وتهذيبها وتمدينها وتحويلها من الرعى إلى الزراعة ، ومن التحول إلى الاستقرار ، ومن القبلية إلى الوطنية ، وفي هذا دليل آخر على استمرارية مصر ووحدتها تاريخها وعلى أن انتقالها إلى العروبة والإسلام لم يؤثر في خصائصها الذاتية وشخصيتها المتحضرة ، وإنما صبغها فحسب بلون حضاري جديد لم تكن بدونها تستطيع أن تواصل الحياة .

* * *

رأينا فيما سبق أن الهجرة العربية إلى مصر كانت مؤثرة كيفاً أكثر منها كماً ، ورأينا أن الأصل المشترك بين المصريين القدماء والعرب القدامى وما بينهم من علاقات قديمة متشعبة مما يفسر تقبل مصر للمهاجرين الجدد بسهولة ويسر ، وقدرة هؤلاء على تغييرها بشمول وعمق .

ولكن مصر في مرحلتها الإسلامية الجديدة لم تعرف السيادة العربية فحسب ، وإنما خضعت خلال الشطر الأكبر من تاريخها الإسلامي لحكم عناصر غير عربية كالترك والشركس والارناؤوط والديلم والفراعنة والصقالبة وغيرهم ، ووصلت إليها أعداد غفيرة من هذه الأجناس في صورة أسياذ وعبيد وأجناد وصعاليك ، فهل تأثرت في تكوينها الجنسي بهذه الدماء الغريبة ؟ وإلى أي مدى كان هذا التأثير ؟ أو بمعنى آخر هل أدت هذه العناصر إلى أحداث تغيير جوهري أو حتى ملحوظ في تكوين المصريين الجنسي كما استقر عليه خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة أي خلال فترة الحكم العربي لمصر ؟

حتى تمكن الاجابة على هذه التساؤلات يحسن استعراض الفترات التي خضعت مصر فيها لحكم هذه العناصر الأجنبية وتقدير تأثيرات كل مرحلة على خدة (١).

في عام ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) تمكن الوالي التركي أحمد بن طولون من الاستقلال بمصر عن الدولة العباسية منتهزاً فرصة الارتباك في الخلافة العباسية نتيجة مؤامرات القواد الترك ، وانشأ الدولة الطولونية التي حكمت مصر ٣٧ عاماً خضعت فيها البلاد لأول مرة في تاريخها الاسلامي لأمرة تركية حاكمة ، ولكن هذا الحكم لم يؤثر أدنى تأثير في عروبة مصر التي توطدت أركانها في المرحلة السابقة وظل الطابع العربي هو الغالب فيها ، وإلى جانب ذلك كان أحمد بن طولون نفسه مستعرباً عالماً بالعربية والحديث والقرآن بليغ البيان وكان يعتمد في جيشه وحكومته على الآرومات العربية الصريحة والمستعربة ، وكذلك كان خلفاؤه خماوية وهارون وشيبان مستعربين مندمجين في العروبة إندماجاً تاماً .

وفي عام ٢٩١ هـ (٩٠٥ م) اندحرت الأسرة الطولونية في القتال مع العباسيين ، وعادت مصر إلى الحكم العباسي المباشر فترة وجيزة لا تتعدى الثلاثين عاماً ، ثم استقل بها مرة أخرى الوالي التركي محمد طغج المعروف بالأخشيدي وأسس الدولة الأخشيديّة التي حكمت ٣٤ عاماً ، وكان حكم الأخشيدي وخلفائه شبيهاً بحكم الطولونيين من حيث كونهم مستعربين ومندمجين في العروبة فلم يكن لهم تأثير سلبي على طابع مصر العربي وتكوينها الجلسي .

وفي عام ٣٥٧ هـ (٩٦٩ م) استولى الفاطميون على مصر وانشأوا دولتهم

(١) سأعتمد في هذا التقدير على محمد عزة درودة في كتابه « عروبة مصر قبل الاسلام وبعده » الفصل السادس تحت عنوان « السلطان في مصر وأثره في عروبة مصر » .

الزاهرة التي دامت ٢٠٢ سنة ومدوا حكمهم إلى الاقطار المجاورة ، ولما كانت الفاطميون عرباً صرحاء لذلك عادت مصر إلى حكم العناصر العربية المباشر ولم تلبث أن أصبحت العاصمة التي أنشأها الفاطميون وهي القاهرة من أزهى مراكز العروبة والاسلام .

وفي عهد الفاطميين استؤنفت الموجة الثانية الكبرى من هجرة القبائل العربية إلى مصر ، فقد استجلب الفاطميون قبائل بني هلال وحلفائهم إلى مصر حيث استقروا زمناً في المناطق الشرقية قبل ان يستنفروا لمحاربة بني باديس خصوم الفاطميين في المغرب كما استجلب الفاطميون جموعاً من سنابس طيء وكلب من مستقرها بفلسطين لمحاربة بني قرّة الذين شقوا عصا الطاعة على الفاطميين في شمال الدلتا^(١) ولا شك في ان هجرة هذه القبائل اكدت رسوخ الطابع العربي في مصر ، وإذا كان الفاطميون قد طعموا جيشهم ايضاً بكتائب سودانية وتركية وبربرية إلا ان هذه العناصر الذكرية المحاربة لم يكن لها تأثير يذكر في الطابع العام للمصريين .

ولكن مصر لم تلبث ان خضعت مرة اخرى لحكم العناصر غير العربية ، وامتد حكمها هذه المرة طويلاً جداً الى ان استخلص المصريون حكم انفسهم في العصر الحديث ، ففي عام ١١٧١ م اسس صلاح الدين الايوبي دولته الايوبية التي حكمت ٧٩ عاماً ، وتلتها دولة المماليك البحرية التي حكمت ١٣٢ عاماً (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) ثم دولة المماليك الحراكة وحكمت ١٣٥ عاماً (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) ثم اصبحت مصر ولاية عثمانية تحكم من استانبول نظرياً وتخضع ل مختلف اجناس المماليك عملياً لمدة ٣٩٩ عاماً (١٥١٧ - ١٥١٧ م) ويدخل من

(١) د . عبد المجيد عابدين ، البيان والاعراب ص ١١٦ .

هذه المرحلة الشطر الأكبر من حكم أسرة محمد علي الالبانية الارثووطية التي حكمت ١٤٧ عاماً (١٨٠٥ - ١٩٥٢ م) .

على امتداد هذه الفترة الطويلة التي تبلغ ٧٨١ عاماً ميلادياً أو أكثر من ثمانية قرون هجرية خضعت مصر لحكم مختلف العناصر التركية والمستركة التي سيطرتا على الجيش والادارة والاقتصاد وأدخلتا كثيراً من المؤثرات التركية والأعجمية واستجلبنا أعداداً هائلة من الرقيق من مختلف الأجناس والألوان من بني جلدتهم وابتداء من الجراكسة والاسبان والسلاف إلى الأفارقة والآسيويين، وهذه الفترة الطويلة هي التي يخشى أن تكون قد تركت أثراً في الطابع العربي بمصر .

يميل معظم الباحثين إلى التقليل من قوة هذا الأثر الذي تركته فترة الحكم غير العربي في مصر لعدة أسباب منها ان العناصر الجديدة الوافدة كانت تشكل في الغالب طبقة السادة ولم تندمج في سواد الشعب وغالباً ما اضطرت إلى النزوح خارج مصر مرة أخرى أو انقضت دون أن تترك أثراً نظراً لطبيعة الصراع الدموي والقلق السياسي في تلك الفترة أما الجزء الأكبر الذي اندمج في المصريين وهو جزء ضئيل في حد ذاته فقد تم تصيره تماماً كغيره من العناصر الوفيرة على طول التاريخ المصري .

يقول عزة دروزة مشيراً الى تلك العناصر الغربية الوافدة « ان هذا الأمر لم يكن ليؤثر في الطابع العربي الشامل الموطن أي تأثير لأن هذه العناصر كانت محدودة جداً وكان معظمها مستعرباً بل كان كثيرون منهم علماء وأدباء وشعراء ومؤلفين بالعربية ، وكان المماليك - الذين هم أصحاب النشاط والحيز الكبيرين في عهد الدولة العثمانية قبل ولاية محمد علي - مندمجين في العروبة والوطنية المصرية اندماجاً تاماً حتى كانوا يعتبرون أنفسهم مصريين ، وينعتهم المصريون بنعت المصريين والمصرية تمييزاً لهم عن عمال وجنود الدولة العثمانية ، وقد كان معظم قبائل العربان الذين كانوا يحوزون عدة القتال ويعيشون كتلاً متكاثفة يناصرونهم على

هذا الاعتبار ، وهذا فضلاً عن أن لغة الدولة في هذه المدة الطويلة كانت اللغة العربية بالإضافة إلى الآلاف المؤلفة من العرب الصرحاء وغير الصرحاء المستعربين الذين كانوا يعملون في مصالح الحكومة ودواوينها ويشغلون فيها مناصب رئيسية وثانوية»^(١).

ويعبر الدكتور جمال حمدان عن نفس الرأي قائلاً «وبعد الموجة العربية عادت الحركات الداخلة فاقترنت على الغزوات لا الهجرات ، وهذا يصدق على أتراك الطولونية والأخشيدية وأكراد الأيوبية وجراكسة المماليك كما يصدق على أتراك والبان وانكشارية العثمانية .. وفي كل تلك الحالات كانت الأعداد الوافدة محدودة منها بلغت ، وكانت مذكرة غالباً تتركز أساساً في المدن ، وتمثل مستعمرات مغلقة تتزاوج غالباً من الداخل inbreeding ، وفي هذه الحالة كانت - كما لوحظ كثيراً - عقيدة لا تعقب في مناخ مصر مما كان يلزم معه لكي لا تنقرض أن تستورد دفعات جديدة منها من الخارج كما كان يحدث بين المماليك خاصة .. ويرى البعض أن سبب انقراض هذه المستعمرات الدخيلة إنما هو التزاوج الداخلي الضيق أولاً ، ثم ثانياً وظيقتها الحربية التي كانت تعني الوفاة المبكرة للغالبية في الميدان قبل أن تكون أية أسرة ، هذا وإلا فإنها كانت تتزاوج من المصريين ، وفي هذه الحالة كانت تذوب في الجسم الكبير دون أن تنسخ لونه الأساسي ، وفي هذا المعنى يمكن أن نقرر أن مصر لم تكن مقبرة للغزاة بالمعنى السياسي فحسب بل وبالمعنى الجنسي أيضاً .. أنه منها بلغت المؤثرات الجنسية الوافدة من قوة فان ضخامة المحيط المصري ديموغرافياً كانت كافية بابتلاعها وامتصاصها دون أن تحرف النمط الأصيل تحريفاً جوهرياً أو مبالغاً فيه»^(٢).

وفي العصر الحديث تعرضت مصر لوفود عناصر أجنبية مختلفة ، فمنذ حملة

(١) محمد عزة دروزة : المرجع السابق ص ١٨٥ .

(٢) د . جمال حمدان . شخصية مصر - كتاب الهلال ص ٣٣ .

نابليون عام ١٧٩٨ م وما تلاها من أحداث القرن التاسع عشر نوافدت عناصر تركية وجركسية والبنائية وأوروبية على مصر واحتلت فيها مكان الصدارة وتعد ثورة عرابي رد فعل مباشر لهذا الوضع ، ثم جاء الاحتلال البريطاني وفي أذباله عدد غفير من المرابين والتجار والموظفين من كل جنس ولون ، وكان رد الفعل المصري على هذه الموجة الأخيرة تصاعد الحركة الوطنية التي أدت إلى ثورة ١٩١٩ وانتهت باستخلاص الاستقلال وتمكين المصريين من حكم أنفسهم ، ولم تؤثر هذه الموجة الجديدة من الوفود الأجنبية أي تأثير على تكوين المصريين .

وخلاصة القول ، ان مصر رغم انها كانت دائماً معبراً ومستقراً لمختلف الأجناس ولم تكن في وقت من الأوقات - حتى من أنقى العصور الفرعونية - وحدة اجتماعية مغلقة على نفسها كالمجتمع اليهودي مثلاً إلا أن تركيبها الجنسي لم يشهد أي انقطاع انثروبولوجي مفاجيء ، وباستثناء موجة الهجرة العربية التي هبطت مصر على رحب وسعة وكأنها هدية القدر لتجديد دماء المصريين ورسالة مصر الحضارية ، لم يكن لأية هجرة أخرى أثراً يذكر بما في ذلك الهجرات الكبرى نسبياً وهي الهكسوس واليونان واليهود والرومان واتراك العصور الوسطى ، وظل المصريون في مجموعهم محتفظين بسمائهم الأساسية كشعب واحد متجانس رغم عدم وحدة الدين بين المسلمين والأقباط ، ورغم عدم وحدة الأصل المباشر بين العرب والمستعربين ، وذلك يرجع إلى قدرة مصر الخارقة على التمسير ، وعلى نبذ العناصر الغريبة التي لا تلائم نسيجها الخاص .

شخصية مصر الاسلامية

من الأدلة على استمرارية مصر ووحدة تاريخها ما فعلته بتلك القبائل العربية البدوية التي نزلت ساحتها بعد الفتح الاسلامي ، فهي قد هضمت هذه القبائل وقضت على الروح القبلية لدى المهاجرين العرب ، وأدبجتهم في مجتمع مدني موحد .

ظلت القبيلة فترة من الزمن وحدة المجتمع العربي بمصر بعد الفتح الاسلامي ، فإن موجة الهجرة العربية الى مصر لم تكن في شكل مجيء أفراد أو جماعات متفرقة وإنما في شكل نزوح قبائل بأكملها أو بطون متأسكة منها ، وكانت الروح القبلية - بالرغم مما فعله الاسلام لتلطيفها - هي القوة السائدة ولا أدل على ذلك من أن كل مجموعة متألّفة من القبائل أو البطون استقرت في جزء معين من البلاد ، كما كانت وحدات الجيش العربي عبارة عن قبائل ، وخططت المدن والأحياء والقرى على أساس قبلي ، وقد سادت الروح والقيم ومظاهر السلوك القبلية في الحياة والسياسة وانعكست بأوضح ما تكون على مرآة الشعر العربي المصري في تلك الفترة فكان يعكس روح العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب واعلاء أفكار الحلف والجوار ، فالذي يقرأ شعر تلك الفترة في مصر يخيّل إليه انه انتقل الى البادية أو أن البادية بكل قيمها قد انتقلت الى مصر ، فلا يكاد

هذا الشعر يعكس شيئاً من سمات البيئة المصرية الجديدة وإنما يدور حول نفس الموضوعات والأشكال والأغراض العربية التقليدية .

ولكن عوامل التوحيد المصرية لم تلبث أن اثبتت أنها أقوى من عوامل القبلية البدوية ، فصر هي استاذة العالم في فن الحكم المركزي ، وقد عرفت مصر الوحدة منذ أقدم العصور لأن طبيعتها الجغرافية تحتم قيام حكومة مركزية قوية تسيطر على النيل وتنظيم الزراعة ، والنيل يربط بين أجزائها وقراها ويساهم بدوره في خلق الوحدة الزراعية والاجتماعية ، والزراعة الفيضية - على العكس من زراعة الري والمطر - تستدعي قيام التعاون والتبادل ، فالحضارة المصرية بطبيعتها حضارة وحدة مدنية وليست حضارة فرقة قبلية ، وقد حققت مصر وحدتها الوطنية في عصور موعلة في القدم تسبق التاريخ المكتوب بمئات السنين ، فلم تكن وحدة الوجهين على يد مينا حوالي عام ٣٢٠٠ ق. م. سوى استعارة لوحدة مفقودة سبقها في تقدير الأثرين بأكثر من ألف من ألف عام حين كانت مصر - طبقاً للأساطير القديمة - تحت الحكم المباشر للآلهة من اسرة أوزيريس .

وهكذا لم تلبث عوامل التوحيد المصرية العريقة أن عملت عملها ، فلم تنقض ثلاثة قرون على الفتح العربي حتى كانت الروح القبلية قد ذابت في بحر المدنية المصرية في حين تأخرت وحدة القبائل العربية المهاجرة الى أقطار اسلامية اخرى عن الظهور فترة طويلة بعد تحقيق الوحدة العربية المصرية ، بل أن أخلاف هذه القبائل لا زالت قائمة ومميزة الى اليوم في كثير من أنحاء العالم العربي .

ان القضاء على القبلية في مصر خلال هذه الفترة الوجيزة وظهور المجتمع المدني الموحد من أكبر الأدلة على استمرارية مصر ووحدة تاريخها بحيث لا يمكن القول أن مصر العربية الاسلامية تختلف في هذا المضمار عن مصر التاريخية التي امتدت قبل الفتح العربي بألاف السنين .

ولقد فرضت مصر احترام شخصيتها على فالحجتها منذ البداية ، ولذا نراهم لا يعاملون ابناءها معاملة طيبة فحسب بل يبقون كذلك كثيراً في النظم والأوضاع التي كانت قائمة قبل الفتح على عهدنا .

يقول الرافعي وعاشور « كانت مصر عندما فتحها العرب من البلاد ذات الماضي العريق والتاريخ الأصيل والحضارة الشائخة التي لمس العرب صورة واضحة لها من كل ركن من أركان البلاد . وما كاد يتم الفتح العربي لمصر حتى أدرك العرب أنهم أمام شعب أصيل جدير بالاحترام والتقدير ، فتعهدوا البذور الحضارية التي صادفوها في مصر بالرعاية والعناية بعد أن اعتراهم الذبول في أواخر العصر الروماني ، واختار العرب الا يحدثوا تغييراً في النظم السائدة في البلاد إلا ما تعارض منها مع أحكام الشريعة والدين ، وتركوا لأهل الذمة في مصر مواصلة نشاطهم الحضاري في جو من التسامح والمودة لم يألوه منذ فترة طويلة وكان أن شهدت مصر في ظل الحكم العربي ازدهاراً في الحضارة واستقراراً في النظم وانتعاشاً في الحياة الاقتصادية ونشاطاً في الحياة العلمية والثقافية » (١) .

وهكذا احتفظ العرب بالتقسيم الإداري الذي كان سائداً في عصر الرومان والذي تمتد جذوره إلى فجر التاريخ ويقوم على تقسيم مصر إلى قسمين كبيرين هما مصر العليا ومصر السفلى وكل منهما ينقسم إلى عدد من الكور أو الأقاليم يبلغ مجموعها ٨٠ اقليماً في الوجهين ، وكل منها تنقسم إلى مراكز وقرى .

وكذلك اتبع العرب نفس النظام السائد في جباية الضرائب القائم على مسئولية كل قرية بالتضامن عن أداء قدر معين من الضريبة ، فان عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان خربت وقل أهلها انتقص لهم .

(١) عبد الرحمن الرافعي و د . سعيد عاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٦٣ - ٦٤
رهر المرجع الاساسي للصفحات التالية من تاريخ مصر الاسلامية .

واعتبر العرب ان مصر فتحت صلحاً وليس عنوة ولذا لم يفتصبوا الأرض من أصحابها بل أبقوها في أيدي أبنائها الأصليين نظير تأدية ما عليها من خراج حسب جودتها وما تدره من محصول .

ونتيجة لاحترام الفاتحين العرب لشخصية مصر واتباعهم العدل والتسامح إزاء سكانها الأصليين شهدت مصر تحت حكم الولاة العرب ازدهاراً اقتصادياً وصناعياً كبيراً وشعر المصريون بحبو من الطمأنينة ساعدهم على التقاط أنفاسهم التي تقطعت لها منذ سقطت آخر أسرة مصرية كانت تحكم البلاد .

وفي نفس الوقت اندمجت مصر بسرعة فائقة في كيان الدولة العربية الجديدة وكان لها دائماً دور في مسائل العصر الكبرى مثل الفتنة ضد عثمان ، والنزاع بين علي ومعاوية ، وحركة ابن الزبير ، والنزاع بين اليمنية والمصرية ، وبين الأمين والمأمون ، ومحنة خلق القرآن .

ولا خلاف على ان المصريين ذوي الأصل العربي المباشر هم الذين كانوا يلعبون الدور الرئيسي في السيادة المصرية في ذلك الحين ، ولكن المصريين الأصليين أيضاً ممن انتقلوا حديثاً الى الاسلام بل والقبط الذين بقوا على دينهم شاركوا كذلك بدور لا يمكن اغفاله ، يدل على ذلك ، مثلاً ، ان القبط لعبوا دوراً في التمكين للدولة العباسية انتقاماً لما أصابهم على يد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وكان مروان قد تحصن في مصر كآخر معقل له بعد هزائمه في العراق والشام أمام العباسيين ، ولكنه عامل المصريين معاملة سيئة ، فأمر بإحراق المدن الكبرى على الضفة الشرقية للنيل وعلى رأسها القسطنطينية حتى لا يتمكن العباسيون من عبور النهر اليه ، واستثار مروان القبط بصفة خاصة وكانوا لا يزالون الأغلبية في البلاد ، وقبض على بطريقهم الابنا ميخائيل وزج به مع عدد كبير من القساوسة في السجون الأمر الذي جعل القبط يرحبون بالعباسيين ويرشدونهم إلى مسالك البلاد ، وكافأ العباسيون أقباط مصر بأن أظهروا مرونة

في معاملتهم ، وأفرجوا عن بطريقهم السجين ، و تعهدوا بحماية ممتلكات الكنيسة وتخفيف الخراج .

لقد أبرزت مصر الاسلامية شخصيتها في العالم الاسلامي المحيط بها بحكم قوتها الذاتية وتراثها الخاص ومواردها الوفيرة وبحكم عوامل الجغرافيا السياسية التي حبت مصر بموقع ممتاز مؤثر في المنطقة ، ولذا نراها بصفة خاصة تجنح إلى الاستقلال الذاتي في نطاق العالم الاسلامي رغم خضوعها لحكام أغراب ، ولم يكن في ذلك ما يشين تشيئاً مع روح العصر بل ان المستوطنين العرب أنفسهم الذين استقروا في مصر زمناً لم يقفوا في طريق جنوحها نحو ذلك الاستقلال الخاص بل ساعدوا عليه بحكم اتحاد مصلحتهم فيه مع صالح المجموع .

وكانت الدولة الطولونية [٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م] هي أول دولة مستقلة في تاريخ مصر الاسلامية ، وقد أسسها أحمد بن طولون التركي الذي استطاع أن يلعب بمهارة على توازن القوى وصراع الانداد داخل مصر والدولة العباسية على السواء ، غير أن العامل الحاسم الذي مكنه من الاستقلال بمصر كان حب الشعب المصري له والتفافه حوله ، ولم ينس ابن طولون فضل المصريين في ولايته فكان عهده عهد رخاء وأمن ونهضة شاملة ، وعرف بصفة خاصة باحسانه إلى فقراء المصريين وتخفيف الاعباء عن الفلاحين ومحاولة النهوض بالريف ، ويقال ان احمد بن طولون كان يتصدق كل شهر بألف دينار على الضعفاء والفقراء ، وعندما اشتد عليه مرض الموت ، كما يقول أبو الحسن بن تفرى بردي - خرج المسلمون بالمصاحف ، واليهود بالتوراة ، والنصارى بالانجيل ، والمعلمون بالصبيان إلى الصحراء ودعوا له ، وكان ألمهم عظيماً بوفاته .

واستغل احمد بن طولون مركز مصر الاستراتيجي للتوسع في الشام حتى حص شمالاً ثم واصل زحفه حتى انطاكية وطرسوس وهما أكثر الثغور الاسلامية تطرفاً بالقرب من بلاد الروم وبذلك أثبتت مصر مرة أخرى دورها الاستراتيجي

في المنطقة ، وهو دور أكدته طوال تاريخها السابق ، وستؤكدده دائماً في تاريخها اللاحق .

وفي عهد الدولة الطولونية ظهرت شخصية مصر المستقلة لأول مرة منذالفتح العربي أو بالأحرى منذ انتهاء عهد البطالسة ومن الواضح لقارىء التاريخ المصري ان رخاء مصر يقترن دائماً باستقلالها وبوارها يقترن بتبعيةها. وفي عهدالطولونيين بلغت مصر درجة كبيرة من الرخاء والثراء ظهرت في المشروعات العمرانية الضخمة التي قام بها مؤسس الدولة مثل القطائع والجامع والقصر والبيمارستان ، كما ظهرت كأسوأ ما يكون الظهور في مظاهر البذخ والاسراف التي انغمس فيها ابنه وخليفته خمارويه وخلفاؤه الضعاف ممن بذروا ثراء مصر على ملذاتهم ونزواتهم الخاصة وكان ذلك إيذاناً بزوال دولتهم .

وقد تحمل الشعب المصري صنوفاً من العذاب والنكال جزاء تأييده للحكم الطولوني بعد عودة مصر الى حوزة العباسيين عام ٩٠٥ م ، فيقول ابن تغرى بردى عن القائد العباسي محمد بن سليمان الذي قضى على دولة الطولونيين ابن « حكه في أهل مصر كان بضرب أعناقهم ، وبقطع أيديهم وأرجلهم جوراً ، وتمزيق ظهورهم بالسياط ، وصلبهم على جذوع النخيل ، ونحو ذلك من أصناف النكال^(١) .

ولذلك كان من الطبيعي أن يرحب المصريون بأي حكم يخلصهم من إفساد دولة الخلافة ويعود بهم إلى الاستقلال مرة أخرى ، فنجدهم يؤيدون حركة محمد بن علي الخلنجي المعروف بابن الخليج بالفعل وبفضل تأييد الشعب المصري من فرض سيطرته زمناً على الدلتا بأكملها حتى الفسطاط ولكنه هزم بالقرب بني سويف وأعدم ، وبعد ذلك التف المصريون حول محمد بن طفسح الأخشيد

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٣٩

وسهلوا له الاستقلال بمصر فقامت الدولة الأخشيديّة المستقلة [٩٣٣ - ٩٦٩م] بعد جيل واحد من سقوط الدولة الطولونية ، وبالرغم من ابقاء الأخشيديين على التبعية الشكلية للخلافة العباسية إلا أنهم استقلوا بمصر استقلالاً فعلياً ومدوا نفوذهم الى الشام مع شد وجذب مع المهدانيين .

وفي عهد الأخشيديين عادت مصر تتمتع بالازدهار الذي عرفته في عهد الطولونيين ولكنها لم تلبث ان وقعت فريسة للاضطرابات والمتاعب الداخلية والخارجية ، فاشتد الغلاء نتيجة لانخفاض النيل ، وأصبحت البلاد هدفاً لضغط المهدانيين والقرامطة في الشرق ، والروم البيزنطيين في الشمال ، والفاطميين في الغرب ، والنوبيين في الجنوب ، ومع ذلك صمدت مصر في مواجهة كل هذه الضغوط ، واستطاعت أن تستعيز عن القوة بالدهاء السياسي ، وهو ما تحلى به الأخشيدي وخليفته كافور على السواء .

وفي العصر الأخشيدي ظل المصريون - مسلمون ومسيحيون - يحتفلون بأعيادهم الخاصة التي لا يشاركهم فيها بقية العرب والمسلمين والتي هي ميراث العصور الفرعونية مثل عيد وفاء النيل وعيد النيروز (شم النسيم) ، وقد أشار المسعودي الى مدى اهتمام المصريين بالاحتفال بعيد الغطاس حيث كان الناس يهرعون بعشرات الألوف الى النيل ومعهم المأكّل والمشرب وآلات الطرب والموسيقى فيقضون ليلة هي « أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً »^(١)

ولم تكن الدولتان الطولونية والأخشيديّة سوى ارماستين لظهور قدرة مصر الاستقلالية الكبرى التي تجلت فيما بعد في دولة الخلافة الفاطمية وفي حكم سلاطين المماليك البحرية والبرجية على السواء .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ .

وقد بدأت الخلافة الفاطمية في المغرب في أوائل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ولكنها لم تصبح قوة مؤثرة في العالم الاسلامي إلا بعد انتقالها الى مصر واستغلالها امكانيات مصر الضخمة للتوسيع والازدهار وكان الفاطميون قد قاموا بأكثر من محاولة لفتح مصر ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك إلا بعد زوال الحكم الاخشيدي ، وقد مهد الفاطميون لفتح مصر بإرسال دعائهم إليها سرّاً لنشر الدعوة بين طبقات الشعب ، فالفاطيون كانوا أذكى من أن يقيموا اسس دولتهم في مصر على حق الفتح وحده ، وكانوا منذ البداية وحق النهاية يقدرون قوة الرأي العام المصري حق قدرها ، ونحن نجد جوهر الصقلي القائد الفاطمي الفاتح يفعل نفس ما فعله الاسكندر من قبل وناوليون من بعد حين يصدر أماناً للشعب المصري يزعم فيه أنه ما جاء البلاد إلا محرراً ، فيقول « إن أمير المؤمنين لم يكن اخراجه للمساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطتكم الايدي واستطال عليكم المستذل ... الخ. » ويضيف متحدثاً عن أهداف الفتح الفاطمي لمصر من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفي الأذى ، ودفع المؤن ، والقيام في الحق ، واغاثة المظلوم مع الشفقة والاحسان وجيل النظر ، وكرم الصعبة ، ولطف العشرة ... الخ^(١)

وبالرغم من أن الحكم الفاطمي كان يعتمد على رجاله وقواته الذين جاءوا معه من المغرب كقبيلة كثامة والصقالبة الروم إلا أن الفاطميين لم يدخروا وسعاً في سبيل بث دعوتهم بين الشعب المصري وتأصيلها بين الجماهير وتراوحت أساليب الدعاية الفاطمية بين مختلف المستويات لتناسب الخاصة والعامة ابتداء من العمل الفكري الرفيع الى الموالد والأعياد ، ومن القصور ودور الحكمة الى المساجد والشوارع والقرى ، مما يدل في حد ذاته على خطورة مصر وشعبها

(١) محمد عبد الله حنان : الحاكم بأمر الله وأصرار الدعوة الفاطمية الطبعة الثانية ص ٣٠.

في نظر حكامها الفاطميين، وعلى اضطرارهم الى اصطناع طريق الاقناع مع الشعب المصري المتمرس بالمدنية والحضارة خلافاً لسكان شمال أفريقيا الذين بدأت فيهم الخلافة الفاطمية بجحد السيف دون تجشم طريق الاقناع ، ومع ذلك فقد ثبتت أغلبية المصريين على اتباع المذهب السني حتى أن الدولة الفاطمية لم تجرؤ على تعيين شيعي في منصب قاضي القضاة وبقي القضاء في أيدي القضاة السنيين إلى النهاية وكان في ذلك دليل آخر على مقاومة المصريين الفكرية وعدم إمكان فرض مذاهب لم يألّفوها عليهم رغم تأييدهم للخلافة الفاطمية سياسياً ، وقد ترتب على ثبات المصريين على المذهب السني سوء معاملتهم على يد طائفة المغاربة التي كان يعتمد عليها الحكم الفاطمي واستبعادهم من مناصب الحكم والنفوذ التي أصبحت مشاعاً لطوائف المغاربة والأتراك والسودانيين وأهل الذمة من نصارى ويهود وأرمن .

وعلى الرغم من استبعاد المصريين من الحكم إلا أن شخصية مصر وموقعها الاستراتيجي مكنا الخلفاء الفاطميين من بسط نفوذهم بعيداً في جوف شبه الجزيرة العربية والاستيلاء على الشام ومناجزة العراق نفسها وهي مقر الخلافة العباسية الوطيد . وفي عهد العزيز بن المعز اتسعت مساحة الدولة الفاطمية من مقرها مصر إلى بلاد العرب شرقاً ، والمحيط الأطلسي غرباً ، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً ، وصارت مصر الفاطمية هي القوة الكبرى في حوض البحر المتوسط ، كما انعكس ثراء مصر - وهو نتاج جهد ابنائها - على العصر الفاطمي الذي اشتهر بثرائه وترفه .

وحق الدولة الأيوبية التي اغتصبت مصر اغتصاباً من أيدي الفاطميين في أواخر عهد المخطاطهم ، تلك الدولة التي قامت على اكتاف صلاح الدين ورجاله بلا فضل لأحد عليهم ، إنما قامت أيضاً بتأييد المصريين ، ولعبت مصر الدور الأساسي في مكافحة الخطر الصليبي تحت راية الأيوبيين ، وقد كان واضحاً

للمسلمين والصليبيين منذ البداية ان الاستيلاء على مصر هو العامل الحاسم في الصراع ، وهذا هو سر الحملات المتكررة التي قام بها الصليبيون على مصر منذ أواخر العهد الفاطمي حتى حملة لويس التاسع أسير المنصورة .

يقول الراقعي وعاشور « ولا يخفى علينا ان مصر كانت المركز الذي استمد منه صلاح الدين قوته وموارده والتي اعتمد عليها في جهوده الحربية التي انتهت بالاطاحة بالصليبيين في موقعة حطين ثم الاستيلاء على بيت المقدس وغيرها من مدنها ومعاقلمهم في بلاد الشام لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبرى هي أن مفتاح بيت المقدس موجود في مصر وانه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم أن يسيطروا على مصر أولاً .»

وبعد الدولة الأيوبية خضعت مصر قرونًا طويلة لحكم المماليك سواء كسلاطين مستقلين في عهد دولة المماليك البحرية [١٢٥٠ - ١٣٨٢ م] ودولة المماليك الجراكسة [١٣٨٢ - ١٥١٧ م] أو تابعين للخلافة العثمانية في تركيا [١٥١٧ - ١٨٠٠ م] وطيلة هذا العصر وخاصة في نصفه الأخير توارى الشعب المصري عن الميدان السياسي كلية تقريباً تاركاً إياه لصراع الأمراء المماليك المستجلبين من الخارج ، ومع ذلك كان موجوداً في الخلفية دائماً وكان يرغب السلاطين والأمراء على تملقه والتقرب منه ، كما أفصح عن نفسه فيما تخلف عن هذا العصر من الفنون والآداب وفي مواقف قادة الفكر فيه من القضاة والشعراء ورجال الدين كما واصل الأزهر رسالته التنويرية في العالم الاسلامي حتى إذا ما كانت نهاية القرن الثامن عشر وقبيل مقدم الحملة الفرنسية برزت شخصية الشعب المصري بوضوح ، رغم ضعفه وتهالكه ، على النحو الذي صورته الجبرتي في هبات المصريين ضد الأمراء المماليك ثم ثوراتهم ضد الاحتلال الفرنسي ثم في تمكين محمد علي من تحدي الباب

العالي وانشاء امبراطورية كبرى في زمن وجيز تمتد الى الحجاز ونجد واليمن وسواحل الخليج العربي شرقاً والى الشام وكريت شمالاً والسودان جنوباً .

* * *

على أن أبرز ما قدمته مصر على الاطلاق دفاعاً عن العروبة والاسلام كان تصديها للأخطار الخارجية التي أهدقت بالمنطقة والتي كان من الممكن أن تقضي نهائياً على الحضارة العربية الاسلامية أو تصيبها بنكسة خطيرة ، وهي بالتحديد الخطران الصليبي والمغولي ، فهنا عادت مصر تمارس رسالتها التاريخية وتلعب دورها الاستراتيجي دفاعاً عن المنطقة ، وبعد جهاد مرير تحمل فيه الشعب المصري العبء الأكبر عسكرياً واقتصادياً ونفسياً كسرت شوكة الصليبيين وطردها من ديار العروبة والاسلام ، وصدت موجة المغول ومنعوا من تدمير حضارة المنطقة .

ويلخص الدكتور جمال حمدان دور مصر في التصدي للخطر الصليبي في فقرة قوية واحدة ، فيقول « تصدت مصر لثلاث غزوات صليبية برية خلال القرن الثاني عشر هلكت أولاها في بيئة الصحراء والمستنقعات بشمال الدلتا عند سبخة البردويل ، ونجحت ثانيتهما في التسلل بطريق الصحراء شرقي الدلتا إلى القاهرة ، أما الثالثة فقد انسحبت في مواجهة المقاومة الشعبية التي تفجرت في شكل حرب عصابات مرهقة في شمال الدلتا حول بحيرة المنزلة ، وعندها تقدمت مصر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر لتسجل حطين صلاح الدين التي ستكون بداية النهاية . عندئذ اتجهت الصليبيات إلى مصر مباشرة باعتبارها مركز الخط الرئيسي عليها وجردت حملات بحرية مباشرة عليها ، وهنا نجد أيضاً ثلاث غزوات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تركزت جميعها حول دمياط . الأولى جاءت على أساطيل بيزنطة وصقلية ونزلت دمياط ليتصدى لها صلاح الدين بالحصار المحكم حتى أرغمت على الانسحاب ، والثانية أيام الكامل

نجحت في اقتحام دمياط وتخريبها ثم اختراق الريف المحيط بها ولكن لتسقط وشيكا في مصيدة فيضان النيل وشبكة الري الكثيفة التي قطعت عليها فحوصرت وأرغمت على الانسحاب ، والثالثة حملة لويس التاسع في منتصف القرن تماماً حوصرت في طريقها إلى المنصورة وهزمت في فارسكور وأسرقائدها في دار ابن لقمان ، وعادت الشام من جديد أرض المعركة مع الصليبيات فتقدمت مصر المملوكية إلى أقصى شمال الشام حتى تخوم الأناضول وأرمينيا والفرات ولتسحق الصليبيات نهائياً مع نهاية القرن الثالث عشر على يد بيبرس ولكن الصليبية اتخذت من قبرص لوحة للقفز من جديد فشهد القرن الرابع عشر غارة قرصنة مخربة على الاسكندرية ردتها مقاومة سكان المدينة ، ولكن كان لا بد من حرمان العدو من قاعدة تهديده فجردت مصر المملوكية عليها في القرن الخامس عشر ثلاث حملات بحرية حتى ضممتها إلى أملاكها ، وهكذا - على البر والبحر - كانت مصر حنجر الزاوية في صد القوى الصليبية (١).

وعن الخطر المغولي يقول الدكتور حمدان ، أما الخطر المغولي فقد بدأ منذ القرن الحادي عشر فاكسح السلاجقة العراق وسوريا ولكن أنفاسهم تقطعت دون مصر ، ولكن القرنين الثالث عشر والرابع عشر كانا عصر المغوليات الوثنية الرهيبة حقاً ، وذلك في وقت كان فيه الشرق الإسلامي يواجه على جبهته الغربية الغزو الصليبي فشهد القرن الثالث عشر موجة جنكيزخان ثم هولاكو التي ختمت على مصير العراق إلى الأبد ثم اكتسحت شمال سوريا في طريقها إلى الهدف الأكبر مصر ، ورغم أن الخطر الصليبي كان لا يزال يستوعب كل المقاومة المصرية إلا أن مصر المملوكية تقدمت تحت قيادة قطز لتعطي المغول أول وآخر انكسار لهم في عين جالوت التاريخية التي حددت - بلا مغالاة - مصير الإسلام جميعاً ، وبعدها وصلوا في مطاردة فلولهم إلى الفرات الذي حدد بذلك نفوذ

(١) د . جمال حمدان : شخصية مصر (المطول) ص ١٧٣ - ٢٧٤ .

مصر الجديد ودورها التوسعية النادرة ، ولكن الموجة الثالثة عادت مع
تيمورلنك في القرن الرابع عشر لتكسح العراق وشمال سوريا حتى دمشق ولكنها
تعجز دون جنوبها اذ تتكسر على صخرة المقاومة المصرية مرة أخرى^(١).

ولا يقلل من أهمية هذا الدور الذي قامت به مصر دفاعاً عن العروبة والاسلام
ضد الخطرين الصليبي والمغولي انها كانت عندئذ تحت حكم عناصر أجنبية عنها ،
فان طبيعة العصر الاسلامي في ذلك الحين لم تكن تعرف الوطنيات المحلية بل
كانت السيادة السياسية الاسلامية تنتقل بين مختلف عواصم العالم الاسلامي في
سهولة كاملة ، ولم يكن ينظر الى جنسية الحاكم أو موطنه الأصلي نظرة اعتبار ،
يكفي انه حاكم مسلم تتوافر فيه قليلاً أو كثيراً الشروط التي يتطلبها الاسلام
في الحاكم ، ولم تكن مصر تحت حكم هذه العناصر الأجنبية - سواء كانت تركية
أو جركسية أو كردية أو غيرها - فريدة ذاتها بل كانت نفس الظاهرة موجودة
في جميع الأقطار العربية الاسلامية الأخرى ، ان العامل الحاسم في ذلك الدور
الذي قامت به مصر دفاعاً عن حضارة المنطقة ومستقبلها لم يكن في شخصية
حكامها على الإطلاق وانما يكن فقط في قوتها الذاتية وثقلها الاستراتيجي
والحضاري في المنطقة ، فهذه الامكانيات التي تتمتع بها مصر منذ أبعد عصور
التاريخ هي التي مكنت حكامها رغم عدم مصريتهم من القيام بدورهم التاريخي
أو كما يقول الدكتور جمال حمدان مع عدم التقليل من عبقرية قادة من أمثال
صلاح الدين وبيبرس وقطز إلا أنهم ما كانوا ليحرزوا انتصاراتهم ما لم يكونوا
قد اعتمدوا على قوة مصر ، ولو لم يكن صلاح الدين قد تزعم القوة المصرية لما
كان قدره قد فاق قدر نور الدين ولو كان قطز أو بيبرس قد ظهرا في بغداد
زمن الغزو المغولي لما استطاعا أيضاً انقاذ عاصمة الخلافة .

* * *

(١) المرجع السابق : ص ١٧٤ - ١٧٥ .

يمكننا كذلك أن نلمس استمرار الشخصية المصرية في العصر الاسلامي فيما ساهمت به مصر في الجوانب الروحية والثقافية والفنية من حضارة العصر ، فهذه المساهمات دليل على شخصية مصر المتفتحة وعلى الرواسب الحضارية لدى المصريين فلم تكن روح مصر الاصلية مستمرة تحت السطح لما أمكن لمصر والمصريين القيام بهذا الدور الايجابي في الحضارة الاسلامية .

وأول ما يلفت النظر فيما نحن بصددده تلك المساهمات القيمة التي قدمتها مصر في الناحية الروحية للاسلام واعني بها التصوف ، إذ يؤكد كثير من المؤرخين أن مصر هي التي أوجت بنظام التصوف في الاسلام ، يقول أ. ج . أبري إن تأثير العرب المسلمين بالرهبة المصرية المزدهرة في الصحراء الغربية وسيناء أمر مؤكد وإن لم يكن هناك سبيل الى اثباته على وجه اليقين ، ويمكن على الأقل القول بأن ظهور حركة التصوف الاسلامية خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين قد أوحى بها الرهبان المسيحيون المنتشرون في صحارى مصر^(١) .

ومن أوائل الصوفية المسلمين العظام ذو النون المصري (ت ٨٦٠ م) الاخيمي النوبي الأصل ، ويؤثر عنه شيء ذو دلالة هو انه كان قادراً على قراءة وفهم النقوش الفرعونية مما يدل على انه كان لا يزال على علاقة بالتراث المصري القديم ، وتميز الى مساهمات خاصة في نظرية المعرفة في الاسلام ، وقيل انه وضع أيضاً مؤلفات في الكيمياء وهي كما هو معروف علم مصري قديم .

وليس عجباً أن تزدهر في مصر - وهي أرض الروحانيات العريقة - الطرق الصوفية الاسلامية وأن تساهم مصر بعدد من الصوفيين البارزين أمثال عمر بن الفارض الشاعر الصوفي المصري الكبير (١١٨١ - ٢١٣٤ م) والامام

1) Glanville : Legacy of Egypt, The Contribution to Islam P. 351 .

البوصيري (١٢١٣ م) صاحب قصيدة البردة أشهر المدائح النبوية ، وعطاء الله الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية الذي ولد في مراکش ولكنه قضى معظم حياته العملية في مصر وتأثر بمدارسها الفكرية وتوفي بها عام ١٢٥٨ م ، وابن الوفاء الشاعر الصوفي المصري الذي ولد بالقاهرة عام ١٣٥٧ م ، والمؤلف الصوفي الشهير الشعراني الذي ولد بالفسطاط عام ١٤٩٢ م وله أكثر من خمسين مؤلفاً .

أما في مجال الفن الاسلامي فمن الصعب تحديد ما هو مصري لهما ودماً لأن أهل الحرف والصناعات في الدولة الاسلامية كانوا ينقلون من قطر الى آخر بما يجعل من الصعب تحديد الملامح القومية في الفن الاسلامي ، ومع ذلك فمن السهل العثور على أثر كبير للحرفيين القبط في كثير من الفنون الاسلامية وخاصة في فنون السيراميك والخط وتكفيت المعادن والتطعيم بالفضة على الخشب المحفور وصناعة التحف من العظام والعاج والفضة ، وقد كشفت الحفريات في الفسطاط عن مجموعات كبيرة من السيراميك والنسيج والفخار والتحف يبدو فيها تأثير الفن القبطي واضحاً مما يدل على ان المصريين ساهموا في تطوير الفن الاسلامي منذ أول عهده ، وكذلك فقد برع المصريون في فنون الخط العربي (لا سيما مصاحف العصر المملوكي) . أما هندسة المساجد فقد تخلقت مصر فيها حق العهد الفاطمي ثم لحقت بالتطور في هذا الفن وأبدعت فيه .

أما في المجال الفكري فان مساهمات مصر والمصريين في كافة نواحيه لا تدخل تحت حصر ، فقد قدمت مصر للثقافة العربية مثات بل ألوفاً من أبرز الشعراء والكتاب والمؤرخين والفقهاء والعلماء الذين أثروا لغسة الضاد وعقل الاسلام بعقرياتهم الخلاقة وانتاجهم الخالد على مدى العصور .

ومن هؤلاء على سبيل المثال^(١) اللغوي ابن الحاجب (ت ١٢٤٨ م) وابن

(١) المرجع السابق .

هشام صاحب الدراسات القرآنية واللغوية (ت ١٣٦٠ م) والدمايني في علم العروض (ت ١٤٢٤ م) والزبيدي صاحب تاج العروس (ت ١٧٩١) وجلال الدين السيوطي الموسوعي الثقافة (ت ١٥٠٥ م) وقد نسب اليه المستشرق بروكلمان قائمة من المؤلفات تبلغ ٣٣٣ عدداً والمحتمل أنها ناقصة . والدميمري صاحب حياة الحيوان (ت ١٤٠٥ م) والجدي الكياوي (ت ١٣٤٢ م) . وفي الطب نجد الاسرائيلي (ت ٩٣٢ م) وابن رضوان (ت ١٠٦٨ م) وفي الفقه المندھيري (ت ١٢٥٨ م) والمنأوى (ت ١٦٢٢ م) وفي الانثربولوجيا النواجي (ت ١٤٥٥ م) وابن سيد الناس (ت ١٣٣٤ م) صاحب ترجمة معروفة عن حياة محمد ، وفي الفقه المالكي الجندي (ت ١٣٦٥ م) وفي الشافعي تقي الدين السبكي (ت ١٣٥٥ م) وتاج الدين السبكي (ت ١٣٧٠ م) وفي الحنفي ابن نجيم (ت ١٥٦٣ م) والدمرداشي (ت ١٥٩٥ م) ومن الشافعية أيضاً البلقيني (ت ١٤٠٣ م) والاقشي (ت ١٤٠٥ م) والانصاري (ت ١٥٩٥ م) والحفاجي (توفي ١٦٥٩ م)

وفي مجال التأريخ بالذات برز عدد كبير من المصريين أو من اتخذوا من مصر وطنهم الأول ، وفي مقدمتهم ابن عبد الحكم صاحب أقدم تاريخ لفتح مصر المسمى « فتوح مصر والمغرب » وتوفي بالفسطاط عام ٨٧١ م ، وأبوتنحيوس بطريق الملكانية بالاسكندرية (ت ٩٦٠ م) ويعرفه العرب باسم سعيد بن بطريق وله عدة مؤلفات في التاريخ أشهرها « نظم الجواهر » ، والمسبحي (ت ١٠٢٩ م) صاحب التاريخ المتعدد الاجزاء « أخبار مصر وفضائلها » وقد بقي منه جزء واحد فقط هو الرابع عشر ، والماتى (ت ١٢٠٩ م) مؤلف « قوانين الدواوين » ويضم شرحاً مفصلاً لأحكام أجهزة الدولة في عهد صلاح الدين الايوبي . ومن أشهر المؤرخين المصريين بـل عمدتهم جميعاً تقي الدين المقرئ الذي ولد في القاهرة عام ١٣٦٤ م صاحب « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » واستفاد فيه من سابقه الأوحدي ، وكتب أيضاً تاريخ الفاطميين في « اتعاظ الحنفا » كما كتب تاريخ الايوبيين والمالكي في « السلوك

لمعرفة دول الملوك « وكان المقرئ يبنوي وضع عمل موسوعي ضخمة من ٨٠ مجلداً عن مشاهير المصريين انجز منه ١٦ جزءاً فقط قبل أن تواتيه منيته ، وكذلك كتب عن معاصريه « درر العقود » ولم يتمه وبقيت منه شذرات فحسب ، وله « شذور العقور » ومساهمات أخرى في الجغرافيا والعقيدة وعلم الحديث وتوفي بالقاهرة عام ١٤٤٢ م .

ويكاد يقترب من المقرئ في شهرته وأهميته تلميذه ابو المحاسن بن تغرى بردى (١٤١١ - ١٤٦٩ م) وقد وضع سبعة أعمال في التاريخ المصري أشهرها « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ويحوي تاريخ مصر من الفتح العربي الى عام ١٤٥٣ م ، وهناك مؤلف شهير آخر هو ابن دقاق (١٣٥٠ - ١٤٠٦ م) وكتب أيضاً تاريخاً لمصر بعنوان « نزهة الأنام » اكمله عام ١٣٨٢ م وتاريخاً للحكام مصر حتى عام ١٤٠٢ م بعنوان « الجواهر الثمين » وذلك بوحى من السلطان برقوق ، كما كتب وصفاً لأشهر عشرة مدن في الاسلام بعنوان « الدرر المودعة » .

وهناك كذلك ابن الفرات الذي ولد بالقاهرة عام ١٣٣٤ م وشرع في كتابة موسوعة ضخمة لتاريخ الاسلام بعنوان « تاريخ الدول والملوك » وكان يبنوي به تغطية كل التاريخ الاسلامي وبدأه من الحاضر متوغلاً في الماضي فتناول أحداث القرن الرابع عشر أولاً ولكن وافته منيته عام ١٤٠٥ م بعد أن كتب تسعة أجزاء وصل فيها الى القرن العاشر .

ويأتي بعد ذلك من المؤرخين المصريين السيوطي الذي كتب ثلاثة أعمال في التاريخ أهمها تاريخه عن مصر « حسن المحاضرة » ثم تلميذه ابن أياس (ت ١٥٢٤ م) الذي وضع واحداً من أهم المؤلفات في تاريخ مصر بعنوان « بدائع الزهور » وكتب أيضاً تاريخاً للعالم بعنوان « مرج الزهور » ومؤلفاً في الجغرافيا العالمية مع تركيز خاص على مصر بعنوان « نشق الزهور » ، وفي القرن التاسع عشر كتب الشيخ الشرقاوي (ت ١٨١٢ م) عن تاريخ مصر حتى حملة نابليون ،

وكتب زميله الشيخ الجبرتي مؤلفه الهام « عجائب الاخبار » الذي يعد آخر الأعمال الكلاسيكية الكبرى في الأدب العربي ، ثم كتب علي باشا مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣ م) الخطط الجديدة الذي قصد به اتمام خطط المقريري في عشرين جزءاً .

وعندما بدأت الطباعة في الشرق العربي كانت مصر في مقدمة الدول التي استغلت هذه الوسيلة الحديثة لتطوير الثقافة العربية والاسلامية ، وسبقت غيرها من الدول الشرقية بمراحل في المادة المطبوعة كما وكيفا ، وانتجت عديداً من كبار المفكرين المحدثين الذين انجزوا الثورة الكبرى في الفكر العربي الحديث ابتداء من رفاعة الطهطاوي إلى المازني وهيكل وطه حسين والعقاد وحسين فوزي ، بالإضافة إلى ما أنشأت من مؤسسات ثقافية كبرى أثرت الحضارة العربية المعاصرة اثراء كبيراً وفي مقدمتها الجامعات المصرية .

* * *

من هذا العرض الموجز لمساهمات مصر الاسلامية يمكن أن نخلص إلى عدة نتائج ..

النتيجة الأولى ان مصر لم تفقد شخصيتها الذاتية بعد الفتح العربي الاسلامي بالرغم من التغيرات الأساسية التي طرأت عليها بل كانت دائماً ترغم حكامها على احترام شخصيتها .

والنتيجة الثانية ان دور مصر الاستراتيجية في المنطقة ظل مستمراً منذ اقدم العصور إلى الوقت الحاضر وأتاح لحكام مصر المسلمين رغم انهم ليسوا من أبناءها أن يستقلوا بها معظم الوقت وان يجعلوا منها نواة لامبراطوريات كبرى .

والنتيجة الثالثة ان امكانيات مصر البشرية والاقتصادية كانت العامل الأول

في دفع الاخطار الخارجية الجسيمة التي حاقت بالمروبة والاسلام وهددت
مصير المنطقة في العصور الوسطى .

والنتيجة الرابعة ان مصر ساهمت بسخاء في الفكر العربي الاسلامي بما
قدمته من ثمار قرائح ابنائها ، وبما أتاحته من أمن وطمأنينة للمفكرين المسلمين
الذين استقروا فيها، وهي لا تزال تضطلع بدور القيادة الفكرية والسياسية في
العالم العربي الى اليوم .

والخلاصة التي لا غل تكرارها ان الحقبة العربية الاسلامية لم تبتز تاريخ
مصر ، وهي ليست أكثر من حلقة في تاريخ مصر المتناسك الحلقات ، الأمر
الذي يستقيم في ظله تأكيد مبدأ وحدة التاريخ المصري في كل العصور .

القسم الثالث

بين الوطنية والقومية

مصر والأبعاد الثلاثة

تنازعت مصر في تاريخها الحديث ثلاثة أبعاد قومية هي البعد الإسلامي ، والبعد الوطني المصري ، والبعد القومي العربي . هذه الأبعاد تعد انعكاساً طبيعياً لشعور المصريين بحقيقتهم المركبة من مزيج من المشاعر الإسلامية والإقليمية والعربية ولكنها للأسف لم تعرف التصالح فيما بينها إلا في مرحلة متأخرة جداً ، بل يمكن القول بأن التصالح التام لم يتبلور فيما بينها بعد .

والمؤكد ان المنازعات التي قامت بين هذه الأبعاد الثلاثة ووصلت إلى حد انكار كل منها للآخرى انكاراً تاماً إنما تعبر عن عدم نضج كاف ، ومن طبيعة الأفكار غير الناضجة انها تميل للتعصب لذاتها وانكار غيرها .

وسوف نرى فيما بعد كيف أن هذه الأبعاد الثلاثة انعكاسات لحقيقة واحدة ، ولذلك فهي متكاملة وليست متناقضة ، كأن يقال مثلاً في وصف رجل ما انه اسمر وفسارح وقوي ، ولا يمكن أن تجب إحدى هذه الصفات الصفتين الأخرتين ، ولكن قبل أن نصل إلى هذه النتيجة لابد من القاء نظرة على تلك الأبعاد الثلاثة ، وكيفية نشأتها ، وأثرها في تاريخ مصر الحديث ، والمنازعات التي شجرت فيما بينها ^(١) .

(١) المرجع الاساسي لهذا البحث كتاب « الفكرة العربية في مصر » لأنيس صايغ ولن نشير اليه في الجزئيات الكثيرة المقتبسة منه ، وإنما ستكون الإشارة الى المراجع الاضافية الاخرى .

أقدم هذه الأبعاد جميعاً في تاريخ الفكر المصري الحديث هو البعد الإسلامي، فهو ميراث الحضارة الإسلامية التي تأصلت في مصر، وقد رأينا فيما سبق عند الحديث عن الموجة العالمية التي تقلبت فيها مصر منذ أواخر العصور الفرعونية والتي تقوم على أساس العقيدة لا الوطن كيف أن الموجة الإسلامية كانت من القوة بحيث قضت من فترة وجيزة على أية مشاعر غيرها وفي مقدمتها مشاعر الانتماء القومي الإقليمي. ورأينا كيف تقوم النظرية الإسلامية على انقسام العالم إلى دار سلام هي التي يحكمها الإسلام بغض النظر عن حدودها الجغرافية وتقسيماتها الإدارية والإقليمية، ودار حرب وهي التي لا تخضع لحكم الإسلام، والعلاقة بينهما هي الجهاد، فلا محل مطلقاً لأية مشاعر قومية أو وطنية وإنما الشعور الوحيد هو الشعور الإنساني العام القائم على وحدة العقيدة، بل كان هذا الشعور يستنكر أية مشاعر من هذا النوع باعتبارها نزعات شعبية ضارة بوحدة العالم الإسلامي.

وهكذا لم يعرف المصريون أو العرب عموماً أو غيرهم من شعوب الامبراطورية الإسلامية أية مشاعر قومية قائمة على المواطن المحلية والحدود الجغرافية والتاريخ الخاص، وكانت النزعة الشعبوية الفارسية التي تنكرت لذلك بمثابة انتكاسة خطيرة لوحدة العالم الإسلامي، فكراً وعملاً، وهوجت بشدة من مفكري الإسلام وقادته.

هذا الشعور بالاخاء الإسلامي وانتفاء الأحاسيس القومية هو ما أتاح للمصريين والشعوب العربية الأخرى قبول حكام ليسوا عرباً ولا ينطقون العربية ما داموا مسلمين يدافعون عن دار السلام والإسلام، وقد بدأت ظاهرة حكم العناصر غير العربية تتفشى فور سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية التي اعتمدت في أول أمرها على العناصر الفارسية ثم ظهرت إلى جانبها وحلت محلها العناصر التركية والجر كسية والكردية، واستطاع بعضها الاستقلال فعلاً

بمصر وبغيرها من الأقاليم العربية ثم تدهور الأمر إلى حكم المماليك ذوي الأصول غير العربية وغير الإسلامية معاً ما داموا قد نشئوا كمسلمين ، وأخيراً خضعت مصر والمنطقة العربية كلها فيما عدا المغرب الأقصى للحكم العثماني التركي المباشر. وصارت تحكم كأقاليم تابعة إلى الاستانة ولم يؤثر ذلك مطلقاً في مشاعر الولاء الإسلامي التي يكنها سكان المنطقة وخاصة في مصر للخلافة العثمانية باعتبارها حامية الإسلام .

وكان من نتيجة انتفاء الروح القومية لدى الشعوب العربية عدم ظهور حركات احتجاج قوية في وجه هؤلاء الحكام الأجانب وحق انتفاضات الشعب المصري على الولاة العثمانيين في القرن الثامن عشر والتي وصلت احداها إلى حد ارغام أحد الولاة على الالتزام بحجة تشبه اعلان حقوق الإنسان في الغرب لم يكن ذلك نتيجة روح قومية خالصة وإنما نتيجة روح إسلامية أساساً لأن الإسلام لا يقر الظلم ولا يسمح للوالي بالحكم المطلق المستبد .

وقد شهدت المنطقة العربية ثورات إسلامية إصلاحية بحجة كثرة عبيد القاهرة عام ١٢٦٠ م بقيادة الزاهد الشيعي الكوراني ، والثورة المهدية في عهد السلطان قلاوون ، وثورة ابن الفلاح التي بدأت في وادي التيم بسوريا . كما شهدت ثورات أخرى ذات طابع اقتصادي وطبقي سواء كانت ثورات بدوية تتمثل في قيام البدو الأعراب بقطع الطرق على الحكام المماليك وسلب تجارتهم وثوراتهم ، أو ثورات زراعية تتمثل في استيلاء الفلاحين على المحاصيل أو حرقها لحرمان الحكام منها ، أو ثورات مدنية يقوم بها فقراء المدن أو من يسمون بالحرافيش ، وهذا النوع من الثورات بالذات كان خالياً من الأيديولوجية الدينية بل موجهاً ضد رجعية رجال الدين وتحالفهم مع الحكام المستغلين ومع ذلك فإن الطابع القومي الوطني ظل منتفياً منها ، ولم يظهر هذا الطابع في غموض واستحياء إلا في الثورة الكبيرة التي قامت في صعيد مصر بين عرب الهوارة

والفلاحين المصريين ، وانتهت باستقلال الصعيد من المنيا إلى الشلال بزعامه شيخ العرب ممام أمير قبيلة الهوارة ، ولكن هذه التجربة ذات الأهداف الوطنية والاجتماعية لم تتح لها فرصة الاثمار إذ سرعان ما أخذها علي بك الكبير عام ١٧٦٦ م^(١) .

ولما دخلت مصر مع الحملة الفرنسية عصرها الحديث لم تكن فيها سوى هذه هذه المشاعر الإسلامية وهي التي جرححت في الصميم بمراى الجنود الفرنسيين النصارى يطأون أرضاً إسلامية رغم تودد نابليون الواضح للمصريين وحرصه على عدم المساس بمشاعرهم ، وهكذا كانت ثورة القاهرة الأولى ضد الاحتلال الفرنسى تحركها مشاعر إسلامية في المحل الأول وتبناها الأزهر ورجاله ولكن ظهر فيها في نفس الوقت ولأول مرة العامل الوطنى تحت لواء العامل الدينى ، أو بمعنى آخر كان الدين هو وسيلة ظهور الوطنية في ذلك الحين .

وكان الدافع الأساسى لجهود محمد علي وحروبه التوسعية مصالحه الخاصة وطموحه الشخصى ، ولكنه سربل هذا الدافع بالنزعة الإسلامية والتظاهر بالرغبة في تخليص الأمة الإسلامية من العثمانيين لأنهم خرجوا على الدين والشريعة . يقول عنه شفيق غربال « ان محمد علي بدأ وعاش وانتهى عثمانياً مسلماً وأن مهمته كما حددها من أول الأمر إلى آخره كانت احياء القوة العثمانية في ثوب جديد » ، وكذلك كانت النزعة الإسلامية هي الغالبة لدى ابنه ابراهيم رغم محاولته اضعاف ثوب عربي مصري على نفسه .

وظلت النزعة الإسلامية واضحة حتى في الثورة العرابية نفسها وهي ثورة وطنية مصرية صميمية ، فكان عرابي يتهم الخديو بأنه يطعن الإسلام في ظهره ، وكان ينادي باعتبار الخديو منحرفاً عن الشرع لأنه يخالف قول الآية الكريمة

(١) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث ج ١ كتاب الهلال - الفصل الأول .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يولهم منهم فإنه منهم » وكانت صيحة الاستنفار للجهاد بين الشعب المصري اثناء الثورة العرابية « جاي يا مسلمين جاي » وكان الكثيرون من دعاة الثورة وخطبائها وعلى رأسهم عبدالله النديم ينطلقون من منطلق إسلامي ، وكان الثوار العرابيون يسمون بالهلالية باعتبارهم يقومون بالجهاد ضد حملة الصليب ، وكان عرابي مع اعتزازه الكبير بمصريته وأصله الفلاحي متأثراً بفكرة الجامعة الإسلامية ومقراً بحق السلطان العثماني في مصر .

وكانت فكرة الجامعة الإسلامية بارزة في التفكير المصري من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين نتيجة لمدرسة الأفغاني وتلامذته الذين جددوا الفكر الديني وأبرزوا طابعه التقدمي . وقد أسس الشيخان الأفغاني ومحمد عبده جمعية العروة الوثقى للسمي لتوحيد الشرق الإسلامي وتأسيس حكومة إسلامية قوية على قاعدة الخلافة الرشيدة . وبذلك تلقت الفكرة الإسلامية دفعة قوية على يد الأفغاني الذي أخرج منها نسخة تقدمية تستطيع أن تسير العصر بدلاً من النسخة الرجعية السائدة التي تخلفت عن عصور التأخر والجهل والتي قننت الاضطهاد العثماني .

وعلى هذا الخط الإسلامي التقدمي الذي أرساه الأفغاني ومحمد عبده انطلق مفكرو وكتاب النزعة الإسلامية الجدد أمثال ابراهيم المويلحي وابنه محمد وولي الدين يكن ومصطفى لطفى المنفلوطي وعبد العزيز جاويز وعلي الغاياتي وأحمد شوقي وكثير من السوريين المتصرين أمثال أحمد فارس الشدياق والكواكبي ورشيد رضا وغيرهم .

والواقع ان قسماً كبيراً من رجال الفكر والأدب والسياسة في مطلع القرن العشرين بمصر كانوا ينطلقون من هذا الاتجاه الإسلامي ويطالبون باقامة اتحاد سياسي يضم جميع الشعوب الإسلامية ويقوم مقام الوحدة القومية ، وعندما

خلق الاستعمار « مشكلة طائفية » بين مسلمي مصر وأقباطها في أوائل القرن
تدعم الاتجاه الإسلامي لدى بعض المصريين وحاولوا صوغ القومية المصرية
بصبغة شرقية إسلامية في مقابل الصبغة الفرعونية التي تمسك بها الأقباط .

ولكن فكرة الجامعة الإسلامية تلقت ضربة قاصمة عندما تنكر رجال
جمعية الاتحاد والترقي في تركيا للأمانى القومية للشعوب العربية ثم بسقوط
الخلافة العثمانية نفسها في الحرب العالمية الأولى وتحلي تركيا الكمالية نهائياً عن
فكرة الجامعة الإسلامية ، غير أن دعاة الاتجاه الإسلامي في مصر حاولوا
الاستعاضة عن الخلافة العثمانية بالبحث عن وحدة المشرق الإسلامي كله وحاولوا
بتوجيه من الملك فؤاد ثم ابنه فاروق من بعده الترويج لفكرة إحياء الخلافة
الإسلامية ونقل مقرها إلى مصر ولكن هذه الفكرة قوومت بشدة من دعاة
القومية المصرية العلمانيين ، وكانت إشارة البدء في المعركة بين الاتجاهين كتاب
الشيخ علي عبد الرزاق « الإسلام وأصول الحكم » .

ولعبت جمعية الشبان المسلمين التي أسست عام ١٩٢٧ دوراً بارزاً في تأكيد
التيار الإسلامي ولاقت اقبالا شديداً لدى الشباب المصري المسلم وانتشرت
فروعها في البلاد العربية الأخرى ولم يكن للجمعية هدف سياسي وإنما كانت
تدافع عن القضايا العربية السياسية من زاوية أنها قضايا إسلامية بحتة ، ثم
ظهرت دعوة الإخوان المسلمين سافرة في اتجاهها الإسلامي السياسي ولكنها
انتهت إلى الإرهاب السافر وكان فشل هذه الحركة إيذاناً بفشل الدعوة السياسية
الإسلامية في مصر ولأسيما وقد خاض الشعب المصري في نفس الوقت معركته
التاريخية ضد حلف بغداد الذي ضم ثلاثاً من الدول الإسلامية غير العربية التي
كانت تقف في ذلك الحين مواقف معادية للقضايا العربية وهي إيران وباكستان
وتركيا ، وكانت العراق وهي الدولة العربية الوحيدة المنضمة للحلف تحت
النفوذ الاستعماري المباشر ، ثم لم يلبث أن ظهر النفوذ البريطاني سافراً خلف

الدعوة للوحدة الإسلامية بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ فقد
تبنت بريطانيا هذه الدعوة لاستقطاب القوى الرجعية في العالم العربي
والإسلامي .

أمام هذه الطريق المسدودة التي منيت بها الفكرة الإسلامية السياسية في
مصر تحركت ثورة ٢٣ يوليو لوضع الدين في نطاقه الصحيح ، فركزت على
المفهوم الحضاري التقدمي للإسلام وعملت على تعميقه في مصر ونشره في البلاد
الآسيوية الإسلامية بواسطة المؤتمر الإسلامي والبعوث المختلفة . وهكذا تم
تصحيح مسار الاتجاه الإسلامي ووضعته في موضعه الصحيح كرابط إنسانية
ومعنوية عامة وليس كبديل للرابطة القومية السياسية .

* * *

التيار الثاني الذي فرض وجوده بقوة على الواقع المصري الحديث هو تيار
القومية المصرية وكان انعكاساً لإحساس المصريين بذاتهم وبالبعد التاريخي لبلادهم ،
وهو تيار علماني سلك في مجراه المسلمون والاقباط جميعاً وتبدو فيه بوضوح
مؤثرات الحضارة الغربية الحديثة ، فهو وليد الاحتكاك المباشر للمصريين
بالحضارة الغربية منذ أوائل القرن التاسع عشر حين انفتحوا لأول مرة على
مصادر أخرى للمعرفة والتنوير غير المصدر الديني الإسلامي الذي ساد طيلة
القرون السابقة .

لقد سمع المصريون لأول مرة نغمة لم يألوها من قبل حين وجه اليهم
بونايرت أول منشور مطبوع بالعربية في بداية حملته على مصر خاطبهم فيه كأمة
قائمة بذاتها ومتميزة عن حكامها الأجانب الذين ينعمون دونهم بخيرات بلادهم
الجميلة . واهتم فريق العلماء الفطاحل الذين صحبوا الحملة الفرنسية بالتنقيب في

كافة شئون مصر الطبيعية والاجتماعية والتاريخية وسجلوا خلاصة أبحاثهم في السفر الجليل المتعدد الأجزاء « وصف مصر » الذي كان بمثابة اكتشاف لمصر في العصر الحديث .

ولذلك لم يكن محض صدفة ان يشعر المصريون باحساس الوطنية المصرية في زمن الحملة الفرنسية ، وقد تجلى هذا الاحساس ممتزجاً بالمشاعر الإسلامية القوية في ثورة القاهرة الأولى ، كما تجلى خالصاً في مساعي الجنرال يعقوب حنا الذي طالب باستقلال مصر ، وتكوين جيش مصري ، والأخذ بأسباب الحضارة الغربية .

وفي تقرير الفارس لاسكارس الايطالي الأصل الذي رافق الجنرال يعقوب في رحلته إلى أوروبا للدعوة لاستقلال مصر نقراً لأول مرة اشادة بالدور الحضاري التليد لمصر لا باعتبارها جزءاً من الشرق الإسلامي المتأخر وانما باعتبارها منبع المدنية الذي يدين له الغرب المتعدين ، يقول التقرير :

« ان الدول لن تعمل أبداً عملاً أجد وأنبل من أن تبسدد بقرار سيامي واحد ظلمات الجهل والوحشية التي تكاثفت على هذه البلاد الذائعة الصيت ، تلك البلاد التي كانت مهد استنارتنا وعلومنا وفنوننا ، تلك البلاد التي يمكن القول عنها إجمالاً انها كانت موضع قيام الحضارة التي نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت إلينا ، وإذا عجزت مصر بعد زوال عزها وازدهارها عن أن تثير شعوراً بعرفان صنيعها وما قدمته من خير فلتثر على الأقل عطف الدول الأوروبية عليها .. الخ (١) » .

وفي عهد محمد علي ساهم عاملان هامان في خلق الفكرة القومية لدى

(١) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث - ج ١ .

المصريين وهما استخدام المصريين في الجيش وايفاد البعثات الدراسية لأوروبا .

فقد أثبت المصريون كفاءتهم في الجيش رغم انهم كانوا لا يتجاوزون الرتب الصغيرة ، أو كما يقول كلوت بك « كان الاتراك (يقصد العاملين في الجيش المصري) لما يشعرون به من غلوهم وكبريائهم يحتقرون المصريين ولا يكثرثون بهم ويعتقدون بهم المعجز عن مجاراتهم ، ولكن حرب مورة أثبتت لهم بالبرهان القاطع أن ذلك الشعب الخجول الذي أذله الضغط القديم أهل لمنازعتهم فحاز النجاح والفوز في القتال » (١) ، وفي بوتقة الجيش أحس الفلاحون المصريون بوطنيتهم واضطهاد العناصر التركية لهم ، وكان هذا الشعور من أكبر دوافع الثورة العربية فيما بعد .

أما الشبان المصريون الذين ذهبوا لطلب العلم في أوروبا فقد وقفوا على طرف من الفكر الأوربي الحديث في السياسة والاجتماع والتاريخ والعلوم التطبيقية وعادوا إلى بلادهم ليبعثوا النهضة الفكرية ويبشروا بالفكرة القومية ، ولأول مرة مثلاً نلس الاحساس بأعجاد التاريخ المصري القديم في قول رفاعة رافع الطهطاوي في « مناهج الألباب » :

« فقد اجمع المؤرخون على أن مصر دون غيرها من الممالك عظم تمدنها وبلغ أهلها درجة عليا في الفنون والمنافع العمومية فكيف لا وان آثار التمدن واماراته وعلاماته مكثت بمصر نحو ثلاثة وأربعين قرناً يشاهدها الوارد والمتردد ويعجب من حسنها الوافد والمتفرج مع تنوعها كل التنوع ، فجميع المباني التي تدل على عظم ملوكها وسلاطينها هي من أقوى دلائل العظمة وبراهينها ، فانظر إلى آثار منف وأبنيته وعجائبها وأصنامها ودفائنها مما يحكيه المؤرخون عنها وانها

(١) المرجع السابق : ص ٩٢ .

كانت ثلاثين ميلاً بيوتاً متصلة ومنها بيت فرعون وهو قطعة واحدة من الحجر وسقفه وفرشه وحيطانه من الحجر الأخضر وكان لها سبعون باباً ، وكانت منزل البيوت من القبط الأولى والعماليق ومسكن الفراعنة ، وما زال الملك بها الى أن ملك الروم اليونان ديار مصر فانتقل كرسي المملكة منها الى الاسكندرية ومع ذلك لم تزل عامرة الى ان جاء الاسلام ثم خربت ، وفيها كانت الأنهار تجري من تحت سرير الملك وكانت أربعة أنهار ،^(١).

ولدى الطهطاوي نفس واحدة في أولى المحاولات للفصل بين الوطنية المصرية وفكرة الجامعة الاسلامية واعلاء شأن الوطن الذي ينتمي الى تربته وأديمه ، فيقول في تعريف الوطن وبث الدعوة إلى حبه « الوطن هو عش الانسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، وجمع أسرته ، ومقطع سيرته ، وهو البلد الذي نشأته تربته ، وغذاه هواؤه ، ورباه نسيجه وحلت عنه التائب فيه ... ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف ان لم نقل إنها أشرف الامكنة فهي أرض الشرف والمجد في القديم والحديث وكم ورد في فضلها من آيات بينات وآثار وحديث فما كأنها إلا صورة الخلد منقوشة في عرض الأرض بيد الحكمة الالهية التي جمعت محاسن الدنيا فيها ».

هذا الاتجاه الذي بدا بوضوح لدى الطهطاوي ، وأيضاً لدى نظيره وغيره علي باشا مبارك تردد قبل ذلك في الخطاب الذي القاه سعيد باشا في مأدبة بقصر النيل وأشار اليه أحمد عرابي كأول حجر في أساس نظام مصر للمصريين ، وقال فيه :

« اني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدته مظلوماً مستعبداً لغيره من أمم الأرض ، فقد توالى عليه دول ظالمة له كثيرة

(١) د . لويس عوض : تاريخ الفكر المصري الحديث ج ٢ ص ١٥٠ - وكتاب الهلال .

كالعرب الرعاة (الهكسوس) والاشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام ، وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب ومن الترك والاكراة والشركس ، وكثيراً ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن بوناپرت ، وحيث اني اعتبر نفسي مصرياً فوجب علي أن أربي أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيباً حتى أجعله صالحاً لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغني بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسي على إبراز هذا الرأي من الفكر الى العمل .

هذه النعمة الجديدة التي طرقت حياة المصريين كانت بمثابة عودة الروح الى هذه الأمة ، كانت احساساً بالذات لم يسبق له مثيل في تاريخ المصريين منذ نهاية المصور الفرعونية لقد أحس المصريون فجأة بعد أكثر من ألفي عام من المشاعر العالمية - التي تعلي شأن العقيدة لا الوطن - ببعدهم التاريخي الذاتي ، ولم تعد عقيدتهم الدينية ولغتهم العربية تحجبان عن غيوتهم هذه الحقيقة ، انهم يعتزون بالحضارة العربية الاسلامية التي تفاعلوا في أجوائها ثلاثة عشر قرناً ولكنهم يشعرون الآن ان هذه الحضارة على عظمتها وسموها وحيويتها ليست كل شيء في تاريخ مصر بل هناك في خلفية الحقيقة المصرية تنبسط أبعاد تاريخية أخرى لمصر وحضارتها ، هناك نبئت جذور هذا الشعب الذي ترك بصماته واضحة على الحضارة الانسانية قبل أن يسقط تحت حوافر الخيل ، ومعاول الهدم ، ولكنه لم يسقط ثمة ليموت ويمحي كما حدث لشعوب أخرى كثيرة ، بل لاز بخصيته الفريدة التي مكنته من الحياة ودلت في نفس الوقت على مدى أصالته وقدرته على الصمود ، تلك الخاصية هي ما يصفه المؤرخون بالمقاومة السلبية ، والحقيقة أنها سلبية فقط من حيث الأسلوب أو « التكتيك » ولكنها ايجابية تماماً من حيث الهدف أو « الاستراتيجية » ، ففي الوقت الذي كانت فيه جحافل الغزاة على اختلاف أصولهم ومللهم وأمزجتهم يسيطرون على الوادي العتيق ويتحكمون

في مصر ابنائه كان الفلاح المصري البسيط قابلاً خلف محراثه أو مكباً على أدواته يصنع الحضارة بدون انقطاع، لقد ضاع منه كل ما يملك ولكنه لم يفرط في نفسه مرة واحدة، ولم يسمح لأية قوة بأن تنتزعه من جذوره، كل ما فعله خلال فترة قهره الطويل انه انتهر تلك الفرصة التاريخية الفريدة التي أتاحها له الفتح العربي ليكتسب حضارة جديدة بدلاً من تلك التي ماتت، وليجدد دمائه التي كادت تجف في عروقه حتى يستطيع مواصلة الحياة ومغالبة الزمن كخلية اجتماعية حية متفاعلة في الكيان الانساني العالمي بدلاً من ان يذوي كلية أو يبقى كخلية بشرية متحجرة.

والآن ما هي الصعوبة تدب في أوصال العملاق الغافي، ما هم المصريون يفتحون عيونهم على حضارة الغرب المتألقة ويعرفون الكثير عن الحركات القومية والوطنية المتأججة في أوروبا، ويقرأون صفحات ماضيهم العظيم، فيتحرك في صدورهم الحنين الوطني، ويتحول الحنين الى لهب مقدس، ويصهر اللهب الشوائب التي علفت بهم في رحلة الزمن المضنية، ليجلو جوهرهم، ويصقل معدنهم النقي.

ولقد ساهمت عدة عوامل هامة في دعم اتجاه القومية المصرية ذات البعد التاريخي لدى المصريين خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ..

العامل الاكبر هو اختلاف نوعية الاحتلال الذي تعرض له المشرق العربي، فقد استهدفت مصر لأطماع الدول الغربية الأوروبية ثم خضعت للاحتلال البريطاني في الوقت الذي كانت فيه تبعيتها للدولة العثمانية شكلية بل كان الوطنيون المصريون يحاولون الحصول على مؤازرة الدولة العثمانية في كفاحهم ضد الاستعمار الغربي، أما أقطار المشرق العربي فلم تعرف سوى الحكم العثماني المظلم البغيض يخذ أنفاسها ويسحق زهرة أبنائها وكانت تستعين عليهم باعداء مصر التقليديين

أي فرنسا وإنجلترا، ومن هنا كانت مشاعر المصريين اسلامية ووطنية ولم يضرهم كراهية عميقة للاتراك بخلاف اشفائهم العرب في الأقطار العربية الأخرى الذين أيقظت معامللة الاتراك السيئة لهم مشاعرهم العربية في وقت مبكر .

وكانت حجة الاستعمار الكبرى لتبرير بقائه في مصر الزعم بأن مصر متأخرة وانها درحت في الذل منذ الأزل وليست أهلاً للاستقلال ولذلك عمد المصريون لدحض هذه الحجة بإبراز عراقة الحضارة الفرعونية بدلاً من احياء التراث العربي، وساعد على ذلك ان الحضارة المصرية القديمة بدأت في ذلك الحين تكشف عن روائع مكنوناتها بفضل تقدم علم الآثار وتوالي المؤلفات الغربية القيمة في التاريخ المصري القديم ونشاط حركة الترجمة الى اللغة العربية كل ذلك فتح أعين المصريين على تاريخهم القديم وظهرت بينهم دعوة قوية إلى دراسة هذا التاريخ واستلهامه .

وظلت هذه الدعوة تشغل بال المفكرين المصريين الى وقت متأخر يعود إلى ثلاثينات هذا القرن ، فنجد الدكتور هيكل يطالب في مقدمة كتابه « تراجم مصرية وغربية » بدراسة تاريخ مصر كتاريخ مستقل لأمة مستقلة دراسة علمية شاملة ، ونجد مريت بطرس غالي في « سياسة الغد » يطالب بدراسة موحدة للتاريخ المصري من أوله الى آخره والكف عن درسه حسب عصوره المنفصلة وإيجاد الصلة بين العصور التي تكون كتلة واحدة لأمة واحدة .

وتدعم الطابع القومي المصري لدى معظم أو تقريباً كل دعاة النهضة المصرية الحديثة من زعماء سياسيين ومفكرين وكتاب وصحفيين وفنانين ، وأصبح تيار القومية المصرية ذات البعد الفرعوني يواكب نهضة مصر الحديثة في كل الميادين سواء في مجال الكفاح السياسي أو البناء الاقتصادي أو في الثقافة والفن والتعليم، ولذلك اصطبغت كل الحياة السياسية والفكرية والوطنية بهذه الصبغة المصرية الخالصة ابتداء من الثورات الى برامج الأحزاب الى ثمار قرائح المفكرين .

ولم يكن يعيب هذا الاتجاه إلا شيء واحد ذلك هو الافراط في النزعة
الأقليمية على نحو حجب معه قسمة أخرى أصيلة من وجه مصر ألا وهي عروبة
مصر والمصريين فلم تفتن النهضة المصرية الى حقيقة انتهاء مصر العربي إلا متأخراً
جداً وعلى استحياء شديد .

* * *

غير أن هذا النقص بدأ يعالج في مرحلة مسا بين الحربين العالميتين حين
أخذت مصر تتلمس طريقها الى العالم العربي وتشعر بانتمائها اليه .

فقد أدت الحرب العالمية الأولى الى تغيرات كبرى في العالم العربي . انهارت
الامبراطورية العثمانية وظهرت كيانات سياسية عربية متعددة في الحجاز واليمن
والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والاردن ، ولكن هذه الكيانات لم تحصل
على استقلال حقيقي بل ولدت تحت راية الاحتلال الغربي الذي اتخذ لنفسه
اسم الانتداب وبدأت في المشرق العربي مرحلة جديدة من النضال الوطني
والقومي ضد النفوذ الغربي هذه المرة وضد الخطر الصهيوني الذي زرعه
الغرب في أرض فلسطين .

وبالنسبة لمصر خضعت رسمياً للحماية البريطانية التي أخذت شكلاً يكاد
يكون معترفاً به من المجتمع الدولي وانتهت تماماً أوهام فكرة الجامعة الاسلامية
بسقوط الخلافة العثمانية كما انتهت من قبل أوهام الاستعانة بالدول الغربية الاخرى
كفرنسا والولايات المتحدة ضد بريطانيا وذلك بعد توقيع الاتفاق الودي بين
فرنسا والولايات المتحدة عام ١٩٠٤ وبعد زيارة الرئيس الامريكي تيودور
روزفلت لمصر في مطلع القرن واشادته علناً بالاحتلال البريطاني ، وكان على
مصر أن تخوض نضالها الوطني المرير معتمدة على نفسها أساساً ، وعلى أي تأييد
خارجي يتاح لها على الصعيد العربي والعالمي .

ولقيت مصر أبلغ التأييد من العرب حكومات وشعوباً رغم الحواجز التي أقامها الاستعمار في المنطقة ، واعترف العرب بزعامة مصر سياسياً وفكرياً ، وردت مصر الجليل بأن أيدت القضايا العربية بقدر ما تتحمل وتستطيع ، وأصبحت أكثر من أي وقت مضى ملجأ لحرار العرب المكافحين من أجل حرية بلادهم وقامت بين مصر والبلاد العربية علاقات دبلوماسية وروابط وثيقة توجت بإنشاء جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥ التي ساهمت رغم قصورها في تحقيق المزيد من التقارب العربي . وفي نفس الوقت ربطت سبل المواصلات الحديثة مصر بالعالم العربي من أقصى المشرق الى أقصى المغرب كما أدت ثورة وسائل الاعلام من إذاعة وطباعة وصحافة إلى نقل الأنباء والأفكار بين اجزاء العالم العربي وشهدت المنطقة طوفاناً من المؤتمرات والزيارات والرحلات ومختلف ألوان التبادل الفني والثقافي والرياضي الخ .

وأدت هذه العوامل جميعاً الى انفتاح لم يسبق له مثيل بين مصر والعالم العربي ، وبدأ شعراء مصر وكتابها وصحفيوها يطرقون الفكرة العربية ، وكان من الطبيعي أن يتفاعل الشعب المصري مع الفكرة العربية أكثر من تفاعل الحكومات والأحزاب ، فالدولة كانت خاضعة للسيطرة الاستعمارية والأحزاب مشغولة بقضية الجلاء والمناورات الداخلية ، أما الضمير الشعبي فكان يقظاً وحساساً بما فيه الكفاية بحيث كان سباقاً إلى احتضان الفكرة العربية وهضمها ، وتأسست في مصر عدة أحزاب ولواد وجمعيات اهتمت بمناصرة القضايا العربية والدعوة الى ابراز عروبة مصر ، ومنها جمعية الشبان المسلمين ، والرابطة الشرقية ، وجمعية الاتحاد العربي ، والنادي الشرقي ، وجمعية الوحدة العربية ، وجمعيات أخرى كثيرة لمناصرة قضية فلسطين وغيرها من القضايا العربية .

ولكن فكرة الوحدة العربية ظلت بعيدة عن اذهان القوميين المصريين ، بل ان مجرد وحدة النضال العربي كانت مرفوضة لدى البعض ، ويعبر عن هذا الموقف الدكتور هيكمل إذ يقول في مذكراته تبريراً لرفضه الانضمام إلى الرابطة

الشرقية .. « فكر جماعة (من المصريين) في أن يصلوا حركة مصر القومية بحركة جاراتها العربية وبحركة البلاد الشرقية التي تخضع من سلطان أجنبي لما تخضع له مصر .. وقد اعتذرت عندئذ (عن عدم الانضمام للرابطة) بأنني أرى من التفاوت بين مصر وبين هذه البلاد الشرقية في ثقافتها وفي لغاتها وفي مقوماتها القومية ما قد يصرفنا نحن المصريين عن تركيز جهودنا في قضية وطننا وما يدعونا لحل عبء لا طاقة لنا به ، وبذلك يضيع جهد ما أحوج مصر إليه . »

وقد شهدت هذه الفترة مساجلات عنيفة بين أنصار الوطنية المصرية ودعاة القومية العربية ..

كتب صلاح ذهني معبراً عن الفريق الأول يقول .. « لم تثر مصر لحادث دنشواي لأنها لم تكن بعد قد فهمت الأهرام واحست الصلة بينها وبين ابنائها ، وإنما ثارت عندما ظهرت الروح المصرية التي تفهم الأهرام وأدركت مجد بناتها وافتخرت بأن تنتسب اليهم .. عندما ثارت مصر كانت الأغاني تتحدث عن أولاد الفراعنة ومصر أم الأهرامات ، وكان النداء - نداء سعد - للمصريين انهم « أنبل الوارثين لأقدم مدينة » ، ظهر رمسيس وأحمس على الألسنة . لو قال المصريون إذ ذاك انهم أبناء العرب ، لو استبدلوا برمسيس وأحمس خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، لو غنى المصريون بكل ما تحوي جزيرة العرب من آثار واطلال ، إذن لما قامت ثورة استقلال ، لأن الثورة الاستقلالية هي دفاع عن الأرض .. الوطن المحدود بماضيه وآثاره وأهله .. إنما كان المصريون في ثورتهم يستمدون شعورهم بعاطفة الاستقلال من مصر المستقلة ، استنجدوا بالفراعنة لأن عاطفة الاستقلال لا تربطهم إلا بهؤلاء ، أما العاطفة التي تربطهم بالعرب فهي عاطفة أخرى ، العاطفة الدينية والعقيدة وعاطفة الجوار والمصلحة المشتركة والتضامن ضد ما يمس التراث المشترك . حين يكون الأمر ديناً إنما نستنجد ببلاد العرب ، وحين يكون الأمر خوفاً من غزو أوربا للشرق اقتصادياً أو

ثقافياً غزواً ضاراً إنما نستنجد بالرابطة الشرقية العربية ، أما والأمر أمر العزة القومية والاستقلال فلا شيء غير مصر المستقلة القديمة هي التي تلهمنا الروح وتنبجنا بالذكريات العذبة المضيئة التي تبعث في النفس روح الحماس ..»

والمثال المضاد يقدمه أحمد حسن الزيات الذي كتب مدافعاً عن غروب مصر رافضاً ماضيها الفرعوني كأوهام لا يجوز التمسك بها فقال « هذه مصر الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاثاً من التاريخ العربي نسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الصاحية سوابغ الظلال .. وذلك هو ماضي مصر الحي الذي يصبح في الدم ، ويثور في الأعصاب ، ويدفع بالحاضر إلى مستقبل ثابت الاسس ، شامخ الذرى ، عزيز الدعائم .. ازهقوا ان استطعتم هذه الروح ، واحموا ولو بالفرض هذا الماضي ثم انظروا ماذا يبقى في يد الزمان من مصر ، هل يبقى غير اشلاء من بقايا السوط ، وانضاء من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب الأموات » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور ، وتعنو للمجاهات . وقبور ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانقاضها الأرض ، وفنون خرافية شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ انشروا ما ضمنت القبور من رفاة الفراعين ، واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يديه من اكفان الماضي الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل ، وجمال الوادي ، وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمرو ، وان اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر ، وان القيثارة الذي الذي توقعون عليه الحان النيل هو قيثارة امرئ القيس ، وان آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتلأ السطور وتغذي العالم هي ادعى الى الفخر وأبقى على الدهر وأجدى على الناس من صفائح الذهب وجنادل الحجارة ، انما تفاضل الأمم بما قدمت للخليفة من خير وتتفاوت الأعمال بما أخذت على الانسان من نفع ، أليس الحزان خيراً من الكرنك ، والأزهر أفضل من الاهرام ، ودار الكتب أنفع من دار الآثار ؟ » .

وما يمكن أن يقال الآن تعليقاً على هذين النمطين من التفكير أن الاول أغفل الواقع الحي ، والثاني أغفل الروح الكامنة في أعماق مصر ، فكلاهما لا يعبر إلا عن زاوية واحدة من الحقيقة .

ولم تلبث أن برزت قضية فلسطين كدفعة كبيرة للفكرة العربية في مصر ، فقد بدأت هذه القضية منذ أواخر الثلاثينات تستحوذ على اهتمام المصريين رغم أن الخطر الصهيوني المباشر على مصر لم يكن قد ظهر بعد . فلم تكن هناك قضية فلسطين يمكن أن تهز العواطف المصرية من الأعماق .. ان محاولة تجري في وضع نهار القرن العشرين تحت سمع العالم وبصره لتجريد شعب عربي من وطنه وزرع أشتات من البشر محله بدعوى أنهم يهود وأن أجدادهم كانوا يسكنون هذه المنطقة منذ آلاف السنين ، وفي كل يوم كان ينكشف الجديد من أبعاد المؤامرة ، والمجاهدون الفلسطينيون يسقطون غدرأ برصاص العصابات الصهيونية وطوفان الهجرة اليهودية غير المشروعة لا ينقطع على فلسطين من شق أنحاء العالم وكأنها أرض مباح لا مالك لها ، لقد هزت المأساة ضمير المصريين ، وايقظت مشاعرهم العربية ، فالتفوا حول القضية الفلسطينية يؤيدونها سياسياً ، ويدعمونها مالياً ، ويضمونها فكرياً ، وعقدت عشرات المؤتمرات والندوات في مصر تأييداً لفلسطين وملأت اخبارها أعمدة الصحف وقالت الاكتتابات لصالح الفلسطينيين ، وتحركت الحكومات المصرية وراء الشعب معلنة مؤازرتها للقضية وتضامنها مع الدول العربية الاخرى لانقاذ فلسطين من براثن الصهيونية . وكان أمراً طبيعياً أن تتوج هذه الحماسة باشتراك مصر في حرب ١٩٤٨ رغم عدم استعدادها الكافي للقتال ، ورغم خيانة الملك وعدم كفاءة القادة ، ولكن المصريين أبلوا مع ذلك أعظم البلاء وارتوت أرض فلسطين بدمائهم جنوداً ومتطوعين وسجلوا على تلك الأرض العربية أعظم البطولات والتضحيات ، ولكن الشجاعة وحدها لا تكفي ، فلم تلبث أن تضافرت الرجعية الداخلية مع خيانة بعض العناصر العربية على امدار كل هذه التضحيات النبيلة ، وخرجت

مصر مدحورة من حرب فلسطين ، لم تطعن في صدرها بقدر ما طعنت في ظهرها .

وكان لمأساة الهزيمة وقع اليم لدى المصريين .. لم تألمهم الهزيمة بقدر ما آلمتهم الخيانة ، وبدأ للوهلة الاولى ان الفكرة العربية قد فشلت في أول امتحان تتعرض له ، وأخذ المصريون يراجعون حسابهم وبدأت مشاعر العزلة تتصاعد مرة أخرى مع نكسة القضية العربية والحصار مدها الثوري ، ولكن فجأة وفي قلب هذه البلبلة قامت ثورة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ .

* * *

بدأت ثورة يوليو كثورة مصرية بحثة أشعلتها جماعة من الضباط المصريين الشبان الذين اشتركوا في حرب فلسطين تحذوهم كابناء وطنهم جميعاً أنبل المشاعر وأعرض الآمال ، ولكنهم لم يلبثوا قبل غيرهم وأكثر من غيرهم أن لمسوا مدى الخيانة والفساد والانهلال الذي يتردى فيه الوطن ، وحدقوا بعيونهم في الهوة الرهيبة المحفورة تحت قدميه ، ولذلك كانوا كما قال قائد ثورة يوليو جمال عبد الناصر يحمون ويفكرون في مصر وهم طريحو الخنادق وسط المعركة .

لقد آمنوا بأن الاصلاح بمعناه الثوري وآفاقه البعيدة يجب أن يبدأ من الداخل ، في مصر ، وآمنوا أيضاً بأن الاحزاب القائمة - وقد لمسوا نشاطها عن كثب - أعجزت من أن تتخطى الهوة القائمة وأن الوطن في حاجة إلى ثورة شاملة تقتلع الفساد من جذوره ، ولذلك قامت الثورة تحذوها الرغبة الجامحة في اجتثاث الفساد الداخلي وتحقيق الاستقلال السياسي والاقتصادي ، ولكن الثورة لم تلبث أن واجهت ضرورة تحديد هويتها ومسارها ، وكان عليها بصفة أساسية أن تحدد المفهوم القومي لمصر هل تواصل الاتجاه الوطني الاقليمي ، أم تتعلق بالاتجاه الاسلامي العام ، أم تنفتح على الاتجاه القومي العربي ؟ .

كانت هذه المسألة من أولى المسائل التي شغلت فكر عبد الناصر ، فكتب في « فلسفة الثورة » ، يفاضل بين أهمية الاتجاهات الثلاثة في معرض الحديث عن الدوائر الإسلامية والأفريقية والعربية التي ينبغي أن تعمل مصر في نطاقها ، ومع عدم التقليل من أهمية الدائرتين الأولىين خرج عبد الناصر بنتيجة محددة عبر عنها بقوله « ما من شك أن الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا ، فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها نفس المحن وعشنا نفس الازمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك » ويضيف « لقد بدأت .. أو من بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسي : ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحداً ، والعدو واحداً مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ، فلماذا تشتتت جهودنا ؟ » .

وليس هناك كالممارسة العملية شيء يمكن أن يؤدي إلى اختبار الأفكار وبلورتها ، وقد أتاح أحداث وتطورات الخمسينات فرصة عملية للمصريين لممارسة الفكرة العربية والتمرس بالسياسة العربية وربط كفاحهم بالكفاح العربي ، وخلال هذه الفترة سقطت الحواجز الاستعمارية بين الشعوب العربية المتطلعة إلى الحرية والوحدة والتقدم الاجتماعي وبدأ واضحاً أنها تتعرض لعدو واحد وخطر واحد يتمثل في الاستعمار الجديد وقاعدته إسرائيل ، وبنفس الواضوح بدا أن المستقبل واحد وإن هناك ارتباطاً عضوياً لا يتفصم في المصير العربي العام .

وكانت المعركة ضد الأحلاف الغربية من أولى المعارك التي خاضتها ثورة يوليو على الصعيد العربي العام ، لم يعد المصريون يرفضون هذه الأحلاف بالنسبة لمصرهم فقط كما كانوا يفعلون في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات حين رفضوا معاهدة صديقي - بينفن والحلف الرباعي . بل أصبحوا يرفضونها بالنسبة للمشرق العربي كله ، ويرون في حلف بغداد والمشروعات الاستعمارية المماثلة سجناً كبيراً وتهديداً مباشراً لمصر وشقيقاتها العربيات ، وقدمت فكرة القومية العربية السند

القوي المباشر لنضال مصر ضد الاحلاف الغربية في المنطقة العربية كلها ، ولم يستطع أحد من غلاة الرجعيين أو الاستعماريين أن يطمعن كفاح مصر لتحرير المنطقة العربية من خطر الأحلاف بدعوى ان هذه الاحلاف لا تربط مصر نفسها.

وخلال هذه الفترة برز الخطر الاسرائيلي كخطر مباشر على مصر ، وقامت القوات الاسرائيلية في عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ بسلسلة من الاعتداءات في غزة وخان يونس والعوجة والصبحة والكونتيلة ورفح ، وأثبتت اسرائيل بالدليل العملي نواياها العدوانية التوسعية في العالم العربي تحقيقاً لحلم الصهيونية المنقوش شعارا للكنيست يجعل حدود إسرائيل تمتد من الفرات الى النيل وأيقن المصريون ان الخطر الاسرائيلي أكبر من أن يواجه بسياسة إنعزالية اقليمية بل تتحتم مواجهته بعمل جماعي عربي وحدوي يرد على هذا الخطر المشترك .

ثم تعرضت مصر للعوان الثلاثي عام ١٩٥٦ وهب العرب جميعاً على اختلاف حكوماتهم واحزابهم وتنظيماتهم واتجاهاتهم يؤيدون مصر ويضعون أنفسهم على الخط الأول في المعركة وكان درس العدوان مناسبة عملية أظهرت قوة التضامن العربي وأثبتت للمصريين انهم لا يقفون وحدهم وان ظهرهم يحمي بالأخوة العربية ، وأن الضربات التي يتعرضون لها يمكن أن تفقد قوتها في العمق الاستراتيجي العربي ، وهكذا لم تخرج مصر وحدها ظافرة من العدوان الثلاثي ، وانما خرجت القومية العربية أيضاً ظافرة رافعة أعلامها.

واستمر المد العربي الثوري بقيادة مصر يطهر الارض العربية من الخليج إلى المحيط فقامت ثورة العراق وسقط حلف بغداد وفشل التدخل الأمريكي في لبنان وسقط مشروع ايزنهاور ملء الفراغ وأحبطت المؤامرات الاستعمارية ضد سوريا وتلقى الكفاح العربي في المغرب والجنوب دفعة هائلة أدت فيما بعد إلى انتصار ثورة الجزائر واستقلال الجنوب العربي .

وأدى تيار القومية العربية الظافر المكتسح إلى التعجل في محاولة تحقيق الوحدة العربية الشاملة فقامت الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ وأعلنت الجمهورية العربية المتحدة التي أريد بها أن تكون نواة لدولة العرب الكبرى في المستقبل. وليس هنا مجال الحكم على تجربة الوحدة المصرية السورية ولكن يمكن القول بأنها لم تفشل لأنها تعارض آماني المصريين أو السوريين ، ولم تفشل لأنها لم تلسع لتحقيق مصالح الشعبين ، وإنما فشلت نتيجة لعدم الاعداد الكافي ولوجود أخطاء كبيرة في التطبيق والتنسيق ولعدم التحرز من الرجعية الداخلية والمناورات والمطامح الشخصية وغير ذلك من الأسباب التي مهيا قيل عن خطورتها وجسامتها فأنها لا تمس الجوهر ذاته .

وبعد فشل الوحدة المصرية السورية كان يخشى أن تدخل حركة القومية العربية مرحلة من الجذر والانحسار ، ولكن مصر كانت قد أدركت بما فيه الكفاية ان انتاءها العربي ليس مجرد سياسة أو أسلوب نضال دائرة نشاط وإنما هو حقيقة وجود ، لقد أدركت ببساطة انها عربية وعليها ان تكون كذلك في السراء والضراء ، ولذلك واصلت مصر حمل اسم الجمهورية العربية المتحدة ورسالتها ، وواصلت سياستها التحريرية التقدمية في المنطقة رغم ان الرياح لم تكن مواتية بل كانت في أغلب الأحيان معاكسة .

وإذا كان فشل تجربة الوحدة اختباراً قاسياً لعروبة مصر خرجت منه بنجاح ، فان اختباراً آخر أشد قسوة كان لا يزال يجبئها لها القدر ، فعندما حدثت الهزيمة العسكرية المريعة في تاريخ العرب والمصريين في يونيو ١٩٦٧ ظن الكثيرون في المنطقة وخارجها ان هذه هي نهاية دعوى القومية العربية بالنسبة للعرب عموماً وللمصريين خاصة ، وان كل دولة عربية ولا سيما مصر سوف تلزم حدودها الاقليمية وتعكف على شئونها الخاصة ايثاراً للسلامة في

منطقة تملو فيها قبضة الصهيونية العاتية وتسيطر على أجوائها أسلحة الامبريالية الأمريكية .

ولكن أوهام أعداء العرب سرعان ما انهارت على صخرة المقاومة المصرية - العربية ، وكان تمسك مصر بعروبيتها أول شوط أتاح للمنطقة العربية الصمود في وجه تحد لم يسبق له مثيل منذ أيام الصليبيين والتتار ، ولم يكن تمسك مصر بعروبيتها وبقيادة الكفاح العربي من أجل النصر من قبيل التفضل أو المجاملة بل كان اقراراً لحقيقة بسيطة واضحة تعي واقع مصر العربي وارتباطها العضوي بالمصير العربي العام ولذلك التزمت مصر بالسعي لتحرير كل الأراضي العربية المحتلة ولم تسع لتحرير سيناء وحدها .. أعلن هذا الهدف قادة مصر عندما أكدوا انه لن يكون هناك حل مصري لأزمة الشرق الأوسط تماماً كما أنه لن يكون هناك حل سوري أو أردني بل هناك حل واحد لا بديل عنه هو الحل العربي للمشكلة سواء بالسلام المشرف أو القتال حتى النصر .

* * *

ثمة خطأ واحد شاب مرحلة اعلان عروبة مصر ذلك هو تصور البعض وجود تعارض بين المصرية والعروبة ، وان اعلاء شأن العروبة يقتضي التفاضي عن السمات المصرية الخاصة ، وان الاعتزاز بالمصرية ينطوي على مساس بعروبة مصر والتقليل منها ..

لقد تصور البعض أن عروبة مصر تعني عدم وحدة تاريخها ، وان القول بوحدة التاريخ المصري يعني التنكر للقومية العربية ، وأصبح تاريخ مصر الخاص شيئاً شبه محرم أما الإشارة لماضيها الفرعوني فهي الكفر بعينه !

وما أسرع ما كانوا يشهرون الاتهام بالاقليمية في وجه كل من يتحدث عن

التاريخ المصري القديم أو يزعم وجود سمات مصرية خاصة بل وصل الأمر
بالبعض إلى حد المطالبة بعدم استخدام اسم مصر إطلاقاً وتحريم الأغاني التي
تتغنى بهذا الاسم بدعوى أن ذلك يقوي الاتجاهات الاقليمية الانفصالية
لدى المصريين !

ولكنها الحساسية المفرطة ازاء شبهة التناقض بين القومية والتاريخ هي
ما كانت تلي مثل هذا التفكير ، وكأن محاولة طمس تاريخ مصر واسمها
وقسماتها الخاصة هو ما يجعلها عربية !

وقد وصل الأمر إلى حد أن كثيراً من الكتاب والمفكرين الممتازين كانوا
يتورعون - وكأنهم أمام « تابو » أو ارهاب فكري - عن الاشارة بالحضارة
الفرعونية ، ويمكن أن نضرب هنا مثلاً تلك الفقرة الاعتذارية التي وردت في
كتاب الدكتور جمال حمدان القيم « شخصية مصر » وتقول « اليوم لم تعد مصر
الفرعونية إلا مكدسة في المتاحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين ،
أما في الوادي فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر ، ولهذا
ننتهي إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت في مجموعها دون أن ينفي ذلك
الاستمرارية المحورية في حضارتنا المادية » (١) .

ويبدو هذا الحكم غريباً في خاتمة كتاب جاد ممتاز كرس لجلاء شخصية
مصر الجغرافية التاريخية النفسية وأوضح بما فيه الكفاية ان الشخصية المصرية
في صورتها الحالية انما ساهمت في صياغتها إلى حد كبير المرحلة الفرعونية ،
ولكن تأتي هذه الفقرة لتوحي بأن هذه المرحلة يمكن بترها ببساطة كحفرة
غير حية تماماً كحضارة الانكا في أمريكا الجنوبية فهي ليست أكثر من آثار

(١) شخصية مصر ص ٨١ .

مكدسة في المتاحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين . غير أننا نقول - وكذلك يقول منطق كتاب جمال حمدان نفسه - ان مرحلة الحضارة الفرعونية ليست حفريات مئة في تاريخ مصر إلا بالقدر الذي يمكن أن نعتبر فيه الطفولة والشباب مرحلة مئة في عمر الرجل الناضج ، حقاً ان الرجل لا يمكن أن يرتد إلى الطفولة او الشباب ، ولكنه لا يستطيع أن يهرب من تأثيرها في حياته ، ولا يستطيع أن يزعم أنه قفز إلى الحياة بصورته هذه ، بل نقول ان المرحلة الفرعونية بالرغم من موت مظاهرها قد لعبت دوراً هاماً في صياغة الشخصية المصرية ، ولا يمكن بترها كحضارة سومر وبابل بالنسبة للعراقيين المحدثين ، فالعراقيون العرب المحدثون كانوا بمثابة فرشة جنسية جديدة على أرض تلك الحضارات القديمة فهم منبتو الصلة عضويًا بها وليسوا كذلك المصريون المحدثون الذين هم امتداد طبيعي للشعب الذي صنع الحضارة الفرعونية دون أن يعني ذلك أي جمود أو ارتداد للماضي .

مرة أخرى انها الحساسية المفرطة إزاء شبهة التعارض بين التاريخ والقومية . . وهي ظاهرة تعتبر رد فعل مباشر لمرحلة تجاهل عروبة مصر ولمعارك المراهقة الفكرية بين دعاسة القومية المصرية ودعاة الفكرة العربية في مرحلة ما بين الحربين .

ولا شك في أن الذين يحاولون التشكيك في عروبة مصر لعزلها عن العالم العربي منطلقين من تغليب الاقليمية على القومية والفرعونية على العروبة إنما يصعدون عن ضيق أفق وربما عن خبث سياسي مقصود ، فإن مصر هي قلب العالم العربي وحجر الأساس فيه ، ومصيرها مرتبط بمصير الأمة العربية ارتباطاً عضوياً ، وهي من الناحية العددية ثلث العالم العربي ، ومن الناحية الثقافية قائدة الفكر العربي ، ومن الناحية الاستراتيجية قلعة الدفاع والهجوم للعرب جميعاً .

ولكن ذلك لا يعني فصم تاريخ مصر أو الغاء سماتها الخاصة ، وحسن إدراك

المصريين لعروبيتهم لا يستدعي أن يتجاهلوا تاريخهم وأن يغفلوا عن فهم وإدراك مراحل المختلفة القديمة والمتوسطة والحديثة لأن هذا التاريخ نفسه هو الذي صاغ شخصية مصر العربية المعاصرة ، وهو الذي تمت في أحشائه تلك العملية العميقة المعقدة التي أسفرت عن تعريب مصر ، وتصديها لحمل لواء العروبة فكراً وعملاً .

ويعجبني في هذا المقام قول أنيس صايغ وهو الحريص على الدفاع عن القومية العربية واعلاء شأنها .. « ان القول بإبعاد معينة لتاريخ مصر وحضارتها ليس خطأ بحد ذاته ، انما الخطأ في انكار الأساس العربي لهذا التاريخ وتلك الحضارة من أجل تتين أحد تلك الأبعاد ، والقول بالحقيقة العربية لا يعني اذابة مصر ومحو اسمها وتاريخها وحضارتها بقدر ما هو توطيد للعلاقات المصرية العربية»^(١) .

ويعجبني كذلك دفاع الدكتور حسين فوزي عما يسمى بالمدرسة الفرعونية التي نشأت عقب ثورة ١٩١٩ في عشرينات هذا القرن إذ يقول « ولم تكن تلك المدرسة لتتنكر للعروبة ، فما عرفنا من أقطابها إلا كتاباً في صدارة كتساب العربية ، ومفكرين من أعرف الناس بتاريخهم الإسلامي ، انما كانت حركة تحاول أن تمحو عن المصريين سبة وعاراً ، سبة جهلهم بتاريخهم ، وعار ازدهارهم بأجد حقبة من أحقاب هذا التاريخ »^(٢) .

* * *

والوحدة العربية لا يمكن أن تعني اغفال الخصائص الاقليمية للشعوب ، وهي ليست عصا سحرية تزيل بلمسة واحدة كل الفروق والاختلافات والسمات

(١) الفكرة العربية في مصر : ص ٣٢٨ .

(٢) سندباد مصري : ص ١١٦ .

النفسية والتاريخية والثقافية بين أفراد الأمة العربية .. بين السوري والمصري والمغربي والسوداني واليمنى ، وهي ليست خاتماً يدمغهم بطابع واحد ، ولا مصفاة لا تسمح بنفاذ سوى الاحجام المتأصلة ، وهي ليست ضريبة لا يمكن تأديتها إلا بالتخلي عن الطابع المحلي ، وإنما المحذور الوحيد أن يكون التمسك بهذه الخصائص الإقليمية وسيلة لضرب الوحدة العربية أو الحيلولة دون قيامها .

والهدف من الوحدة - بل ومعناها بالتحديد - ليس خلق شعب جديد متماثل في كل شيء ، وإنما إقامة كيان وحدوي للشعوب العربية ينسق جهودها السياسية والاقتصادية والدفاعية والثقافية ويكتل قواها بما يعود عليها بالنفع المشترك ويدرك عنها الخطر المشترك .

والشكل السياسي للوحدة ينبغي أن يكون مريحاً وطبيعياً بمعنى أن لا ينطوي على تجاهل الحقائق المحلية وطمس السمات الذاتية للشعوب المشتركة فيها ، فلا يلغى الجزء من أجل الكل ، ولا يحارب حنين المواطن لأرضه التي تمتد فيها جذوره بدعوى محاربة الاقليمية ، فإن أخطر ما يهدد الوحدة العربية اقتلاع المواطنين رأسياً لنثرهم أفقياً .

الوحدة العربية يجب أن تكون صيغة دقيقة للتوفيق بين الجزء والكل ، ومراعاة التنوع في اطار التجمع ، وبغير ذلك يظل خطر الانتكاس قائماً ، وتظهر الفرصة لضرب القومية نفسها لحساب الاقليمية ، أو تحدث الصورة العكسية فيلشأ حكم حديدي بدعوى حماية الوحدة من خطر الانتكاس وبذلك تكون وحدة غير ديموقراطية ، وغير تقدمية ، وبالتالي لا يتسع لها المستقبل .

ولا يمكن أن تتحقق الوحدة العربية الشاملة بقرار سياسي فوري ، وفشل تجربة الوحدة السورية المصرية أبلغ تحذير من هذا الأسلوب ، فالوحدة الحقيقية

ليست مجرد خروج إرادي من باب يخفي وراءه الإقليمية والدخول في باب تنبسط أمامه القومية .. هكذا ببساطة شديدة وبتمسك كبير . وانما هي ثمرة طبيعية ومحتومة للنضال الشاق الطويل الذي تخوضه شعوب الأمة العربية جمعا رغم أي اختلافات فيما بينها .

وإلى أن تتحقق هذه الوحدة الشاملة وحتى بعد أن تتحقق ستظل المشاعر الوطنية قائمة إلى جانب المشاعر القومية ، فلا تعارض البتة بين الوطنية والقومية .. بين الجزء والكل .. بين مصر والعروبة .

المحتويات

مقدمة :

٥

المشكلة والمنهج

القسم الاول :

استمرارية أم انقطاع

٢٥

١ - نظرة في اعماق التاريخ

٤٥

٢ - اسباب الانقطاع النفسي

٦٧

٣ - البحث عن خيط عام

٩١

٤ - رواسب الفولكلور

١١١

٥ - الاستمرارية الجنسية

القسم الثاني :

عروبة مصر

١٢٩

١ - علاقات قديمة

١٤٩

٢ - مصر ترحب بالفتح العربي

١٦٥

٣ - تعريب مصر

١٨٣

٤ - دماء جديدة

١٩٧

٥ - شخصية مصر الاسلامية

القسم الثالث :

بين الوطنية والقومية

٢١٩

مصر والابعاد الثلاثة

هذه السلسلة

تعد الثورة المصرية التي تفجرت في ٢٥ يناير ٢٠١١ موجة جديدة ورائعة من موجات ثوراتنا الوطنية من أجل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ولما كان تاريخنا الوطنى الحديث والمعاصر قد مر بثورات وطنية ضد النفوذ الأجنبى والاستعمار والاستغلال والاستبداد، فقد أزدت دار الكتب والوثائق القومية أن تقدم هذه الإصدارات - غير الدورية - التى تعالج قضايا النهضة والثورة والحرية والعدالة، سواء عن مصر أو غيرها من تجارب الأمم الأخرى، خاصة ونحن على أعتاب مرحلة جديدة من تاريخنا الوطنى، لتخاطب بها عقول الشباب وعامة المثقفين، ولتصلهم بتراث الفكر المصرى الحديث والمعاصر، والتراث العالمى على حد سواء.

ودار الكتب إذ تحيي ثورة الشباب فإنها تقدم بهذه الإصدارات - بسعر رمزى - زائراً ومعرفياً يذكى معارك النهضة والتحرر بكل لبنى معاً مصر جديدة وطناً للحرية والعدالة كما كانت عبر تاريخها المجيد



دار الكتب والوثائق القومية

مُطَبَّعٌ بِدَارِ الْكُتُبِ وَالْوُثَايِقِ الْقَوْمِيَّةِ بِالْمُهَلَّةِ

Bibliotheca Alexandrina



1031932